

شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الرباط - المغرب

البيعة والخلافة في الإسلام

من أعلام الطب في الغرب الإسلامي

كلمات الجلسة الافتتاحية للندوة

الغزالي: حجة الإسلام

علم التجويد وواقعه بالمغرب

• دعوة الحق • ذي الحجة 1405 - شتنبر 1985 • العدد 252 •

• الثمن 4,00 درهم •

الكلمات التي ألقيت في الجلسة الختامية لندوة العيون

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية



ندوة الإمام مالك
إمام دار الهجرة

الجزء الأول

بفاس
9-10-11-12 جمادى الثانية 1400
25-26-27-28 أبريل 1980



شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية
الرباط ـ المملكة المغربية



أسسها :
جلالة المغفور له
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ ــ 1957 م

التحرير :
الهاتف : 601.85

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

✱

الاشتراكات : في المملكة المغربية : 70 درهما
في العالم : 80 درهما

الحساب البريدي : رقم 55-485 . الرباط
Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

● المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر عن رأي كاتبيها ولا تلزم المجلة أو الوزارة التي تصدرها ●

فهرس العدد 252

افتتاحية

يد الله فوق أيديهم

□ النجاح الكبير والصدى البعيد اللذان خلفتهما ندوة : البيعة والخلافة في الاسلام، التي انعقدت بمدينة العيون في اواخر شهر سبتمبر من هذا العام هما نجاح «وصدى يدلان على ان المقاييس الموضوعية التي احكمت عقد هذه الندوة الهامة، كانت مقاييس مستندة الى الايمان برسالة خالدة، وهي الاسلام، وبنهج واضح منه، هو السنة، وبحقيقة فطرية في المجتمع البشري، هي ركيزة التواصل بين الحاكمين والمحكومين، وبعد هذا وذاك، بواقع يفخر المغرب ويعتز به ايما فخر واعتزاز، الا وهو واقع كون المملكة المغربية تحت القيادة الحكيمة لامير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني المؤيد بالله، تطبق هذه الرسالة، وتسلك ذلك النهج، وتتمسك بتلك الحقيقة، لا تحيد عنها ولا تعيش بمعزل عن هذه العناصر المكونة لمقدسات الامة المغربية ومقومات وجودها عبر التاريخ، اي منذ اربعة عشر قرنا ونيف.

والبداهة، تفرض ان يكون المغرب، على الدوام، سباقا وفي طليعة الطليعة من دول العالم الاسلامي الى عقد الندوات واللقاءات والمؤتمرات الاسلامية المثمرة والمفيدة، التي تعود على الامة الاسلامية بالجدوى الجزيلة ابتغاء المزيد من التطور والتقدم والارتقاء لمصلحة شعوب هذه الامة بكاملها.

وندوة البيعة والخلافة في الاسلام التي احتضنتها مدينة العيون والتي نظمتها وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية، هذه الندوة بما احيطت به من رعاية خاصة واهتمام مشهود، كانت

استجابة واضحة وجادة وذات روح من المسؤولية الفكرية والتوجيهية عالية ورفيعة المستوى، لدور المغرب الطليعي والرائد في عمله الاسلامي الشامل والمتكامل الذي لايني امير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني عن موالاة بذله على شتى الاصعدة وفي مختلف المحافل، قارية كانت او دولية او جهوية.

ومن منظور كهذا، نفسر المضمون الممتاز لحدث رفيع في مستوى ندوة البيعة والخلافة في الاسلام، وذلك باعتبار ان موضوع هذه الندوة، هو من جهة احد المشاغل التي لم تنفك قائمة في الوعي الاسلامي منذ قرون عديدة، وهو من جهة اخرى، موضوع يتزامن بصفة شمولية مع مجموعة من التحولات والتطورات الوضعية الرامية الى دراسة علاقة الحاكم بالمحكومين من زاوية تكثر فيها الاجتهادات، التي تنتقل من النقيض في جل الاحيان، دونما ان يتحقق لها النضج والتكامل والتجاوب مع الفطرة البشرية على النحو المرغوب والمنشود.

ومن خلال هذا كله، ندرك الاهمية البالغة لندوة البيعة والخلافة في الاسلام كحدث اسلامي بارز، ينطوي على قيمة عالية من حيث الوعي والالتزام والحرص على السير دوما في المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها، من اجل ان تستقيم الحياة الانسانية وان ينتظم نظامها على دعامة من التقوى والفضيلة والاستقامة والعدل، وفق ما امر به الله ونهى عنه، ووفق ما جاءت السنة المطهرة مصداقا له بالقول والفعل.

وبعد هذا، ينفسح للمرء مجال واسع لتبيان ما لندوة البيعة والخلافة في الاسلام من اهمية قصوى، وعناية بالغة، ولتسجيل النجاح الكبير والصدى البعيد اللذين تركتهما هذه الندوة القيمة، لا على الصعيد العربي والافريقي وحسب، بل وعلى صعيد الامة الاسلامية جمعاء، وقد كان للعالم العربي وللعالم الاسلامي وللدول الافريقية المسلمة، علماء أجلاء أفاضل، شاركوا في اعمال واشغال هذه الندوة، فعاينوا المدى العميق الذي يرتبط فيه وينتظم عقد الدولة المغربية، لغة ومذهبا وتاريخا ووحدة وتراثا وحضارة

وسيادة.. فيه وينتظم عقد الدولة المغربية، لغة ومذهبا وتاريخا ووحدة وتراثا وحضارة وسيادة.. بحيث يقال دونما جزاف في القول، ان امجاد المغاربة ومفاخرهم ومآثرهم المادية والمعنوية المنضودة في سجل التاريخ، وان ملاحمهم وانتصاراتهم ومكاسبهم التي حققوها عبر التاريخ كل ذلك كان وليد البيعة القائمة بين الشعب المغربي وملوكه الأبرار، لا يتخلف عنها في اشد الظروف السياسية والاجتماعية التي يجتازها الوطن خطورة وصعوبة، وفي نفس الوقت، يتحمل ملوك الشعب المغربي هذه البيعة، فيقومون بالتزاماتها كأحسن ما يكون القيام، ويضطلعون بواجباتها كاحدى وأثمر ما يكون الاضطلاع، وهذا بالذات ما حصل ويحصل دائما في المسار الذي يأخذه التاريخ الوطني لبلادنا، حيث تكون البيعة التي يجددها الشعب للملك، بمثابة عهد تتجدد فيه مظاهر الحياة العامة تجددا يفضي الى الاحسن والامثل والافضل.

ومن نعم الله سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين برسالته التي نزلها على نبيه المصطفى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ان جعل البيعة عهدا وميثاقا، الله عليه شهيد.

وهذه الشهادة من الله سبحانه وتعالى على البيعة حينما يعقدها المؤمنون لاميرهم او سلطانهم او خليفتهم، هي ابلغ دليل ان كان الامر يحتاج الى هذا الدليل ـ على ان البيعة هي امر يتعلق تعلقا جوهريا بالشريعة والدين والعقيدة، ويرتبط ارتباطا وثيقا بالصلة الالهية المتمثلة في دينه ورسالته ورسله وعباده الاصفياء الذين يجتبيهم جل وعلا لهداية الناس، وتطبيق الشرع فيهم، والسير بهم على ما ارادت مشيئته وحكمته في الارض.

ومعنى ذلك، ان للبيعة ـ معنويا وحسيا ـ علاقة وثيقة، اشد ما يكون الوثوق بالرسالة الالهية الى البشر، فاذا لم يكن للمجتمع البشري ادنى صلة بالبيعة، انقطعت علاقته بالرسالة الالهية وعاش هذا المجتمع عيشة جاهلية، وهذا مصداق ما جاء في الاثر : من مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية».

واذا نظرنا الى البيعة من زاوية أعم، وجدناها ـ كمضمون

يتعلق طرفاه بالجانب الالهى من ناحية اساسية اولا، ثم بالجانب البشرى لصلاح العمران وقوامه واستمراره من ناحية اخرى - اصطلاحا اشد بلاغة وبيانا في التعبير عن الغاية المتواخاة من السياسة المدنية التي بدونها لا يكون للبشر صلاح ولا هداية ولا تقدم ولا ارتقاء.

وذلك، أن ما يقع بين البشر - آحادا وجماعات، وشعوبا ودولا - من مواثيق وعهود، جائز فساده وبطلانه، بحكم الامزجة والطبائع والاوهام التي تساور البشر، فأما ان كانت هده العهود والمواثيق يرعاها الله، وتبتغي لمرضاته وثوابه، ويسعى بها الى اتقاء عقابه ونيل مثوبته، فان الالتزامات والحقوق التي يتبادلها الحاكمون والمحكومون في ضوء هذا المفهوم، تكون ابقى وادوم، فالشريعة لها حافظة، والملة عنها ذابة، والفضيلة لها راعية، وهي بالهدى والانتهاج والاستقامة مصونة مرعية.

نعم، جاءت التحولات التاريخية، سلبية كانت ام ايجابية، بنظريات ابتدعها العقل الانساني واصطلح عليها بكونها نظريات الحكم السياسي تقوم عقدا متبادلا بين الحاكمين والمحكومين، ولكن جاء مع هذه النظريات كذلك، علة في النظر والتحقيق، واعتلال في التحليل ابعد الناس عن الصواب والصراط المستقيم، وجاء معها كذلك فساد في الرؤية أدى الى اختلال المظاهر العمرانية والحضارية للبشر، فكان لابد اذن من الرجوع الى الاصل في سن السياسة المدنية على اساس شرعي يقوم العقل بتطبيقه ما دام الله قد اوثق - بالكتاب والسنة - هذه السياسة واساسها، وقواها بما تتقوى به جميع الاعمال البشرية من حكمة الهية حين تعود المجتمعات عن ضلالها، والافراد عن تيههم وحين تعتمد الشريعة مبدأ ومنطلقا.

ولطالما أثيرت مسألة الخلافة، وما زالت تثار في الفقه السياسي، الاسلامي وغير الاسلامي، الا انه بالرجوع الى مسألة البيعة، تحسم معها مسألة الخلافة حسما نهائيا.

ويدل على ذلك ابلغ الدلالة واعمقها، ان الدين الاسلامي دين شمولي شامل، بمعنى انه دين للحياة الدنيا وللآخرة. وبمعنى انه نظام

للحياة كامل ومتكامل، ينظم العلاقات والمعاملات، مع الافراد ومع الجماعة ومع الحاكم، فليس هناك انفصال بين الدين والحياة، او تقسم بينهما، فالفرد يعيش الدين ويمارسه كما يمارس الحياة ويعيشها، وهو في ذلك سعيد كل السعادة، بخلاف نده في الغرب، الذي تستوحش نفسه ويغترب وعيه وينتكس فكره وتعتل عقليته حين يرى حياته في واد، ودينه في واد اخر.

والسبب في شقاء الانسان المعاصر في الغرب، انه قطع صلته بالدين وجعل هذه الصلة بمثابة التزام او عهد سياسي، يتخلى عنه متى يشاء، وبمثابة اختيار عقائدي، ينزعه عن نفسه متى يريد.

ومن ثم، كانت البيعة علاجا حاسما لذلك الخلاف السياسي المستديم بين الحاكمين والمحكومين والذي هو في الواقع خلاف افرزته الحضارة الغربية، وليس من الاسلام في شيء.

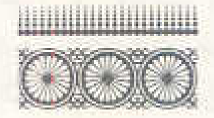
ومن ثم ايضا، كانت البيعة، هي النظام الامثل، المتجسد في الخلافة، الذي جاء لينهج بالانسان نهجا عادلا مثاليا، تنتظم فيه العلاقات والالتزامات، وتنتظم فيه الواجبات والمعاملات، نشدانا لحياة افضل للانسان والمجتمع والدولة والكيان البشري بمفهومه الواسع الشامل.

ظلت نقطة هامة، وهي المغزى من انعقاد ندوة البيعة والخلافة في الاسلام في مدينة العيون بالذات، وهذا المغزى اضفى على هذه الندوة مسوحا من الجلال والاكبار، ذلك لان مدينة العيون، حاضرة الصحراء المغربية، تجسد وتشخص المظهر الروحي والعمراني المتطور الذي لم يخلق في الواقع سوى كثرة لتجديد سكان الصحراء المغربية بيعتهم لامير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني المنصور بالله، أسوة بآبائهم وجدودهم الذين قدموا منذ سالف السنين والقرون، البيعة الى ملوك الدولة العلوية الشريفة، فكان الخلف من هؤلاء بتجديد البيعة لامير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني، خلفا عند العهد، وعلى الميثاق، وخلفا ماسكا بالقول الثابت قائما على الامانة المقدسة، يصونها ويحميها ويرعاها ويفتديها بالانفس والاموال والدماء حفظا لميثاق كان الله عليه شهيدا ووكيلا.

ان ندوة «البيعة والخلافة في الاسلام» التي نظمتها وزارة الاوقاف

والشؤون الاسلامية بمدينة العيون، والتي شارك فيها ازيد من مائة عالم ينتمون الى افريقيا والدول العربية والاسلامية، علاوة على علماء المغرب، هي من منظور شمولي، تمثل حدثا بارزا على اكثر من مستوى، ولقد دلل هذا الحدث في حد ذاته، على ان المغرب، وهو البلد الاسلامي العامل الرائد، يصبو الى وحدة الامة الاسلامية وحدة قوامها الوجدان والروابط والعلائق التي جعلها المولى سبحانه وتعالى ابقى واقوى وشيجة تلزم المسلمين - حاكمين ومحكومين - بالكلمة الطيبة التي أصلها ثابت في الارض وفرعها قائم في السماء تثبت الامة الاسلامية، وتجمعها على صعيد الاخوة والالفة والمحبة، وتهديها باذن من الله الى الصراط المستقيم، وترقى بها في معارج التقدم والصلاح، ومدارج النهضة والحضارة والمدنية الحقيقية.





كلمة السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

الدكتور عبد الكبير العلوي المدغرى

إنه لمن سعادة المرء أن تحقق آمال وطنه فيراه محررا، مجتمع الشمل رافلا في حلل العزة والكرامة، متمتعا بالأمن والاستقرار سالكا مسالك النماء والإزدهار.

ومن سعادتنا نحن العلماء أن نجتمع اليوم بمدينة العيون لنؤكد أن ما تحقق ما هو إلا ثمرة من ثمرات الإلتحام بين الشعب والعرش وأن النظام الذي اختاره الله لهذا الشعب والقائم على مبادئ الإسلام وعلى أساس البيعة ورسم الخلافة هو النظام الجدير بأن يحفظ لهذا الوطن عزته وكرامته وحريته واستقلاله ووحدته والتحامه وازدهاره وانتصاره، وأن يصون له عقيدته وإيمانه وشريعته وإسلامه.

وكيف لا والملك ظل الله في الأرض وحامي حوزة الدين الذي هو عصمة أمر المسلمين وبه صلاحهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم).

حضرات السادة الكرام :

من خصائص الشريعة الإسلامية أنها كاملة لا نقص فيها، وتامة لا تعارض بين أحكامها ولا تناقض بين أجزائها، ولذلك كان من الطبيعي إذا اهتمت بالدين أن تهتم بالدنيا وإذا اهتمت بالعدل أن تهتم بالإحسان، وإذا اهتمت بالضروريات أن تهتم بالحاجيات والتحسينيات، وإذا اهتمت بالفرد أن تهتم بالجماعة ((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا)).

وإذا أخذنا جانبا واحدا من جوانب هذه الشريعة وهو نظام الحكم في الإسلام وجدنا صفتي الكمال والتمام جاريتين عليه ظاهرتين فيه.

فرئيس الدولة في الإسلام هو أمير المؤمنين وخليفة رسول الله ﷺ. وهذان الوصفان يحددان بساطة وفاعلية جميع الشروط الواجب توفرها في رئيس الدولة كما يحددان مجال سلطته التي تمتد لتشمل الجانبين الديني والزمني ويضعان أمامه سيرة رسول الله ﷺ في أمته منهج سلوك وطريقة عمل وأسلوب سياسة ومرجعا في جميع النوازل والملمات.

والرعية عبيد الله وحده يحطهم أمير المؤمنين على شريعة الله وله عليهم حق الطاعة يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه ولا يخالفون في أمر ولا يشقون عليه عصا الطاعة، وينصحون له لأن طاعته طاعة لله ولرسوله وعصيانه عصيان لله ولرسوله والنصح له دين.

والرابطة التي تربط بين الراعي والرعية هي البيعة وهي رباط ديني متين تنتظم في سلكه حقوق والتزامات

يتعهد كل طرف أمام الله عز وجل باحترامها، ومن خانها فقد خان ربه وعرض نفسه لغضب الله ومقته، ففي الحديث الشريف : (من نزع يدا من طاعة لقي الله وهو عليه غضبان ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية).

والذي يعقد هذه البيعة للأمير أهل الحل والعقد في الأمة من علماء ووجهاء وكل من تحصل للأمير بهم شوكة ظاهرة ومنعة قاهرة، والإجماع ليس شرطا لأن الغرض من نصب الإمام حفظ حوزة الدين والإهتمام بأمر المسلمين وعظائم الأمور لا تقبل التريث والتلكأ إلى أن يحصل الإجماع عليها، فأبو بكر رضي الله عنه صحت له البيعة فقضى وحكم وأبرم وأمضى وجهز الجيوش وعقد الألوية ولم ينتظر في تنفيذ الأمور حصول الإجماع وتقرير البيعة من الذين لم يكونوا في بلد الهجرة، لذلك قرر العلماء أن الإمامة تثبت بمبايعة رجل واحد من أهل الحل والعقد جهارا فإذا اتسعت الطاعة وانقادت الجماعة حصل المقصود، واستتبت البيعة ووجب على المخالف أن ينصاع وحق للأمة أن تحمله على ذلك ولو بحد السيف.

وإذا كان لأهل الحق والعقد أن يعقدوا البيعة للإمام فإنهم إن عقدوها ليس لهم حلها باتفاق الأئمة، فإن عقد الإمامة لازم لا اختيار في حله ما دام الإمام مسلما ولا تنتظم الإمامة وتستتب الخلافة إلا مع القطع بلزوم البيعة ولو ترك للرعية أمر الاختيار في الخلع والتولية لضاع الإستقرار وفاتت على الأمة ثمرته وفتح باب الفتنة. ومسالك الفرقة. ولما استتبت للإمام طاعة ولما استمرت له قدرة واستطاعة.

وللإمام أن يولي العهد بعد وفاته لمن شاء لأن الإمام له النظر في مصالح الأمة وهو كهف ثقتها ومستودع أماناتها فإذا اختار من يتولى أمورها بعده كان ذلك داخلا في النظر العام الذي خوله له عقد البيعة. قال إمام الحرمين الجويني رحمه الله :

(وأصل تولية العهد قطعا مؤيد بالإجماع الواجب الإتباع).

وأبو بكر رضي الله عنه لما عهد إلى عمر بن الخطاب وولاه الإمامة بعده لم يعترض أحد من أصحاب رسول الله ﷺ.

بل ذهب العلماء ومنهم إمام الحرمين إلى أن اختيار الإمام ولي عهده هو الأولى قال : (فالإمام الذي هو قدوة المسلمين وموئل المؤمنين وقد مارس الأمور وقارع الدهور وخبر الميسور والمعسور. وسبر - على كر العصور - النقائص والمزايا ودان طبقات الخلق والرعايا. وهو في استمرار سلطانه واستقرار ولايته في زمانه أولى بأن ينفذ توليته ويعمل خبرته. وهذا معلوم قطعا).

ومن ركائز الخلافة الشورى والأصل أن الإمام يستشير أهل الحل والعقد في الأمة وهم علماء الأمة ووجهاؤها وأصحاب الرأى والتجربة والصلاح والديانة، ويستشير في كل جهة أعرف الناس بها وفي كل مجال أقدر الناس فيه، وهؤلاء لا يشكلون سلطة تشريعية ولا سلطة تنفيذية وإنما هم هيئة استشارية.

والأصل أن الأمة لا تفرض على الإمام من يستشيره لا بالإنتخاب ولا بغيره ورأي أهل الشورى غير ملزم في الأصل لأنه لو كان كذلك لانتقص من ولايته العامة ونظره الواسع ولما كان مستقلا بتدبير أمر الأمة.

وطبيعة الخلافة تقتضي أن يستجمع الإمام في يده جميع السلط دينية ومدنية وعسكرية وتشريعية وقضائية وتنفيذية وهو الذي يختار من يفوض له مباشرة هذه السلط نيابة عنه، ويمنح تحت نظره ومباشرته فيختار من ينوب عنه في الصلاة بالناس وقيادة الجيوش وتبيين أحكام الشريعة والفصل بين الناس في النزاعات وتنفيذ الأحكام...

وقد تناول العلماء كلما يتعلق بتفاصيل هذا النظام البديع الذي جاء به الإسلام في السياسة الشرعية وبيان أحكام الراعي والرعية مما يشكل أساس القانون الدستوري في الإسلام.

فتحدثوا عن وجوب نصب الإمام شرعا وعن الجهات التي تعقد له البيعة، وعن صفات أهل الحل والعقد وعددهم وعن الصفات المرعية في الإمام، وتحدثوا عن الخلع والإنخلاع، وتحدثوا عن ولاية العهد وحكمها والشروط الواجبة فيمن يتولى العهد وحكم قبول ولي العهد التولية ووقته وحكم تولية العهد لأكثر من واحد على سبيل الشورى والإختيار. وحكم تولية العهد لأكثر من واحد على الترتيب كما تحدثوا عن إمامة المفضول وعن حكم نصب

إمامين وما يناط بالإمام عن الأحكام وعن أصل نظر الإمام في الأمور المتعلقة بالدين والأمور المتعلقة بالدنيا، وتحدثوا عن الشورى وكيفيتها ومن يستشير الإمام وواجبات الإمام وعن ضرورة العتاد والرجال والمال للإمام وعن مستخلفي الإمام من وزراء وولاة ووكلاء ونواب وأمراء جيوش.. الخ.

ويتضح للباحث المنصف أن الشريعة الإسلامية جاءت فعلا بنظام فريد من نوعه يسمو فوق جميع الأنظمة التي عرفتها الإنسانية على مدى تاريخها الطويل، ويعلو فوق جميع الفلسفات والإيديولوجيات التي تؤسس فلسفتها على اعتبارات مادية واجتماعية وإنسانية ليربط نظام سياسة الخلق بإرادة الخالق وحكمه ومقاصد شريعته ويؤسسه على قواعد الإيمان ويطهره من الأغراض والمصالح الآنية الدنيوية الفانية، ويسهم في خلق أمة الوسط أمة القرآن المؤهلة للإستخلاف في الأرض المكلفة برسالة السماء إلى الناس كافة.

ولا شك أن هذه الندوة المباركة التي تعتبر أول ندوة من نوعها باعتبار الموضوع الذي تدرسه ستقدم للناس جميعا كيفما كانت أجناسهم وأديانهم صورة ناصعة واضحة وصادقة عن نظام الحكم في الإسلام، وذلك بدراستها العلمية العميقة لموضوعي البيعة والخلافة في الإسلام.

حضرات السادة الكرام :

ونحن نعقد هذه الندوة المباركة في مدينة العيون عاصمة الصحراء المغربية أريد أن أؤكد حقيقة طالما حجبتها خطب السياسيين وكتابات المحللين الذين خاضوا في قضية الصحراء لحد الآن وهي أن قضية الصحراء المغربية قضية دينية وحضارية قبل أن تكون قضية وحدة ترابية.

نعم أيها السادة قضية الصحراء قضية دينية وحضارية.

لن أقرأ عليكم التاريخ فأنتم أساتذتنا فيه.

وأنتم تعلمون كيف تأسست الخلافة في الإسلام وكيف تواترت البيعة لأبي بكر الصديق يوم السقيفة وبيعة سيدنا عمر الذي كان ولي عهده وكيف تعين سيدنا عثمان من الستة المذكورة في الشورى بالبيعة، وكيف طلب علي بعده البيعة فكان أول من بايعه طلحة والزبير وكيف تطورت الأمور في زمن علي كرم الله وجهه حتى لقي ربه مدافعا عن شرعية الخلافة حريصا على أداء أمانة البيعة التي في عنقه وكيف سارت الأمور بعد ذلك إلى أن فر حفيده المولى إدريس إلى المغرب وبايعه الناس وأسس خلافة شرعية في ربوع هذه المملكة وكيف استمر نظام الخلافة الإسلامية في المغرب على تعاقب الدول وتلاحق الأزمان لا يكاد يتوقف أو يبعد عن تلك الأسس الشرعية التي جاء بها الإسلام والتي تقوم في مجملها على البيعة والشورى واعتبار الخلافة ولاية عامة ورياسة تامة تتعلق بالخاصة والعامة في مهمة الدين والدنيا.

وحتى عندما انفرط عقد الدولة العثمانية وتشتت أطرافها واستقلت الدول التي كانت داخلة تحت سلطانها وتقوض ذلك الصرح الذي كان قائما في المشرق.

بقي الأصل ثابتا في المغرب واستمر نظام الخلافة في هذه الربوع سليما حتى أن المؤرخ النزيه المنصف لا يسعه إلا أن يؤكد بأن نظام الخلافة لم ينقطع في الدنيا منذ فجر الإسلام إلى اليوم.

وإذا كان بعض الناس في بعض الدول قد تنكروا لهذا النظام بفعل الإيديولوجيات الحديثة التي غزت العالم الإسلامي وبفعل الدور الذي قامت به الدول الإستعمارية في تحريض كثير من البلدان على الإستقلال عن الخلافة باسم القومية والوطنية والديموقراطية وبحكم الإستيلاب الفكري والحضاري الذي مارسه المغرب على كثير من البلدان الإسلامية فإن المغرب والحمد لله بقي محافظا على هذا النظام حفاظه على أصالته وشخصيته.

وعندما عرضت قضية الصحراء المغربية على أنظار محكمة العدل الدولية حدثت المفاجأة الكبرى وهي أن هذه الهيأة الدولية اعترفت بذلك النظام الذي جاء به الإسلام في الحكم في الوقت الذي تنكر له أبناؤه واعترفت بذلك العقد الذي يربط بين الحاكم والمحكومين في ظل النظام وهو عقد البيعة واعترفت بأن المغرب كان يعيش فعلا في ظل النظام وأن سكان الصحراء كانت تربطهم بملوك المغرب رابطة البيعة.

وقد سجل صاحب الجلالة الحسن الثاني هذا الإعتراف في خطابه الكريم الموجه إلى سكان الصحراء بعد نجاح المسيرة الخضراء المظفرة يوم 23 أكتوبر 1975 حيث

قال جلالته : (وهذه البيعة التي تلزمك وتلزمني والتي تضع على كاهلك وعلى كاهلي أعباء وواجبات لم يكتف القدر بأن نقول بها ونصيح بها نحن وحدنا بل أرادت ألطاف الله ونعمه التي لا تعد ولا تحصى علينا ولله الحمد على أن يبوح العالم كله وأن تعترف بها الدوائر السياسية العالمية وأخيرا أن تضع طابعها القانوني عليها محكمة العدل حيث اعترفت بأن هناك روابط قانونية وروابط بيعة بين الشعب الصحراوي وبين المغرب).

ويعطي جلالة الملك لرابطة البيعة بعدها الديني فيقول في نفس الخطاب : (إن روابطنا وأسس تعاملنا ليست تلك الأسس المصطنعة التي خلقها التاريخ صدفة بل هي قبل كل شيء ترابط وتعامل مبني على أعز ما هو في أنفسنا وأقدس ما في أرواحنا وهو الإيمان بالله وبرسوله).

ونسجل هنا أن التنكر لحق المغرب في صحرائه هو تنكر لهذه القيم الدينية التي نؤمن بها وتنكر للإسلام الذي أتى بنظام البيعة وأحكامها وتنكر لتاريخ الإسلام الذي تسلسلت دوله وتتابع خلفاؤه وملوكه وأمراؤه ولم تعرف لهم شرعية إلا بالبيعة.

وإذا قلنا أن قضية الصحراء قضية دينية وحضارية فإننا نشير بذلك إلى دور العلماء في الدفاع عن مغربية صحرائهم دفاعهم عن قيمهم الروحية ونشير أيضا إلى هؤلاء الجنود الأشاوس من أفراد القوات المسلحة الملكية الذين يبذلون أرواحهم في سبيل الصحراء إنما يبذلونها في سبيل دينهم وعقيدتهم وأن هذا الملك الذي أبدع المسيرة وأقسم قسما وبر بقسمه وجاهد في سبيل هذه الصحراء وتمسك بالبيعة التي تربطه برعاياه إنما فعل ذلك كما جاء في خطابه المشار إليه آنفا بناء على أعز ما في نفسه وأقدس ما في روحه وهو الإيمان بالله وبرسوله.

حضرات السادة الكرام :

لا أستطيع أن أختم كلمتي دون أن أشكر من أعماق قلبي ونفسي سكان مدينة العيون والسيد الوزير المنتدب لدى الوزير الأول المكلف بالأقاليم الصحراوية رئيس المجلس البلدي لمدينة العيون والسيد عامل صاحب الجلالة والسيد رئيس المجلس العلمي وجميع رجال السلطة والمنتخبين وعلماء الإقليم ووجهاءه على حفاوة الإستقبال التي أبوا إلا أن يخصصوها للسادة العلماء المشاركين في هذه الندوة وليس ذلك بغريب فهم أبناء الحسن الثاني المشهور بحبه للعلماء وتكريمهم والعناية بهم والناس على دين ملوكهم.

أيها السـادة :

إن الكرام إذا أحسنوا كتموا ولكن من واجب المحسن إليه أن يذكر ويشكر ولذلك أقول أن صاحب الجلالة عندما بلغه العزم على تنظيم هذه الندوة المباركة أمر حفظه الله أن ينفق عليها من ماله وأن تتم في ضيافته الكريمة وأصدر تعليماته السامية بأن يفتح للعلماء مقر المؤتمرات هذا ليعقدوا فيه ندوتهم.

الختم بالدعاء لأمير المؤمنين مولانا الحسن الثاني.

الدكتور عبد الكبير العلوي المدغرى

كلمة السيد خليهن ولد الرشيد

الوزير المنتدب لدى الوزير الأول
في الجلسة الإفتتاحية

السيد خليهن ولد الرشيد

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على أشرف المرسلين

- السيد الزميل معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية
- السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم العيون
- السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم بوجدور
- السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم وادي الذهب
- السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم السمارة
- السيد الكاتب العام لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
- السادة رؤساء المجالس العلمية الوطنية

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

أولا في بداية هذه الكلمة، أود أن أرحب بكم باسم سكان مدينة العيون ترحيبا أخويا كاملا مطلقا وأقول لكم أهلا وسهلا بكم بين ذويكم وإخوانكم في مدينة العيون.

وتواجد هذا العدد من العلماء الأفاضل بمدينتنا يشرفنا كثيرا ونحن معتزون أولا برعاية صاحب الجلالة لهذه الندوة، ومعتزون كذلك بهذا التواجد الكثيف من علماء المملكة، ومن إخواني العلماء الأشقاء من إفريقيا ومن العالم العربي.

إن موضوع هذه الندوة : «البيعة والخلافة في الإسلام» لا يسمح لي نظرا لأني لا ألم بكامل جوانب الموضوع، أن أتطرق إلى جوهره وإلى جوانبه الدينية والشرعية والتشريعية، ولكن نظرا لأن الإسلام دين ودولة، فلتسمحوا لي، السيد الوزير، والسادة العمال الأفاضل أن أتطرق على الأقل - ونظرا لأهمية الموضوع بالنسبة إلى هذه المدينة وحساسيته السياسية والدينية أن أتطرق - على الأقل - إلى جانبه السياسي.

فأولا إن اختيار هذا الموضوع واسم الندوة والموقع الذي تنعقد فيه، له دلالة ولا سيما أنها تأتي بأشهر قليلة بعد الزيارة الميمونة التاريخية التي لا يمكن لأي مغربي أن ينساها والتي قام بها صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله وأيده إلى هذه المدينة وإلى هذا الإقليم، وبالذات إلى هذه القاعة التي نحن الآن فيها.

وهذا الموضوع : «البيعة والخلافة في الإسلام» بالنسبة لهذه المدينة وسكانها، لولا متانة وقوة الروابط الدينية والروحية المشخصة في البيعة، لما كان ممكنا اليوم لهذا العدد من السادة العلماء الأفاضل أن يكون موجودا في مدينة العيون، لأن الإستعمار أقام هنا مائة سنة، كما أقام في بلدان افريقيا كافة وفي العالم العربي والإسلامي.

وكان من الممكن أن يكون مصيرنا مصير كافة البلدان الافريقية الأخرى التي تقسمت وتجزأت إلى بلدان عديدة وكثيرة، نظرا لأن كل الروابط التي يمكن أن تكون عنصرا للوحدة أو الإتحاد أو الإندماج كانت منعدمة - تماما - في عالم الاستعمار. الروابط العصرية كروابط التجارة، انقطعت وروابط الصلة وروابط الاستمرارية الثقافية والعلمية، والروابط البشرية بصفة عامة. هذه الروابط كلها كانت منقطعة بقرار من المستعمر، وكل ذلك محاولة منه بأن تكون الصلة مقطوعة بصفة نهائية - ما بين المغرب - الوطن الأصل - والصحراء.

ولكن الإستعمار لم يدخل في مصطلحه وسياسته عنصرا لا يمكن تحليله من طرف غير المسلمين، وهو عنصر الروابط الدينية والروحية.

وهذا العنصر هو الذي جعل الإرتباط بالوطن الأصل، والإرتباط بالعرش، رغم مرور الزمان والأعوام، لم ينقطع وهي رابطة البيعة ورابطة الصلة بالعرش المغربي، هذا العرش الذي يعتبره جميع سكان الصحراء ممثلا لخلافة الدوحة النبوية الشريفة أولا واستمرارية الإسلام والسنة ثانيا، وديمومة الحماية العقائدية والوحدوية ثالثا. وكما قال زميلي الأخ الدكتور عبد الكبير فإنه حينما درست محكمة العدل الدولية بلاهاي موضوع الصحراء لم تأت بالحجج القانونية المقدمة من هذا الطرف أو ذاك، وإنما قالت بأن هنالك سيادة مغربية في الصحراء، هي روابط خصوصية تربط قبائل الصحراء بملك المغرب وتسمى هذه الروابط بالبيعة. وهذا ما جعل من قضية المغرب، قضية ناجحة، تكللت بالنجاح مع إسبانيا وتكللت بالنجاح مع جيراننا.

وبرهنت الزيارة التاريخية لجلالة الملك عن محتوى هذه البيعة، فاستقبل سكان مدينة العيون بشكل لا يمكن أن يوصف من الحماس والتشوق ملكهم وراعيهم وحامي دينهم، ومن تتشخص فيه جميع الروابط الدينية والروحية منذ أن كان المغرب دولة.

وفعلا، فإن مدينة العيون تتشرف بأن تكون في هذا المستوى من العلماء الأفاضل الذين يتناولون هذا الموضوع لتصعد به إلى مستوى مدننا العتيقة مثل فاس ومراكش.

وأنا شخصيا بصفتي رئيس المجلس البلدي وباسم سكان مدينة العيون، سعيد وسعيد جدا بوجودكم بمدينة العيون وما يمثله كل واحد منكم من شخصية وطنية ومن علم ومن مكانة في البلاد.

وأتمنى أن تكلل أعمال ندوتكم هذه بالنجاح والتوفيق إن شاء الله، وأن تكون دليلا آخر من الدلائل التاريخية والقانونية والدولية والشرعية التي تدل على مغربية الصحراء ومغربية أمنها، وتدل كذلك على المكانة المرموقة التي أصبحت تقوم بها - العيون - بما أنجز فيها من منجزات عظيمة جعلتها تكون في مستوى المدن الوطنية الكبيرة، التي تشرف بلدنا المغرب وتعتز بملكها جلالة الحسن الثاني نصره الله، وتبرز الدور الهام الذي يضطلع به بلدنا إزاء الدول الإفريقية والعربية.

وفي الأخير وكما قلت لكم سابقا أقول لكم أهلا وسهلا، وكما نقول نحن أهلا بكم وسهلا في خيمتنا وفي بيوتنا والسلام عليكم ورحمة الله.

السيد خليهن ولد الرشيد

كلمة السيد رئيس المجلس العلمي للأقاليم المسترجعة

الشيخ ماء العينين لارباس الأغظف

سيادة وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية.
السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم العيون.
السادة العلماء.
أيها السادة الكرام.
السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.
وبعد :

فإنه يشرفني ويسرني أن أرحب بكم غاية الترحيب في مدينة العيون المجاهدة باسم علماء الجنوب ومثقفيها.

فلقد أدخلتم سرورا بالغا على سكان هذه الجهة بهذا المقدم المبارك.

وإن اختيار مدينة العيون لاحتضان هذا الملتقى التاريخي والفريد من نوعه لتعتز به حاضرة العيون وتفتخر على ما سواها من حاضرات المغرب العريقة.

فبعد أن تمتعت مدينة فاس العلمية بأن خصها الله بأول ملتقى من ندوة الإمام مالك.

خصص الحديث في هذه الندوة على مالك ومذهبه، وعاشت حاضرة مراكش ندوة الإمام مالك دورة القاضي عياض حيث انصب الحديث في هذه المناظرة العلمية على حياة القاضي عياض وما خلفه من إنتاج بعد هاتين المدينتين العظيمتين التاريخيتين ها هي مدينة العيون يأتي دورها فتلتقي بنخبة من علماء العالم الإسلامي عرفوا بمكانتهم العلمية وجاهدوا بأقلامهم النقية، وانتصروا للحق بحكمة بالغة ومرونة كاملة.

فلقد ضم هذا الملتقى علماء المغرب الأفذاذ وعلماء من افريقيا ومن جهات إسلامية أخرى ليغنوا هذه الندوة التي تتناول حكم البيعة والخلافة في الإسلام ولا شك أنهم سيضيفون للخزانة الإسلامية بحوثا علمية في هذا المضمار ستفيد وتغني هذا الموضوع.

ويقيني كامل بأن أبحاث السادة العلماء وما يُضْفونه على هذه الندوة المباركة من نقاش علمي لإغنائها وحصول الفائدة منها كل ذلك سيكشف النقاب عن إنسانية الحكم في الإسلام، ويعطي للقارئ المعاصر من الشباب وغيره حقيقة الإدارة الإسلامية وما تتسم به من نظام وانضباط وروح المسؤولية.

سيادة الوزير السيد العامل حضرات السادة العلماء أيها السادة الكرام لقد عملت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية على نشر العلوم الدينية وإحياء التراث الإسلامي وشرح ما يعالج به الإسلام الحياة على مختلف جوانبها وتعدد ألوانها وأشكالها تنفيذا للتعليمات المولوية السامية.

وما هذا الملتقى إلا من ضمن هذا النشاط الديني الإسلامي الذي قامت وتقوم به الوزارة لتوضح للعالم الرؤية الصادقة لجانب من جوانب الإدارة الإسلامية هذه الإدارة التي أخفيت حقيقتها عن كثير من المثقفين وأشباه المثقفين وسيلمس القارئ والسامع من خلال ما تنثرونه من درر علومكم الغالية ما يتسم به الحكم في الإسلام من حزم وعدالة وحيوية ونظام وعمل يسعى من وراء تحقيق المصلحة العامة والحفاظ على السلوك المستقيم والمساواة في الحقوق والواجبات.

إن ثمار العدل قطوفها دانية في الكتاب والسنة فما أحوجنا نحن المسلمين لجنيها والتمتع بمردوديتها لتعيش الأمة الإسلامية في ود وانسجام كاملين. ونبرهن للبشرية جمعاء على سماحة الإسلام ورحمته ومعاملته الإنسانية واستقلال شريعته الكاملة ونفند خصوم الإسلام بتطبيقه حرفيا ففي العمل بما يدعو له رد على مناهضيه لا يقبل الطعن، فحكمه صالح لكل زمان ومكان لمرونته واتساع مادته وعدم تحجره فهو دين الفطرة والرحمة والحكمة، ودين المحبة والصفاء والإخلاص والوفاء، قال أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني في الرسالة الملكية التي وجهها إلى الأمة الإسلامية بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري.

إن من تيسير الله لنا في معالجة شؤون الدنيا وشؤون الدين أن جعل الشريعة الإسلامية التي أكرمنا بها. شريعة فطرية في مبادئها منطقية في أحكامها قادرة على استيعاب مراحل التطور بأجمعها مستجيبة لحاجيات المجتمعات على اختلاف مستوياتها وأنواعها، صالحة للتطبيق في كل عصر وجيل دون حاجة إلى إدخال أي تغيير على مبادئها أو تبديل.

ففي نطاق مبادئها وقواعدها والمحافظة على روحها يمكن لكل مجتمع أن يبلغ غاية ما يطمح إليه من التطور والنمو والكمال والسمو.

بل كلما تقدمت البشرية خطوة إلى الإمام وجدت مثل الإسلام العليا سابقة لها، متقدمة عليها تضيء لها الطريق على الدوام وإنما يتوقف الأمر على من يستوعب نصوصها ويدرك مقاصدها، ويتفهم أسرارها ويأخذ على عاتقه أن يستخرج نفائسها ودررها، وذلك أمر مرهون بإعداد مجموعة كافية من العلماء والمفكرين يكونوا مثل سلفهم مستوفين لشروط الاجتهاد والنظر في أصول الدين ويكرسون جهودهم لإحياء تراث الإسلام الثمين وصياغته صياغة جديدة تجعله في خدمة جماهير المسلمين.

فمن واجب القادة المسؤولين والزعماء البارزين في العالم الإسلامي أن يفتحوا الطريق أمام القائمين بالبعث الإسلامي، والدعوة الإسلامية وأن يشملوهم بالرعاية الكافية حتى يؤدوا رسالتهم أحسن أداء.

إنها التوجيهات الملكية الإسلامية الصحيحة، والعلاج الناجع لما أصاب مجتمعنا.

فبدون فتح الباب للعالم العامل المتزن المستقيم، الحكيم في سلوكه وتوجيهه المتكيف مع عصره المحافظ على قيم عقيدته، البعيد من الغلو والتطرف في الدين، السائر بفكره الناضج لما يجري في العالم من تطور لا يقبل التزمت، ولا التحجر الفكري الملتزم لما يفرضه عليه الشرع من واجب الطاعة.

بدون فتح الباب للعلماء الواعين الملتزمين كما قال أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني أعزه الله ونصره.

فسنبقى ضحية مخططات عقائدية ترمي لمحو الدين وطمس معالمه الإنسانية، وأهدافه السامية، وآثار حضارته الرائدة فلا بد من تضافر الجهد والتحام القاعدة بالقمة لمواجهة التيار بحكمة بالغة ومرونة فائقة.

سيادة الوزير السيد العامل السادة العلماء أيها السادة الكرام لقد انطلق الإسلام من هذه الربوع وشع نوره في كثير من أقطار الدنيا فجند ملوكنا العلويون أقطاب الفكر والقلم وانتشروا في افريقيا وغيرها لبث العقيدة الإسلامية في إطارها الصحيح، فكم هدى الله بهم وعلى يديهم من خلقه.

(لأن يهدي الله بك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس).

وها هو أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله جريا على سبيل أسلافه الغر الميامين وحفاظا منه على دين جده سيد المرسلين يحرص كل الحرص على

نشر هذا الدين وتعميم دعوته وزرعه في النفوس وإظهار مكانته في القلوب لتغلغل هداية الإسلام في البشرية وتتمكن العقيدة في فضائل المجتمع الإنساني.

لقد أحاط أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني الإسلام وعلماء الإسلام بكامل الرعاية وموفور العناية وللعلماء عند جلالته مكانة خاصة وميزة عظمى واحترام كامل وهذه عادة الملوك العلويين مع الجهابذة الاعلام من العلماء الذين حباهم الله بصحبتهم والعمل بجنبهم، والد فاع عن الدين بمؤازرتهم فجزاهم الله جميعا عن الإسلام والمسلمين أحسن جزائه.

سيادة الوزير السيد العامل السادة العلماء أيها السادة الكرام إننا نعتبر هذا الملتقى العلمي في هذه الربوع الغالية الثقافة مولوية كريمة يفتخر بها سجل تاريخ هذه المدينة، ويعتز بها سكان الصحراء المغربية ايما اعتزاز.

هؤلاء السكان المعرفون بإخلاصهم للبيعة وتشبثهم بالمقدسات الوطنية ونضالهم ضد الغزاة الطامعين.

وهنا أقول للحق والتاريخ إن مواقف هؤلاء القبائل بصحرائنا المغربية وطنية، وإخلاصهم للعرش العلوي وللجالس عليه أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني عقيدة، وشهامتهم عريقة، وبطولتهم نادرة، ووفاؤهم طبيعي، ومحبتهم خالصة، وإسلامهم تقي.

وهذه الخلال الحميدة تتوفر في أبناء وطننا المغرب بصفة عامة من طنجة إلى لكويرة.

إن هذا الملتقي الفريد من نوعه نعده تتويجا لكفاح مرير خاضته هذه القبائل المجاهدة ضد الوجود الإسباني بصحرائنا المغربية، من وراء العرش العلوي المجيد دفاعا عن الوحدة وتشبثا بالبيعة والتزاما بالواجب.

حضرات السادة الكرام :

إن أنظار علماء الإسلام ومثقفي العصر تراقب ندوتكم الموقرة وما ستعطي من إنتاج علمي في موضوع حكم البيعة والخلافة في الإسلام ولما لفضيلتكم من علم غزير واطلاع واسع فإن المثقف المسلم يعقد على ندوتكم العلمية أملا كبيرا لتوضحوا للقارئ ما يتحلى به الحكم في الإسلام من جدة ونصاعة وطراوة، وعدل وحكمة وحلاوة.

ويقيني أنكم ستعالجون هذا الموضوع بأسلوب الحكمة والرصانة وستعملون العبارات المبسطة غاية التبسيط كي يصل ما تعرضونه إلى أفهام الطبقات الصاعدة بكل سهولة ويسر فبذلك تعم الفائدة ويتصور الشباب المسلم ما يحتوي عليه دينه من قيم مثلى. وقواعد عامة صالحة لكل زمان ومكان وتتجدد حسب تطور العصر ومستجدات الملوان.

أيها السادة الكرام :

إن إنعقاد هذه الندوة تحت الرعاية السامية لمولانا أمير المومنين وحامي حمى الملة والدين جلالة الملك الحسن الثاني دام في حرز السبع المثاني يعطي لهذا الملتقى التاريخي أهمية قصوى ويضفي عليه حلة من التقدير والإحترام ويحيطه بهالة من التكريم والإنعام.

فالله نرجوا أن يديم سيدنا جلالة الملك الحسن الثاني لنشر قيم الإسلام وتبليغ هدايته، وتعميم دعوته إلى الله وإظهار إنسانيته.

ويبقى لنا جلالته حصنا حصينا وملاذا أمينا ويجمع به وعلى يديه شمل العرب والمسلمين ويحرر بجلالته القدس وفلسطين ويحفظه من شر أعداء الدين الماكرين.

وأن يقر عين جلالته بولي عهده الأمجد الأمير مولاي سيدي محمد وبصنوه السعيد الأمير مولاي رشيد وبجميع الأمراء والأميرات إنه مجيب الدعوات وجالب الخيرات ودافع المضرات والسلام على جمعكم الموقر ورحمة الله تعالى وبركاته.

الشيخ ماء العينين لارباس الأغظف

كلمة السيّد ابراهيم جوب

الأستاذ ابراهيم جوب

بسم الله الرحمان الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله ﷺ وعلى آله وأصحابه ومن اقتدى واهتدى به وبهم إلى يوم الدين.

صدقوني، لو أن مرشحا للحديث انسحب بما سمع وسمع لكنت ذاك المنسحب، ولكني ـ والحمد لله في مغربي الذي أعرفه ويعرفني، فلست فيه معتدا بكلام، بقدر ما اعتد فيه بالمودة والغرام، لقد كان صاحب الجلالة الحسن الثاني أيده الله موفقا كل التوفيق، يوم بعث إلينا ونحن في فاس، فاس العلم والأصالة في ندوتنا «ندوة الإمام مالك» برسالة اقترح فيها علينا أن نبقى ندوتنا إن شئنا مفتوحة أي أن تصبح الندوة ملتقى دائما يستقبلها أهل الذكر والفكر والعلم والمعرفة، فكان له ولنا ما أراد وأردنا معه، فاستمرت الندوة وكانت دورة مراكش الحمراء، المدينة التي تشوقني، وكانت أيضا هذه الدورة.

وإذا كنت أشير إلى الاقتراح المولوي الموفق، فلكي أشير إلى أن الله إذا منح عبدا من عباده توفيقه جاءت النتائج متظافرة من حيث تحسب ومن حيث لا تحتسب، انظروا فحتى مؤتمر السيرة والسنة الذي أردناه هنا في المغرب ثم تأجل وجاءت «ندوة البيعة والخلافة» بدل ذلك المؤتمر ولو لم يصرح بهذا، قلت : إننا بندوتنا نصيب عصافير بحجر واحد.

فالذي يطلع على بحوث أجلة العلماء التي ستعرض في هذه الندوة سوف يرى أننا ونحن نتحدث عن البيعة والخلافة، فنحن في صميم السنة والسيرة أيضا، فكأن استمرارية «ندوة الإمام مالك» وبقائها مفتوحة، بتوفيق من الله للملك المفدي، جاء مع عادتنا في التوفيق الإلهي ليتضمن خيرات ما كنا نتوقعها، فالمؤتمر تضمنته هذه الندوة والحمد لله، لأن هذه البحوث التي سوف نستمتع بها ونستفيد ونفيد، تضمنت كثيرا وجاءت أوسع من أي حادث إقليمي.

لسوف يظن الناس في الخارج بأن ندوة ـ البيعة والخلافة ـ حاجة مغربية أو حادث صحراوي وأنا أرى في هذه البحوث وفي هذه الندوة أبعادا متعددة من أهمها أن عالمنا اليوم الذي يعرف اضطرابات فكرية وعقائدية ومشاكل من كل جنس ولون، هذا العالم بحاجة إلى قول حق، وتصوير الحقائق وإلى أن نعود به إلى أصالة هذا الدين لنصور معطيات الدين من ينابيعه من كتاب الله الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومستحيل، فمن أين يأتيه الباطل. أو من سنة رسول الله العاصمة من القواسم، فهذه البحوث صالحة ولو عقدت الندوة في السوربون أو في أكسفورد، فقيمتها هي هي، عطاءات علمية ودراسات وتحقيقات وأشياء يحتاج إليها كل مفكر

في هذا العصر، فالناس في حيرة - صدقوني - والإسلام يملك الجواب، وإذا تخبط الناس في الظلام، وجاؤوا باقتراح من شرق وغرب، فالحقيقة أن عصا الأعمى ليس حلا للظلام، فمحو الظلام هو النور، ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ ﴿ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾، هذه هي قيمة الأبحاث الذاتية، ثم تأتي الأبحاث لتذكر كل مسلم، ومنهم سكان المغرب عموما والصحراء خصوصا، فالبيعة مسألة في غاية الأهمية.

ولسنا بحاجة إلى أن نتبحر في التفسير وعلومه، لندرك عظمة وجلالة وعمق المعنى الذي تشير إليه هذه الآية الخطيرة، انظروا : «إن الذين يبايعونك» والمخاطب بشر وإن كان خير البشر من لحم ودم «إنما يبايعون الله» ومن هو الله ؟ على جلالته وعظمته وديمومته وكونه ما هو «يد الله فوق أيديهم».

هذا التصوير لا يطيقه بشر، لا يمكن أن نصور لمخلوق أن ما تقوم به الآن من بيعة بلغ من العظمة والجلال والأهمية والخطورة والخطر بحيث أن التصوير يحتاج أن نقول لك إنك تبايع مخلوقا والحق أنك تبايع الله «يد الله فوق أيديهم» ولهذا «فمن نكث»، فمن خان، فمن خاس، «فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنوتيه أجرا عظيما»، في الدنيا والآخرة، في الدنيا استقرارا وطمأنينة واستمرارية وسعادة ونجاة من الاضطرابات والفوضويات.

وفي الآخرة نعيم مقيم، «جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار».

إذن، أرى أنني باسم رابطة علماء المغرب والسينغال، أحيي «ندوة البيعة والخلافة» وأعجب بالفكرة التي أنشأتها، وأباهي بالعلماء الذين شاركوا فيها بحوثا وتحليلا ودراسات، وأقدر الوزارة التي سهرت على تنظيمها وتسييرها، وأقول : «بخ، بخ» للملك الذي ذكرنا السيد الوزير بأنه أحسن إلينا صامتا، ولكن من أريحية ووفاء المحسن إليه أن يذكره، وقد ذكره وأضيف أنه ثبت في الأثر «أن دعاء المحسن إليه للمحسن» (أي دعاء المستفيد لمن أفاده وتبرع له، مستجاب).

فلننتهزها فرصة صدق لنقول : «حفظ الله جلالة الملك المفدي بما حفظ به الذكر الحكيم، وأن الملك - ونحن معه - نعرف الله الذي حفظه ووقاه ووقف معه حيث لا يقدر أحد أن يفعل شيئا إلا الله، فنسأل الله تعالى أن يديم له الحفظ ولنا معه وبه سعداء، أنه ولي ذلك والقادر عليه.

وأهمية ندوتنا التي أشرت إليها، إذ تأتي - في نظري - من عدة منطلقات : أولا من المنتمي ولا نتحدث عن منطلق خلافة ولا عن بيعة علمانية، ولو كان هذا فقط، لاكتفينا بأحزابنا وأوضاعنا المدنية العصرية، ولكننا نريد خلافة وبيعة في ظل الإسلام، هذا المنتمي، يميز الندوة وموضوعها عن ندوات وموضوعات كثيرة في هذا العصر.

ثم يأتي المكان، لأن المكان يضفي أهمية على الموضوع، فلو أننا - كما قلت آنفا - تحدثنا حديثا علميا دقيقا كما سوف سنسمعه من السادة المحاضرين في الأيام السعيدة المقبلة بإذن الله، وحتى في إنجلترا، وفرنسا، لكانت الندوة لها قيمتها، ولكن ما أبدع وما أجمل أن يجرى الحديث في أرض سبق أن جربت وذاقت من هذا الخير الذي نتحدث عنه، وهذا يعني أننا نتحدث عن البيعة في أمة بايعت وعن الخلافة في أرض عرفت الخلفاء، وتميزت بأن بدأت تجربتها مع الخلافة ببضعة رسول الله مولاي إدريس، انني أقدم كل المسلمين، بل وكل البشر، ولكن لآل بيت رسول الله قيمتهم، هذه من وحي إيماني فلينقل عني.

ثم يأتي الزمان - زمان الحيرة - الذي أشرت إليه حتى في أندية الفكر العالية، فكل شعب يجرب اليوم تجربة ليهجرها في الغد ويبدأ تجربة أخرى، ولا يملك أحد الجزم بأن نظامه سوف يستقر ويستمر حتى روسيا، ولكننا أمام إسلام ظلت معطياته الأساسية من أربعة عشر قرنا (ونحن الآن في القرن الخامس عشر الهجري) ثابتة راسخة، تتحدى كل الألاعيب التي أرادت أن تقف في طريقها،

ولسان حال الحقائق القرآنية تقول وتنشد مع الفخر الرازي :

«وكم من جبـال قـد عـلا شرفـاتها
رجـال فبـادوا والجبـال جبـال»

حقائق الإسلام جبال راسخة تتحطم عليها كل محاولة.

في هذا الوقت إذن، نحيي كل من ندب المسلمين إلى مراجعة الذات إلى غربلة التراث، إلى دراسة الدين، إلى المجاهرة بانتمائها إلخ، إلى أن تسير مع منطق الآية : **﴿وقال إنني من المسلمين﴾** بلا عقد ولا تردد ولم يعن في ذات غير ذاتنا الإسلامية.

وهكذا، فإن رابطة علماء المغرب والسينغال تبتهج بالندوة كندوة علمية وكندوة هضت مؤتمر السنة والسيرة في نفس الوقت، وكندوة تفتح آفاق المستقبل، وكما قلت في مناسبة سابقة، وبالنسبة إلى الرابطة، فنحن السنغاليين نرى أن المغرب الذي عرفناه منطلق الإسلام إلينا وعرفناه كلنا في طريق الدعوة إلى الله، وعرفناه زوايا خير تذكر بالله، هذا المغرب عندما ينضم إلى السينغال في حلقة أولى من سلسلة حلقات روابط ثقافية إسلامية علمية في إفريقيا، فهذه بادرة قل لها نظير.

هذه تحية من الرابطة ككل، ولكن من الجانب السينغالي فانها تحية التلاميذ إلى السادة العلماء، راجيا من الله سبحانه وتعالى أن يجعل عملنا هذا عملا خالصا لوجهه، وأن يجعل من صاحب الجلالة - دائما - قوة دافعة للحق، مدافعة عن الحمى، منشطة في طريق الخير، متبنية لمشاريع الحق، متصدية لكل لعب يحول بين المرء وقلبه المؤمن بالله العلي القدير.

هذا، ولولا خشية أن أطيل، لاستمررت معكم، لأنني عندما آتي المغرب، آتيه وكلي طاقات متفتحة، لأنني لا أتكلف فيه المودة، فقد جالست عدة مرات - والحمد لله - الملك المفدي محمد الخامس رحمه الله، وجالست ولي العهد - آنذاك - والملك اليوم، وسرت في المسيرة الخضراء، وكنت في عروس البحر الأبيض المتوسط مدينة أكدير عندما جاء الوفد الإسباني مفاجأة للتسليم، وسرت مع المغرب مسيراته، وإيمانا واحتسابا لا لأي غرض آخر في الدنيا، بارك الله فينا وفيكم والسلام عليكم.

الأستاذ ابراهيم جوب

كلمة الشيخ ابراهيم صالح الحسيني

الشيخ ابراهيم صالح الحسيني

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

- السيد الرئيس معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- السيد الوزير المنتدب لدى الوزير الأول، المكلف بتنمية الأقاليم الصحراوية المغربية الحرة.
- السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم العيون.
- السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم السمارة.
- السيد الكاتب العام لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- السيد رئيس المجلس العلمي لمدينة العيون.
- أصحاب السماحة والفضيلة، العلماء.
- اخوتنا الجماهير التي انهالت على هذه القاعة.

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

إنني لا أريد أن أطيل عليكم لأن كل ما كنت أود أن أقوله قد قيل من قبل، غير أني أريد فقط أن أقدم - كما يقولون - ثناء على أعمال هذه الندوة التي صدق - وبحق - أخونا الشيخ إبراهيم محمود جوب حينما تحدث عنها وقال أنها ندوة صحبها التوفيق الإلاهي، وهذا أمر لاشك فيه.

إن الندوة، قد حققت الهدف الذي دعيت من أجله، إذ حددت معنى البيعة والخلافة تحديدا واضح المعالم، بحيث يمكن لكل فرد في المجتمع الإسلامي أن يستفيد منه تصورا وتصديقا، ذلك لأن هذه الفكرة موجودة في قلوبنا، وحاضرة دائما معنا، إلا أنها بصفة غامضة وغير واضحة، إذ لو سألت عالما من العلماء - بغض النظر عن بلده أو مكانه قبل انعقاد هذه الندوة الموقرة الموفقة - عن معنى البيعة والخلافة لأتاك بنتف قد لا تفي بالمرغوب، وهذه حقيقة ثابتة، لأننا كلنا نعرف ما جاء عن هاتين المادتين في كتب الفقه الإسلامي وفي الكتب التي وضعت في سياسة النظام الإسلامي، أو في نظم الحكم الإسلامية، كلنا نعرف هذا، ونعرف ما قيل في هذا المجال، إلا أنه لا يعطي فكرة متكاملة يمكن للمرء أن يبني عليها نظاما متكاملا، فلله تبارك وتعالى الحمد الذي جعل المغرب سباقا إلى هذا والمغرب بهذا - ولاشك - الأسوة بباقي المسلمين في مواقفها من هذا العالم. والذي أريد أن أقترحه على وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - ولعل إخواني في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بنيجيريا وفي جميع المجالس العلمية هناك يشاركونني وجهة نظري - والاقتراح هو أن تطبع - وهذا طبعا عملها وستقوم به - أن تطبع هذه العروض القيمة الوافية الضافية، وأن تبعث - على الأقل - منها بنسخة إلى مراكز الأبحاث الإسلامية في كل دولة إسلامية ولعل الله بذلك أن يوقظ الضمير الذي كاد أن يموت من جراء تأثير الأفكار المستوردة من الشرق أو الغرب.

ـ سادتي.

لقد تحدث العلماء الأفاضل عن موضع البيعة والخلافة في الإسلام، ولا أريد أن أعود بكم إلى هذا، غير أني أقول أننا خلصنا من خلال أحاديثهم أو من خلال ما سمعناه منهم إلى نتيجة هي أن البيعة تنقسم في حد ذاتها إلى قسمين : بيعة، هي أساس الخلافة، وهي بيعة على السمع والطاعة ميزتها عدم جواز نقضها ولزوم الوفاء بها لورود الوعيد الشديد على من نقضها كما تشهد بذلك الآيات القرآنية، وهناك جانب آخر مما فهمناه من العلماء من البيعة، وهي بيعة تمتد من بيعة الرسول ﷺ لكل فرد في المجتمع الإسلامي، وأرجو أن نتقيد جميعا بصنفي البيعتين، لأن البيعة الأولى التي هي على السمع والطاعة، يختص بها أولا أهل الحل والعقد، ويترتب عنها ـ طبعا ـ جهاد ورباط ونضال وكفاح إلى الأبد، وأما الثانية التي هي بيعة على التقوى فإنها تلزم كل فرد في المجتمع الإسلامي، ويترتب عنها شيء آخر، وهو التزام الإسلام ككل، وكنظام للحياة، فعلينا أن نبدأ بهذه التجربة، تجربة تطبيق الإسلام لأن البيعة على التقوى، أخذها الرسول ﷺ على كل فرد من أفراد المجتمع كما جاء في حديث عبادة ابن الصامت : «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف، فمن وفي منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه، فبايعناه على ذلك» ولكن البيعة الثانية جاء فيها : «من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له».

وهكذا فان الأمر في هذه البيعة الثانية موكول إلى صاحب البيعة الذي أعطيناها له عن اختيار وطواعية، فإن أطاع أقام الحد، وألا فالأمر متروك إلى الله تبارك وتعالى.

ـ أيها الإخوة المؤمنون.

إننا إذا نظرنا إلى هذه الجوانب، أدركنا سر سلفنا الصالح، عندما كانوا يتمسكون أو يستمسكون بنوعي البيعة لأمراء المؤمنين والخلفاء، فكانوا مجاهدين ومرابطين وكذلك كانوا مستمسكين بالنوع الثاني من البيعة، فكانوا كما وصفهم بعض الناس ـ حقيقة ـ رهبان بالليل، أسود بالنهار.

فلابد لنا ـ إذا ـ من التزام هذه الجوانب كلها، وأرجو أن يكون المغرب السباق إلى كل مكرمة، السباق إلى كل فضيلة وأن يدعو إلى ندوة أخرى لدراسة العودة بالتشريع الإسلامي إلى العالم الإسلامي، فاننا الآن ـ فعلا ـ نعيش غيبة ونعيش فراغا فإذا نظرنا إلى الواقع نجد أن الإسلام في جانب العقيدة وجانب العبادات وجانب المعاملات وجانب الجنايات، كل مسلم وفي أي مكان كان يمكنه أن يقيم حكم الله تبارك وتعالى فيها، والذي ينقصنا هو تأكيد وترسيخ جانب بيعة التقوى فلابد من إحيائها في قلوبنا لنتمكن من العمل بالحكم الإسلامي في هذه المجالات، يبقى مجال العقوبات وهذا ما نرجو أن يقوم المغرب باعداد ندوة أخرى لدراسته دراسة إسلامية حتى نستفيد نحن في إفريقيا لأننا في حاجة إلى مثل هذه الأمور.

وعندما قلت بأن هذه الأبحاث يجب أن تبعث إلى كل مركز من مراكز الأبحاث الإسلامية، أرمي إلى إعطاء الصورة الصحيحة لنظام الخلافة في الإسلام والبيعة الإسلامية لإخوانكم في إفريقيا، فهم في حاجة إلى معرفة هذه الأمور واستجلائها استجلاءا لا يبقى معه أي لبس.

اسمحوا لي أيها الإخوة إن كنت أطلت عليكم، وإنني أختم حديثي بالشكر الجزيل للحفاوة البالغة والتكريم البالغ أقصى الحدود الذي لقيناه منذ أن وطأت أقدامنا أرض المغرب العربي الحبيب إلى قلوبنا إلى هذه اللحظة.

وإنني أشكر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية التي وجهت لي الدعوة وأتاحت لي هذه الفرصة لأقف بين أيديكم وأدلي بهذه النتف المتناثرة، كما أرجو أن يرفع معالي السيد وزير الأوقاف تحية وشكر وتقدير العلماء والمسلمين في نيجيريا لجلالة الملك الحسن الثاني ولكل فرد من أفراد الأسرة المغربية، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة الأستاذ عبد الله كنون

الأستاذ عبد الله كَنون

الحمد لله، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه،

معالي الوزير، أصحاب السعادة، أصحاب الفضيلة، أيها السادة :

أحييكم باسم رابطة علماء المغرب، تحية مباركة طيبة، ووددت لو أني بجانبكم أشافهكم بهذه التحية، فأسعد بلقائكم وأتملى بحديثكم، إلا أن حالتي الصحية في الظرف الراهن، لا تسمح لي بالسفر الذي هو في حقي بمثابة مغامرة، فأعتذر إليكم وأنشد ما خاطب به المنصور الذهبي بعض مشايخه من علماء المشرق :

ولما نأيت ولم أستطع
وصولا إليكم بنقل القدم
أتيت إليكم برجل الرسول
وخاطبتكم بلسان القلم

واجتماع العلماء لا يأتي إلا بخير، لأنهم إنما يجتمعون على جلب مصلحة أو درء مفسدة، فكيف لا يود خادمهم أن يكون بجانبهم، يشد عضدهم ويؤيد دعوتهم، لا سيما والموضوع الذي تتناولونه في ندوتكم هذه، هو البيعة وما ينشأ عنها من الخلافة، أو ما يسمى بلغة العصر، نظام الحكم الإسلامي المستمد من الكتاب والسنة وسيرة الرسول الأكرم ﷺ وخلفائه الراشدين ومن نهج نهجهم من ملوك الإسلام وأمرائه الصالحين المصلحين، فما أعظمها من فكرة ترمي إلى التحرر والانعتاق مما تورطت فيه بلاد الإسلام اليوم، من اصطناع أنظمة الحكم الأجنبية التي فرقت شملنا وفككت وحدتنا وجعلتنا ذنبا بعد أن كنا رأسا، وتابعين بعد أن كنا متبوعين، فإذا كان غيرنا من الشعوب والأمم يعقدون المؤتمرات على مدار السنة، لتأييد حكومات بلادهم، من ديموقراطيين واشتراكيين، يمينيين ويساريين، وسواهم من المحايدين واللا منتمين، أفلا يحق لنا نحن المسلمين أن نراجع أنفسنا ونعمل على إحياء الحكومة الإسلامية التي لم يعرف العالم أعدل ولا أرحم منها ؟ ومما زاد المبادرة أهمية، وغالى بقيمتها أنها لم تتخذ شعارا براقا مستوردا، ولم تتنكر لأصلها بتبني مصطلح أجنبي أجوف، بل أعلنت بملء فيها أنها ستتدارس البيعة والخلافة، وهما إسمان لامعان ومصطلحان معبران على مقدمة ونتيجة في نظام الحكم الإسلامي، لا يختلفان ولا يتخلفان.

يضاف إلى هذه الرابطة العضوية بين البيعة والخلافة أي مناسبة المكان للندوة، وأعني به مدينة العيون عاصمة الصحراء الغربية المغربية، ألم يكن استرجاع الصحراء والحكم بمغربيتها من طرف المحكمة الدولية، نتيجة البيعة

وعلاقة الولاء الناشئ عنها بين السكان وسلاطين المغرب، فكان أن سقط في يد المستعمر ولم يسعه إلا التسليم ورد هذا الجزء العزيز من ترابنا إلى أهله ؟

فمن أحق إذا بعقد هذه الندوة المخصصة للبيعة وما يترتب عليها من الخلافة التي هي أعظم ولاية في الإسلام، من مدينة العيون، العاصمة الصحراوية العتيدة التي برهنت على وطنيتها وإخلاصها وتعلقها بالعرش العلوي المجيد والوطن الأب الذي لا ينتفي منه إلا من كان إبنا غير شرعي لا يعرف له أب وشبيها بمن قال فيهم النبي ﷺ من انتسب لغير أبيه أو انتمى لغير مواليه فالجنة عليه حرام.

ومن باب الانصاف في الاعتراف بالحق أن أقول إن حكم محكمة لاهاي بمغربية الصحراء إنما كان إعلانا دوليا بجنسية الصحراء ولكن استرجاعها وانتزاعها من يد المغتصب، لم يكن بالسهولة المظنونة، فالأمر كما قال الشاعر الحماسي :

فما منعت دار ولا عز أهلها
من الناس إلا بالقنا، والقنابل

ولقد كان ذلك الحكم بمثابة الضوء الأخضر للمعركة التي لابد من خوضها لتحرير الصحراء، ولكن المعني بالأمر وصاحب الحق الأول فيه، وهو جلالة الملك الحسن الثاني، أمير المؤمنين في المغرب شماله وجنوبه بحكم البيعة، ولطبيعته السلمية ابتكر معركة من نوع آخر، وهي الحملة التي شنها على السلطة الأجنبية في الصحراء بواسطة المسيرة الخضراء الشهيرة التي انتظمت وضمت ثلاثمائة ألف وخمسين ألف نفر من المواطنين المتحمسين لحق بلادهم رجالا ونساء، وزحف بهم على الأرض المغتصبة بدون سلاح ولا عتاد حربي، إلا الإيمان الراسخ الذي يهد الجبال فكان أن قامت الدنيا على قدم وساق، منتظرة النتيجة العملية لهذه الحملة، واجتمع مجلس الأمن ليأمر المغرب بسحب المسيرة على عادته في مثل هذه المواقف.

إلا أن هذا المجلس في هذه المرة اصطدم بما لم يكن له في الحسبان ولم يعتده، وخصوصا في دول العالم الثالث كما يقولون، وهو الإرادة القوية المنبثقة من الحكم الإسلامي المؤسس على البيعة الذي قال له : لا، لا أنسحب، وبدلا من انسحاب المسيرة انسحب المجلس، ونصح الجانب المعتدي بالتفاهم مع المغرب، فطار المندوب الإسباني إلى مراكش، وانتهى الأمر بمعاهدة الاعتراف بمغربية الصحراء المسجلة في الأمم المتحدة، (وقضي بينهم بالحق، وقيل الحمد لله رب العالمين).

والسلام عليكم ورحمة الله.

عبد الله كَنون

كلمة الشيخ محمد المكي الناصري

رئيس المجلس العلمي لولاية الرباط وسلا وعضو مجلس الوصاية

الشيخ محمد المكي الناصري

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات السادة :

- معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- معالي الوزير المنتدب لدى الوزير الأول، المكلف بتنمية الأقاليم الصحراوية.
- أصحاب السعادة عمال صاحب الجلالة.
- سيادة الكاتب العام لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- أصحاب الفضيلة علماء المغرب والأقطار الإفريقية الشقيقة.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لقد حاولت أن التمس من مكتب الندوة أن يكرمني بأن لا أطيل على جلستكم بحديث آخر، ولكن محبة وكرم الهيئة المشرفة على هذه الندوة أبتا إلا أن أتحدث وسيكون حديثي كلاما قصيرا جدا.

فبعد هذه الفترة التاريخية التي قدمت إلينا هذه الندوة فيها أشهى الأطباق، وألذ الألوان الحافلة بالروائع والبدائع من خطاب معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، وخطاب السيد رئيس المجلس البلدي لمدينة العيون، ووزير تنمية الأقاليم الصحراوية وما تابعه وتوالى بعده من أحاديث كلها عبارة عن جمال وكمال، تثير السواكن، وتهز العواطف، وتثير المشاعر.

- معالي الوزير،

باسم المجلس العلمي لعاصمة المغرب، يسعدني ويشرفني أن أقدم لكم خالص التهنئة على التفكير في عقد هذه الندوة العلمية والوطنية الجليلة، وما بذلتم في إعدادها مع مساعديكم من نظام وضبط وإعداد رفيع كامل.

ويسعدني كذلك أن أعرب عن افتخاري وابتهاجي بالمشاركة المكثفة التي برزت من طائفة السادة العلماء المشايخ والأساتذة والدكاترة بالبحوث النفيسة والدراسات الجد، جادة التي قدموها إلى هذه الندوة، فهنيئا لكم بما استقطبتم من باحثين، وكاتبين، وهنيئا لنا نحن الجيل الذي يشرف على أواخر المرحلة، أن نسعد بأن الخلف صالح قائم وموجود ومستعد، وعنده من الكفاءات والمواهب والحماس والشعور بالمسؤولية الإسلامية ما يحفظ هذا البلد الإسلامي إلى يوم الدين.

لقد كان أمير المومنين الحسن الثاني، نعمة على الصحراء المغربية، ولقد كانت الصحراء المغربية نعمة على المغرب كله.

ففي نطاق الكفاح من أجل وحدتها، والدفاع عن هويتها، استعاد الشعب المغربي وحدته وتلاحمه واستعاد روحه الفدائية العالية، وتقدم من جديد ليفتح صفحة جديدة في تاريخه الطويل في الكفاح من أجل الإسلام والقومية المغربية، والنظام العلوي الشريف.

وإن ما تحدثتم عنه من رعاية أمير المومنين لهذه الندوة لدليل واضح، وحجة أخرى على أن أمير المومنين الحسن الثاني، لا يفتأ عن اتخاذ جميع الوسائل وبذل كافة الجهود، لربط الماضي بالحاضر، ولوضع أسس المستقبل في نفس هذا الحاضر.

فرعايته لندوة البيعة والخلافة «بعد أن أصبح لنا في المغرب دستور حسني، ينظم الملكية الدستورية ويدمج في صلبه أصول الحكم الإسلامي في خطوطها العامة، هذه الرعاية ـ فيما أرى وأعتقد ـ هي عودة بنا من جديد إلى أن نتدارس نحن المغاربة، في الجنوب والشمال، تاريخنا الإسلامي وإلى أن نستعيد هويتنا وشخصيتنا عن طريق العودة إلى المنبع، المنبع الطاهر، المنبع الصافي، منبع النبوة، منبع الخلافة الراشدة منبع السيرة الطاهرة لسلفنا الصالح.

إن هذه الندوة، كما تحدث كثير من الخطباء، وأنتم الوزير ـ في الطليعة، بخطابكم الجامع المانع المجتمع القانوني، هذه الندوة في الحقيقة ستكون لها آثار وآثار، ليس فقط، من أجل تثبيت البيعة بالنسبة لهذا الجزء الذي لا يتجزأ من المغرب، ولكن، لتثبت معانيها ومفاهيمها الإسلامية، في الجيل الصاعد، والأجيال اللاحقة، لا بالنسبة للمغرب، ولكن حتى بالنسبة لكافة العالم الإسلامي إسمحوا لي حضرات أصحاب الفضيلة العلماء.

إذا عبرت باسمي ولا أقول باسمكم، وانما أريد أن أقول أنني أشعر أنكم متماثلون معي في الشعور أن أعبر عن بالغ الابتهاج، وبالغ الرضى والاغتباط بحضور هذه الندوة والمشاركة فيها في حاضرة الصحراء المغربية.

فما منا ومنكم ـ يا أصحاب الفضيلة ـ إلا من كان أشد شوقا لنتملى من طلعة إخواننا أبناء العيون، ولنشاهد بملء عيننا هذا الثغر من وطننا الذي أكرمنا الله فأعاده إلينا وأعادنا إليه، بفضل توفيق وجهود الحسن الثاني، نصره الله وأيده فهذا الجو الذي أشعر به، أعتقد أننا جميعا نشعر به كشوق خاص لمرورنا بفترة تاريخية عميقة ونستعرض الندوات الماضية التي قامت بها وزارة الأوقاف، فنجد بهذه الندوة خصوصيات ومزايا لم توجد فيما سبقها، وعلى رأس هذه الخصوصيات فتح الندوة في وجه عموم المواطنين من مختلف المستويات فيلتقي السادة العلماء مع عامة الشعب من شباب ورجال ونساء والكل ينهل من منبع الإسلام الصافي دون حجاب وما أشد وما أروع وأبدع من هذا الأسلوب الذي ينبغي أن نسير عليه في ندواتنا المقبلة.

لقد كانت ندوتا فاس ومراكش مغلقتين، نتحدث فيهما والصدى نردده على أنفسنا، ثم نمضي إلى غير لقاء آخر.

معالي الوزير.

هذه السابقة ينبغي أن تبقى مسجلة في تاريخ الوزارة، وأن تتبعها ندوات وندوات، وها نحن استمتعنا في هذه الجلسة التاريخية وقد أقول في هذا المؤتمر إلى إخواننا الأفارقة، الذين شرفوا انتماءهم الإسلامي وانتماءهم الإفريقي، وعبروا بصدق وإخلاص عن الأخوة المغربية الإسلامية الإفريقية العميقة.

فشكرا لوزارة الأوقاف، وشكرا لراعي الشؤون الإسلامية وموجهها الأعلى أمير المومنين رئيس المجلس الأعلى للمجالس العلمية في عموم المملكة والله تعالى نسأل أن يبقيه ذخرا للدين والوطن، وأن يحفظنا فيه وفي ولي عهده الأمير سيدي محمد وصنوه الأمير مولاي رشيد وفي باقي أفراد الأسرة الملكية الشريفة والسلام عليكم ورحمة الله.

كلمة الأستاذ إبراهيم دياب

الأستاذ ابراهيم دياب

بسم الله الرحمان الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم وعلى آله وصحبه.

والتحية والتقدير والتجلة لمولاي أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني أطال الله في عمره وأبقاه ذخرا لهذه الأرض الطيبة الطاهرة ولشعبها الأبي الوفي.

والشكر والعرفان للأستاذ الدكتور عبد الكبير العلوي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية ووزارتكم الخلاقة على هذه اللفتة العلمية وعلى دعوتهم الكريمة لحضورها.

والتقدير والإشادة لأهل الصحراء ممثلين في أهل العيون الكرام أهل الجود والكرم العربي أصلا وأصالة.

والتحية للعلماء الأجلاء آبائي وزملائي وإخواني في رحاب العلم والمعرفة لما بذلوه من جهد في أبحاثهم القيمة الثرية بهم.

السادة الضيوف،

إنني كواحد منكم في قطركم الشقيق السودان الذي ساهم أبناؤه في المسيرة الخضراء بألف مساهم إنما صم على العهد والبيعة التي أدوها باسم شعبهم في تلك المسيرة التي شارك فيها عدد كبير من شعوب الدول العربية والإسلامية والإفريقية، والتي كانت بداية الرفع في طريق التنمية والنماء في الأقاليم بعد عودتها إلى الوطن الأم بعد غياب خضع فيه للاستعمار الأوروبي الذي جزء إفريقيا قبل وبعد مؤتمر برلين في 1885/84، لتقسيمات فاقت خيال الخيال فخلق وحدات لا وجود لها وأخضع دول وقبائل إلى تقسيم فيما بينها ففي وسط السنغال أوجد ما سمي بكامبيا والصومال قسم إلى ثلاث دول فرنسي وإيطالي وبريطاني والكونغو إلى دولتين ويوغاندا إلى ثلاثة دول ناس أو متناس الأصالة في الانتماء والروابط مع الأصول ومتناس الجذور.

ففي المغرب على طوال التاريخ لم يكن يعرف غير تونس والجزائر والمملكة أو الدولة المغربية التي كانت تجاورهما من الجنوب الممالك السينغالية ولعل هجرة عبد الله بن ياسين من المغرب خير دليل على ذلك فقد اتجه جنوبا من المغرب إلى حوض نهر السينغال ولم يقال إنه اتجه إلى دولة أو مملكة في طريقه هذا لأنه لم تكن هناك. وواصل التاريخ مسيرته وجاءت الأسرة السعدية وامتدت حدود المملكة إلى السودان العربي وجاءت الدولة العلوية في أواسط القرن السابع عشر وبايع أهل المنطقة ريفها وجبالها وصحرائها الأسرة العلوية على سنة الله ورسوله.

وهنا أود أن أقف لحظة تاريخية.

لقد تمت البيعة في كل المنطقة من بلاد شنقيط جنوبا إلى جبال أطلس والساحل شمالا للأسرة العلوية والنظام الذي سارت عليه وكان معنى تلك البيعة هو :

- الولاء للأسرة الشريفة ولمن يحكم من أبنائها على سنة الله ورسوله وهو مبدأ الخلافة.

- الولاء للنظام الذي تسير عليه الأسرة في الحكم الذي يؤدي إلى الاستقرار والاطمئنان والأمن والاستمرار.

ومن ثم كانت البيعة التي تمت وتحددت على طوال القرون الثلاثة الماضية إنما هي بيعة أصيلة وبيعة قام بها الأجداد والآباء ونحن كأبناء وحفدة لهؤلاء ملزمين ملتزمين بهذه البيعة طالما لم يحد المبايع عن طريقه وطالما أن الأسرة التي بويعت مازالت تسير على نفس النهج، فمن هنا فإن دور الفرع وهم أبناء اليوم بعد الأصل وهم السلف ليس البيعة لأنها تمت ولم يضعفوا واستمرت أطوال الفترة الاستعمارية ولكن تجديد البيعة منا أي تجديد الأصالة والبحث عن أولئك الذين نقضوا بيعة السلف ولم يجددوها بل تنكروا لها وساروا في طرق أخرى ناسين أو متناسين عاقلين أو متعاقلين وأترك هذا لعلماء الفقه واجتهادهم.

لقد أثبت ذلك الأستاذ محمد المنوني في بحثه القيم عن البيعات لملوك الدولة العلوية منذ القرن الثامن عشر.

وهذا الحديث يقودنا إلى الوحدة والتجزئة في الوطن العربي فنحن ندعو إلى وحدة الأمة العربية في دولة واحدة بدلا من واحد وعشرين دولة مفترقة مجزأة ومتجزئة ولكن عندما تنضم أجزاء مزقها الاستعمار من أصولها إلى الأصول نجد أصواتا ومقاومة لهذا والدعوة إلى التجزئة، التجزئة لماذا ؟

ولمصلحة من كانت ولا تزال هذه الدعوة ؟

لقد خلق لنا الاستعمار المسيحي الأوروبي مشاكل وجعلها تتغذى بالأطماع الإقليمية وأصبحنا نعاني منها.

- فهنالك مشكلة جنوب السودان التي نعاني منها ومن أطماع الحبشة التي تريد أن تبني امبراطوريتها المسيحية في المنطقة وهي تغذيها وتثريها.

- وهناك مشكلة الأكراد في شمال العراق والتي تقف من ورائها إيران وأحلافها في الامبراطورية الفارسية إلى اليمن والشام وغيرهما من المآسي والمشاكل في العالم الثالث ودوله الفقيرة وذلك حتى تتعطل مسيرة التنمية والنماء والازدهار في دولنا الفقيرة الصغيرة الغنية بدينها الإسلامي لو تمسكنا بأصوله ورجعنا لتراثنا لتحررنا من الصراعات الإقليمية والأطماع الفوقية التي قامت لدى بعض الدول لا منبت لا جذور ولا أصول لها.

إننا اليوم نواجه في إفريقيا على وجه الخصوص بالتسرب المسيحي الذي اتحد وتوحد ليواجه المد الإسلامي الهادي، هذا التسرب الذي بدأ كما وصفوه في مؤتمر الكنائس في نيروبي بحرث الأرض لإعدادها بهدوء وبطء لزمي بذور المسيحية في أوساط الشباب المسلم والقرى المسلمة التي تعاني من المجاعة والجفاف والتصحر.

إن هذه الندوة وأمثالها إنما تجعل نور الأمل يتوهج في نفوسنا وتؤكد لنا أنه ما دام فينا من بايعه سلفنا الصالح من أهل توات وبلاد شنقيط والبكاي الكنتي وماء العينين وسكان الداخلة وغيرهم من العلماء والزعماء على السمع والطاعة ولزوم السنة والجماعة في الرضى والسخط والمكره والمنشط والعسر واليسر والشدة والرخاء والسراء والضراء إلى آخره.

ومن هنا فإنني أضع يدي مع أيديكم وأرجو لكم الخير كل الخير والسعادة كل السعادة والعزة والرخاء وأنتم تسيرون وراء هذه الأسرة الكريمة الأصل والمنبت وعلى رأسها أمير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني وإنني لأكتم سرا ان قلت لكم وأمامكم وبأعلى صوتي العلمي وليس صوتي الصوري أنني لم أجد أمنا واستقرارا مثلما وجدته في الأنظمة الملكية في العالم عامة وفي الوطن البلد خاصة وفي بلدكم على وجه الخصوص فحافظوا على نعمة الله التي أعطاكم، أقول قولي هذا وقد عشت في

أنواع متعددة وعايشت أشكالا من الأنظمة الجمهورية والشعبية والاشتراكية والديموقراطية وشاكلتها وأشباهها ولكنني أغبطكم وأتمنى أن أكون واحدا منكم أعيش معكم وأشاركم فرحة وبهجة إعادة البيعة والولاء للعمل في إخلاص وتفاني لله وللوطن وللملك.

وفق الله أسرتكم المالكة لما فيه الخير والسداد ولها العزة والمجد والسؤدد ولكم الخير والهناء تحت ظلالها الشريفة الوارفة الفيحاء.

وفي الختام أشيد بأجنحة الكتابة العامة للندوة بجهودها وفعاليتها ونشاطها الذي أدى إنجاح الندوة.



الكلمات التي ألقيت في الجلسة الختامية لندوة العيون

كلمة السيد وزير الأوقاف والشؤون الاسلامية

الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. وصدق الله العظيم (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى).

الله تعالى هو الذي يختار ويقدر وييسر ويدبر وينعم علينا بعد ذلك كله بسعادة الشعور بنجاح تدبيرنا وحسن اختيارنا مع أنه ليس لنا من الأمر شيء وأنه ما من نعمة إلا من الله.

لقد كنت أشعر منذ بداية هذه الندوة إلى نهايتها بأسرار ربانية توجه شراعها وتسلك بها مسالك النجاح والتوفيق من حيث لا أحتسب وأنا لا أستطيع أن أشرح ذلك لأنه من الأمور التي لا تحيط بها العبارة وإنما شأن الإنسان إذا وجد شيئا منها أن يحمد الله تعالى ويشكره على إنعامه.

إخواني العلماء حضرات السادة :

ماذا يمكنني أن أقول في هذه الندوة ؟

بكل موضوعية ونزاهة : أرى أنها ندوة خالدة وفريدة ومشرفة ومفيدة وممتعة وعملية وضاربة في عمق الماضي والحاضر والمستقبل وحية وشعبية ونضالية.

وكانت الأبحاث غزيرة ورفيعة المستوى.

وكانت المناقشات جدية وهادفة وموضوعية ومثلا في روح الحوار الأخوي العلمي البناء.

وكانت الندوة ولأول مرة ندوة علمية مفتوحة يشارك فيها الجمهور برأيه ويناقش العلماء.

والندوة لم يقع فيها أي فتور من أولها إلى آخرها فرغم طول الجلسات فإن القاعة تبقى عامرة إلى النهاية.

ورئاسة الندوة كانت صارمة وبخيلة شحيحة.

ولكن العلماء والحمد لله كانوا كراما فلم يؤاخذوا الرئاسة حتى في الوقت. وكان واحد منهم إذا سمع صوت مطرقة التوقيت فوض الأمر لله وختم بحثه أو مناقشته.

حضرات السادة الكرام :

أشكركم كمغربي معتز بمغربيته مؤمن بملكيته راسخ الاعتقاد بأن حب الوطن من الإيمان والوطن والعرش عندنا شيء واحد المغرب هو العرش. والعرش هو المغرب وأنتم بندوتكم هذه قد أديتم خدمة جليلة لوطنكم.

وأشكركم كإنسان يحس بأن شخصيته هي مجموعة من القيم والمبادئ والثوابت ورثها عن تاريخه وشربها في ماء وطنه وتنسمها في هواء بلده وانسجمت مع فطرته التي فطره الله عليها وتناغمت مع منطق فكره وخلجات ضميره. ومن هذه المبادئ والقيم الإخلاص للملكية الدستورية الشرعية في هذا البلد.

وقد أعطيتم دليلا جديدا على إخلاصكم لهذه الملكية وتفانيكم في التمسك بها وبرهنتم من خلال بحوثكم

ودراساتكم ومناقشاتكم على أن الإلتزام عندكم بها هو التزام ديني وفكري لا يتبـدل ولا يتغير ولا يفتر ولا يضعف ولا يتردد الواحد منكم في التضحية في سبيله بروحه وماله وكل غال عنده.

وأقدر إخواني العلماء هذه الجدية التي طبعت عروضكم ومناقشاتكم والروح العلمية العالية التي هيمنت على أعمالكم، واسمحوا لي أن أنوب عنكم في التعبير عن خالص الشكر وجميل الامتنان لسكان مدينة العيون خصوصا وسكان جميع الأقاليم الجنوبية المغربية الصحراوية على ما قابلونا به من كرم إسلامي أصيل وما أشعرونا به من عواطف الأخوة الصادقة العميقة وما شرفوا به هذه الندوة من اهتمام بالغ بارز حتى أنهم لم يقنعوا بمجرد حضور جميع جلساتها وإنما شاركوا في المناقشة والحوار وأعطوا للجميع فرصة فريدة من نوعها ليعيش في لقاء رباني بين العلماء الذين هم ورثة الأنبياء وبين الجمهور المؤمن إضافة إلى اللقاء بين علماء الأقاليم الشمالية وعلماء المناطق الجنوبية من المملكة.

وأشكر زميلي وأخي معالي الوزير المنتدب لدى الوزير الأول المكلف بتنمية الأقاليم الصحراوية المناضل والوطني المخلص أحد مفاخر شباب الصحراء السيد خلي هنا ولد الرشيد رئيس المجلس البلدي لمدينة العيون الذي عبر للعلماء بحضوره وكرمه وعنايته على المشاعر الصادقة لجميع سكان العيون.

كما أن من الواجب أن أشكر باسمكم جميعا سعادة عامل صاحب الجلالة على إقليم العيون الأخ صالح زمراك الذي شخص بكل إخلاص وتفان كممثل لصاحب الجلالة في الإقليم ما يخص به جلالة الملك وخدامه الأوفياء المخلصون هيئة علماء الشريعة من الرعاية والعناية والاحترام والتوقير.

وأشكر السادة عمال صاحب الجلالة على أقاليم السمارة وبوجدور والداخلة على حضورهم معنا وتيسيرهم سبل الحضور لمثقفي أقاليمهم وأشكر رئيس المجلس العلمي الشيخ لارباس ماء العينين الذي ناب عن علماء الصحراء المغربية كلها في تحية إخوانهم.

د : عبد الكبير العلوي المدغري

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية



ندوة الإمام مالك
إمام دار الهجرة

الجزء الثالث

فاس
9-10-11-12 جمادى الثانية 1400
25-26-27-28 أبريل 1980

كلمة السيّد خليهن ولد الرشيد

الوزير المنتدب لدى الوزير الأول
المكلف بتنمية الأقاليم الصحراوية
ورئيس المجلس البلدي لمدينة العيون
(في الجلسة الختامية)

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

لقد عاشت مدينة العيون أياما سعيدة، بوجودكم بيننا وبانعقاد هذه الندوة «ندوة البيعة والخلافة في الإسلام» وبالتدخلات الطيبة العلمية والفقهية والقانونية والشرعية، وكانت مشاركة جميع العلماء المشاركين في هذه الندوة تتابع باهتمام وحماس من طرف سكان المدينة، بل من طرف جميع سكان الأقاليم المغربية الصحراوية.

كما أنني ـ بصفة شخصية ـ أود أن أشير هنا إلى أنني استفدت كثيرا من مناقشات وتدخلات السادة العلماء الأجلاء، ومن بحوثهم العميقة البليغة في موضوع ذى حساسية كبرى وذي أهمية، نظرا للظرف والمكان اللذين تنعقد فيهما هذه الندوة.

فلقد أعطيتم مستوى ومكانة لهذه المدينة بانعقاد هذه الندوة فيها، ويشرفني أن أشكر وأنوه بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية وعلى رأسها السيد الوزير العلامة الشريف عبد الكبير العلوي المدغري، لاختيارها مدينة العيون وأهالي العيون، والأقاليم الصحراوية المجاورة لمدينة العيون، لانعقاد ندوة من هذا النوع.

وأود كذلك أن أشكره بالخصوص، لأنه كان في الإمكان أن تكون الندوة في موضوع آخر إلا أنه أبى إلا أن تكون انطلاقة ندوات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية من البيعة، نظرا لما تتسم به من أهمية، وما تمتاز به من ذكريات وجهاد وكفاح، ونضال مستميت من أهل الصحراء وأهل العيون.

فهي ليست فقط ذكريات نظرية، ولا ذكريات تذكر ببطولات الأجداد، والآباء والأعمام، ولكنها ذكريات حية. مجسدة في أشخاص المناضلين الصحراويين الحاضرين بأنفسهم في هذه القاعة. وأريد أن أضيف بأن بلوغ الندوة إلى قلوب ومشاعر الناس هنا، كان يظهر اهتمامهم داخل هذه القاعة بما قاموا به من تدخلات ومناقشات، وهذا في الحقيقة أمر فريد من نوعه، لأنه لو ما كانت الغيرة الوطنية والدوافع النضالية، وروح التشبث بالعرش والجالس عليه، لما كان من الممكن لمواطنين بسطاء، أن يتجرؤوا بالتدخل أمام هذا المجمع من العلماء الأجلاء إلا أن هذه التدخلات، وبالتالي هذا الإهتمام ـ كلها أغنت الندوة، وأعطتها طابعا وطنيا وفعليا وحقيقيا في نفوس الناس، لأن شوارع المدينة ـ كذلك ـ كانت تتابع معكم هذه الندوة،

ذلك أنه منذ يوم الخميس فإن أخبار الشارع لا تتكلم ولا تتحدث إلا عن ندوة البيعة والخلافة في الإسلام وهذا في الحقيقة، يدعوني إلى أن أطلب من السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية إلى أن يفكر في الدعوة إلى ندوات أخرى في الأقاليم الصحراوية المغربية تهم تاريخ هذه المنطقة الصحراوية المغربية وأقطابها ومجاهديها وشيوخها وأوليائها، الذين كانوا دوما على مر تاريخ المملكة المغربية، يشاركون إلى جانب الملوك السلاطين في توطيد وحدة وسيادة هذا البلد السعيد.

وأود في النهاية أن أقول، إنه ما كان من الممكن - تاريخيا - أن يكون سكان الصحراء منتمين لغير المغرب، والسبب في ذلك بسيط، وهو أن انطلاق جميع قبائل الصحراء لا وجود لها في الصحراء، بل هي في الشمال.

فالصحراء تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

- الرقيبات
- العروسيين
- فيلالة
- توبالت
- وماء العينين

وهؤلاء الشرفاء كلهم، من المؤكد بشجراتهم - وبالأدلة القطعية من أب إلى جد، أنهم من أحفاد المولى إدريس الأول، ومن المعلوم أن المولى إدريس الأول دفين مدينة زرهون وأن المولى إدريس الثاني دفين مدينة فاس ولا يمكن لأي أحد - ومن الناحية الجغرافية - أن يدعي بأن مدينة زرهون، أو مدينة فاس لا توجدان في المغرب.

وقبائل لتكن، وعرب كا ولاد دليم، من المؤكد - تاريخيا - أنهم من وادنون، ولا يمكن لأي أحد - وحتى بالإتفاقيات الدولية - التي تكلم عنها الأستاذ أحمد مجيد بنجلون، ان وادنون، كانت دائما من المناطق المغربية التي لا يوجد عليها أي جدال لا من طرف اسبانيا ولا من طرف فرنسا ولا من طرف أي أحد آخر، وأن قبائل أولاد دليم، قبائل عرب، جاءوا من العراق، ولا زال منهم سكان بإقليم سيدي قاسم ولا سيما في زكوطة بالذات.

قد أقول بأن القبائل التي تعيش بالصحراء، ليست قبائل من الصحراء وأصلها ليس من الصحراء، بل كلها من الشمال المغربي، أتت واشتهرت هنا وبقيت صلتها وبيعتها متصلة ومستمرة - دائما - على عبر العصور والأعوام وبالجالس على العرش المغربي، أصلها أيما كان.

هذا ما كنت أود أن أقوله، وباسم سكان مدينة العيون - على الخصوص أريد أن أشكر جميع العلماء الأجلاء لا واحد منهم باسمه شخصيا، بحضورهم لمدينة العيون، والمشاركة التي عايشناها جميعا. كما أريد أن أخص بالشكر الجزيل إخواننا الأفارقة الأستاذ محمود ابراهيم جوب من السينيغال الشقيق والأستاذ ابراهيم الحسني من نيجر الشقيقة، والأستاذ من السودان الذين شاركوا معنا، وكانت فرصة مناسبة لهم أن يشاهدوا في عين المكان بعاصمة الأقاليم الصحراوية مدينة العيون وبحضورهم مكان المنطقة مدى الإندماج ومنتهى التاريخ المشترك بالنسبة لكافة المواطنين المغاربة، وكذلك مدى الإطمئنان والأمن والإستقرار الذي تتمتع به الأقاليم الصحراوية، رغم - وأكررها - رغم جميع المحاولات العدوانية على الحدود.

وأشكر أخيرا زميلي وصديقي مولاي عبد الكبير العلوي الذي أدار الندوة بديمقراطية وأعطاها لذاذة في التعقيب على البحوث والتدخلات، وشكرا لكم جميعا ووداعا من مدينة العيون وإلى لقاء آخر إن شاء الله.

كلمة السيد رئيس المجلس العلمي للأقاليم المُسترجعة

الشيخ ماء العينين لارباس الأغظف

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على نبيه الكريم

من رئيس المجلس العلمي بالعيون والأقاليم المسترجعة وطنطان

إلى

سيادة وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية
سيادة الوزير المكلف بتنمية الأقاليم الصحراوية لدى الوزير الأول ورئيس المجلس البلدي
السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم العيون
السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم بوجدور

حضرات : السادة العلماء
السيد رئيس المجلس الإقليمي
السادة المنتخبون
أيها الجمهور الكريم

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد، فإنه بإسمي وإسم أعضاء المجلس العلمي لهذه الجهة وجميع علمائها ومثقفيها أقدم كامل شكرنا وجزيل امتناننا لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية على ما قامت وتقوم به من عمل جاد في الدعوة إلى الله ورسوله على جميع الواجهات وما كرست من جهود مثمرة لإبراز ما في الإسلام من كنوز تغني جميع جوانب الحياة الإنسانية على مختلف إلوانها.

وتباين أذواق البشرية واختلاف مشاربها تنفيذا للتعليمات المولوية السامية.

إن هذا الملتقى التاريخي والفريد من نوعه الذي خصصتموه لمدينة العيون المجاهدة لهو أكبر رصيد تعتز به هذه الجهة واسمى مكسب تباهى به.

فلقد لاحظتم أيها السادة الكرام حرص الجماهير الإسلامية على تتبع جلساتكم والعناية الفائقة التي أعطاها السكان مشكورين لهذه الندوة ندوة حكم البيعة والخلافة في الإسلام فأبى علماء وأشراف وأهل الحل والعقد من سكان كل : من إقليم السمارة وبوجدور والداخلة وطنطان إلا أن يحضروا جلساتكم العلمية كغيرهم من سكان باقي هاته الجهة إخلاصا منهم للبيعة وتشبثا بحكمها ووفاء لما تدعو له من الطاعة والامتثال.

ولقد كان الجمهور من علماء ومثقفين وإشباه مثقفين معجبا كل الإعجاب بما قدمه السادة العلماء من عروض تشرح محتوياة البحوث التي أعدت لهذه الندوة.

واستفاد الكل كذلك من التدخلات الهادفة التي أضفت على هذه الندوة حلة من النقاش العلمي محبرة بالأدب واللياقة الكاملين.

إنها أيام خالدة ووقت ذهبي ثمين لا تقدر قيمته، لقد ازدانت هذه الندوة التي هي التفاتة مولوية كريمة باقطاب العلم والعرفان من شيوخنا الأكابر ومن إخواننا وزملائنا من وطننا المغرب ومن علماء السنغال ونيجريا والسودان.

فاجتمع في هذا الملتقى من رجالات الفكر والقلم عدد وافر شرف الندوة ببحوثه القيمة وتدخلاته الحية فشكرا لشيوخنا العلماء وزملائنا الأجلاء وضيوفنا الكرام واسمحوا لي إذا تقدمت بالشكر الكامل لزميلي وأخي وصديقي الأستاذ الجليل والأمين العام لرابطة علماء المغرب والسنغال السيد إبراهيم جوب على إسهاماته القيمة في هذه الندوة والتي تلهب المشاعر وراقت الناظر والسامع لما أعطاه الله من غزارة علم وطلاقة لسان وسلاسة عبارة كما تقدم الشكر الخالص لأخينا وقريبنا العالم الوقور الشريف الحسيني مشاركته القيمة وما فاه به من ثناء عاطر على ملكنا ووطننا أشكر الأخوين على مشاركتهما ونقول لهما مرحبا بهما في وطنهما الثاني المغرب، في عيون المغرب.

أيها السادة الكرام.

إن المجلس العلمي وعلماء هذه الجهة يقدمون موفور شكرهم للوزير المكلف بتنمية الأقاليم الجنوبية لدى الوزير الأول السيد اخليهن ولد الرشيد على كرم الضيافة وحسن الاستقبال وما قابل به هذه الندوة من تكريم واعتبار كما نشكر عامل صاحب الجلالة على إقليم العيون السيد صالح زمراك لما وفره لإنجاح هذه الندوة هو وجميع مساعديه كما نشكر عمال صاحب الجلالة لحضور افتتاح هذا الملتقى السادة عمال السمارة - بوجدور - الداخلة.

إخواني سكان مدينة العيون.

إن الحفاوة البالغة التي خصصتموها أيها السكان الأماجد لضيوف سيدنا دام نصره وعلاه لتشكرون عليها وتحمدون، فقد عرف عنكم من الكرم الحاتمي والأخلاق الفضيلة والأريحية الطبيعية الشيء الكثير وما ذاك إلا من إخلاصكم للبيعة وتشبثكم بالمقدسات الوطنية وفضلكم المعروف عنكم جزاكم الله بخيري الدنيا والآخرة وفي الأخير نلتمس من سيادة معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية أن يرفع إلى حضرة أمير المومنين وحامي حمى الوطن والدين جلالة الملك الحسن الثاني تجديد بيعتنا وكامل ولائنا وموفور إخلاصنا راجين منه جلت قدرته أن يديمه لنا حصنا حصينا وحارسا أمينا وأن يحرر بجلالته القدس وفلسطين وأن يجمع به وعلى يديه شمل العرب والمسلمين ويبقيه منارا للعلم والدين ويصون به شريعة جده سيد المرسلين ويقر عين جلالته بولي عهده الأمجد الأمير سيدي محمد وبصنوه الرشيد الأمير مولاي رشيد.

إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.



كلمة الأستاذ ابراهيم جوب

الأستاذ ابراهيم جوب

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين، وعلى آله وصحابته والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أيها السادة، أيها الإخوة في الله.

وأرجو أن أكتفي بهذا النداء الشامل، دون تفصيل الألقاب والمناصب.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، سلام امرئ قرت عيناه وانشرحت نفسه وأثلج صدره واطمأن، لأنه شهد مع الشاهدين جميعا، كثيرا من التوفيق لهذه الندوة المباركة التي دخلناها بخير، وسرنا فيها بخير، وأنهيناها بخير وما كل شارع في موضوع سائر فيه ولا كل سائر فيه بمنته منه بخير، فالحمد لله في الأولى والآخرة، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا، ولكن الله يزكي من يشاء..

كلمتي ستكون قصيرة - وحق لها ذلك - بعد البحور الفياضة أن تكون قصيرة، فأستهلها بالتهنئة على هذا التوفيق الذي أشرت إليه، ثم أقفي على هذه التهنئة بالإشارة إلى بعض أمارات التوفيق كما ذكرت، فلقد دعي العلماء، ولم يكتفي بدعوة العلماء، فدعى من أساتذة الجامعات ومن المفكرين ومن رجال القانون، ثم دعي كثيرون فلبوا - وهذا توفيق - وشاركوا فجاءت المشاركة من حيث الكم - ركاما من الأبحاث والدراسات، سمه بحرا، وحدث عن البحر ولا حرج كانت الأبحاث بمضونها ومحتواها ومستواها وأساليبها ثم اختصاراتها بمناقشاتها، فالتلميحات التي بين هذا وذاك، كل ذلك جاء لونا من ألوان التوفيق الإلاهي، وأمارات لا يمكن السكوت عنها ولقد شاقني أسلوب النقاش بين أهل الفكر والعلم في هذه الندوة ليس ضربة لازب أن نجتمع ولا نختلف ولا نتشاد، ولا تسوء أشياء، ولكن جلب ذلك لم يكن، فقد عشناها أياما سعيدة في وئام وانسجام وصفاء ونقاء ووفاء والحمد لله.

فأرجو من الله سبحانه وتعالى - والموقف موقف والشأن شأن - أن يزيد الوزارة توفيقا على توفيق، فيضا من فيوضات التوفيق الإلاهي لجلالة الملك حتى تبرز الوزارة هذه العلوم النافعة وهذه التحقيقات، ليس فقط إلى ساحة الإستهلاك في المغرب، ولكن إلى المجامع العلمية وإلى المراكز وإلى الجامعات وإلى حيث ينتظر المسلم أن يطلع في تجميع وترتيب جديد بحوث الخلافة والبيعة لأنها قبل ندوتنا - وأقولها بصراحة كانت أبحاثا متناثرة مقتضبة في مجاهل الكتب وبطون التاريخ، فجئتم - جزاكم الله خيرا - فتجمعوا وتقربوا الأقصى، وتسهلوا الصعب وتجعلوا هذا الموضوع وكأن لسان حاله ينشد.

ردوا، فوالله لازدناكم أبدا
ما دام في مائنا ورد برواد :

ثم تأتي إشارة إلى أهمية موضوع الندوة، وقد أشرت إليها في موقف مضى ولا يمكن لمدعو من أبناء العالم

الإسلامي، كلف بشؤون الدعوة عرج على هذه الأرض، أرض الدعوة منذ ربع قرن على الأقل، أن يسكت على أهمية هذا الموضوع، لأن موضوع البيعة والخلافة حديث عن فكرنا السياسي في الإسلام، وعن نظمنا وأسس هذه الأنظمة وإن كان المسلمون الآن على غير هذا المستوى، فإن ذلك فعل الزمن وأثر التاريخ ولكن لا مناص من التشبث بأصولنا، وأن ترمي أبصارنا إلى مستقبل بعيد ونضاعف الهمة لكي نصل يوما ما، في بلداننا الإسلامية كلها إلى مستوى الأنظمة التي يرضاها الله.

ولا شك أن آية البيعة، ـ وكانت تعني فعلا بيعة المؤمنين لرسولهم وهي أسمى بيعة لأسمى مبايع، إلا أنها منطلق ومؤشرلإبراز أهمية التعاقد على أسس البيعة في حرم الدين، ولهذا جاءت الآية منذرة : «فمن نكث فإنما ينكث على نفسه» لأنه أوتي فرصة للتقدم فتقهقر، وفرصة للنجاح ففشل وفرصة للتوحد فتفرق، وفرصة لجني ثمار الإيمان فوهى وضعف، «فمن نكث فإنما ينكث على نفسه».

وأخيرا تأتي تحية أسوقها باسم رابطة علماء المغرب والسينغال فما أجمل التعبير، لأن المغرب والسينيغال، وجها جنار، فنحن أمة مسلمة، كنا نرقب إشراقة النور ونحن هناك، ونتصور المغرب حتى رأيناه ونحن أطفال، نعرف مغرب الزوايا والجوامع والتكايا والمشايخ والفقه والتوحيد حتى عرفنا مغرب «البلغات والجلابيات» بل زد على ذلك مغرب الكسكس وما إلى ذلك من المنتفعات.

إذن، عندما يتطور الزمن، وتزول العقبات أو أكثرها، ويتعانق الشعبان، وتنشأ رابطة باسم علماء المغرب والسينيغال، ويتصل الفرع بالأصل وتتجدد الأماني، فإن تسمية الرابطة ـ في رأيي ـ لوحة بديعة حيوها معي.

ولكن رابطة علماء المغرب والسينيغال بالنسبة لمن لم يعرفها فما هي ؟.

أبت همة صاحب الجلالة الملك المفدى الحسن الثاني وأبت همة أخيه وزميله الرئيس عبده ضيوف في السينيغال، أبت همتاهما الإسلاميتان، إلا أن شجع علماء البلدين على أن يلتقوا كما التقى الساسة والتقى الإقتصاديون والتقى النقابيون، وبقيت الجواهر لما تلتقى حتى عهد قريب، فكان لهما ما أرادا وكان لكل بلد سعي كريم على الخير لغرب إفريقيا كلها، لأن الدين هو الدين والمذهب هو المذهب والعقيدة هي العقيدة، والأماني والأمال وحتى الماضي الكئيب اشتركنا فيه كما نشترك الآن في الأماني، المستقبل مشرق بنور الله.

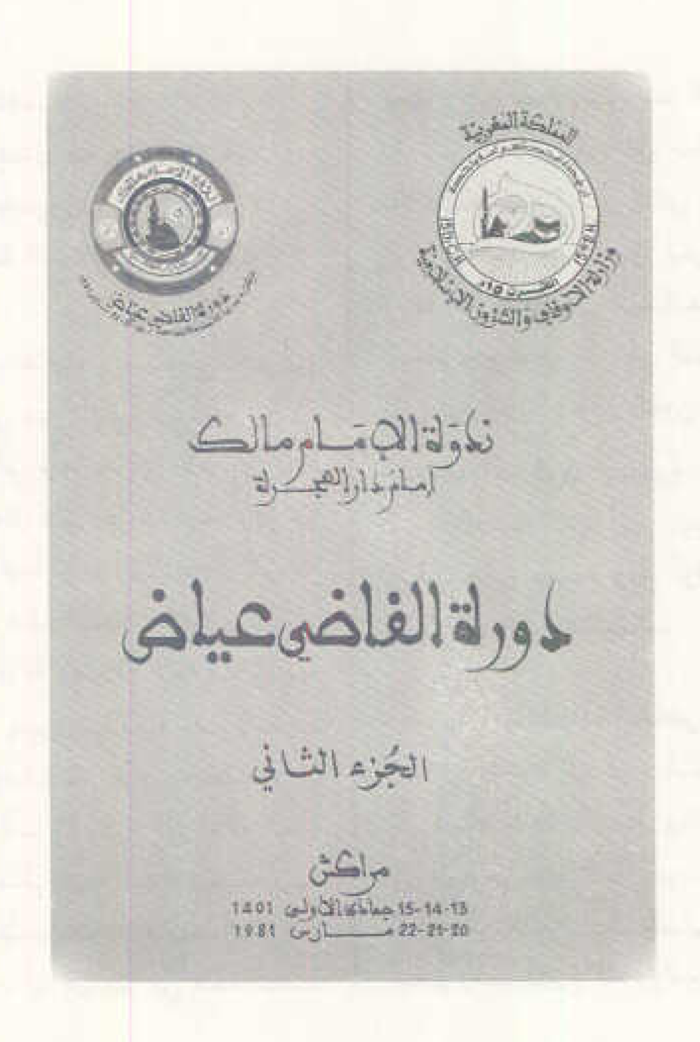
تحية إذن للعيون المدينة التي اشتقنا إليها ثم رأيناها، ولكن أهلها لم يتركوا لنا فرصة للتملي بجمالها لشدة العناية وحرارة الإستقبال.

لقد وضعت وجدولا ـ بتصوري الخاص ـ وجدولا سريا ـ وسيظل سريا ـ لأصفف السباقين إلى كرم الضيافة، وفي حرارة الإستقبال وفي شدة العناق، فكلما وضعت نقطة لفائدة زيد، انقلبت النقطة لفائدة عمرو. وفي النهاية قلت فلنتصور مكارم العيون عيونا، ولكل عين سواد، فهل لعيوني سواد فإذا بكل أهل العيون هم السواد ثم شكر لولاة الأمور في العيون، تخصيص بعد تعميم، وهي سنة الحياة. سيدي الوزير المنتدب لدى الوزير الأول، المكلف بتنمية الأقاليم الصحراوية صاحب المهمة الصعبة الضرورية ـ أعانكم الله، ثم العامل المقيم في عيوننا والعمال من زملائه في أقاليم السمارة وبوجدور والداخلة، ثم تحية أسوقها إلى زميله وأخينا في الله الشيخ لارباس ماء العينين، ثم للسادة الساهرين على تسيير الأمور في وزارتنا في الأوقاف والشؤون الإسلامية، ولو سميت لسميت أخانا في الله محمد المرابط الكاتب العام لهذه الوزارة، ثم أخص بالتحية الوزير العالم الداعية الشريف العلامة الغضريف الأستاذ الدكتور مولاي عبد الكبير العلوي المدغري.

ثم أعود أدراجي لأجمع كل تلك الباقات، وأضيف إليها أمثالها ونسير معا في مسيرة خضراء أخرى لنسلمها لصاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله.

ولقد كنت في الندوة ـ سامحوني، وفكرى يخرج من القاعة أحيانا للتطواف، وتذكرت ـ ونحن هنا ـ كتابا ألف منذ عشرات السنين ـ تقريبا لأحد أصدقائنا عن المغرب، وترجمة العنوان : المغرب بين جهادين، أو بين لونين من النضال «وأظنه للسيد جاك بيرك» ويعني بالجهادين الجهاد الذي كان مضطرما أيامه وهذا جهاد لا مفر منه، ولكن هنالك جهاد معه لا مفر منه وهو جهاد مستمر يحافظ على الذاتية أصالة إسلامية وعروبة، فإذا كان

للواء لواء الإستقبال والسيادة مرتفعا، مرفوفا أحمر إن شاء الله، ولن يسقط إلى الأبد، فإن هنالك لواء يجب أن يتشبث به الجميع، شيبا وشبابا، رجالا ونساء، وهو لواء الكفاح للحفاظ على الذاتية، على الأصالة، على إسلاميتنا حتى يتحقق كل منا بمضمون نداء الله تعالى : «وأنا من المسلمين ؟. كما أنني كلما ذكرت شروط البيعة ومؤهلات الإمام، أتوقف عند كلمة العلم، وهي من الشروط الدقيقة الشاملة ولو لم تدخل شروط العلم لبقينا في عصرنا هذا المعقد في حيرة، ولكن كل المؤهلات تقسم الآن بالعلم، لأن تكوين مليون من المسلمين في هذا الجزء الأخير من القرن العشرين، في بداية القرن الخامس العشر الهجري، هذا التكوين وهذا التأهيل وهذا الشرط الأساسي أشد تعقدا من الماضي، تذكروا الحوار الصعب بين الأطراف، والملفات المعقدة، والمثبطات التي تبث أمام الحاكم، وأنواع التدبير والمكيدة ولكن الحسن الثاني سباح ماهر في تلك البحور، سباح ماهر، ليس وصفا أخترعه من الخلاء ولكن أباه البر الملك محمد الخامس، سهر على تربية كما استمعنا أمس من شيخنا في سرده المدهش، مما جعلني أطلب التسجيل المصور ليرى الجميع ما رأيت ويسمع ما سمعت، وما نحل والد ولدا خير من أدب يجزه ويقدمه، وجاء أميرا لا كالأمراء كما قيل أمس، وملكا متفردا، بحثت عن شخصيته بين الخطباء فكان مبرزا، وبين الرماة وبين الطيارين والسائقين وبين التالين بالختمات الشهرية ـ والشهود هنا ـ بأذكاره اليومية بفقهه السياسي، بإنسانيته، بأصالته الإسلامية، ولكن بتفتحه الحضاري، فكان ملكا أذكره لأقول حفظه الله صاحب الجلالة وأيده بنصره وجعله دوما من السباقين إلى الحلى والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.



كلمة الشيخ صالح ابراهيم الحسيني

الشيخ ابراهيم صالح الحسيني

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين

- السيد وزير الأوقاف.
- السادة الوزراء وعمال صاحب الجلالة.
- السادة العلماء الحاضرون.
السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

لاشك أن الكلمة كانت مفاجئة بالنسبة لي، غير أني أشعر وأحس بأنني في وطني وبين أهلي، ولذلك فإنني أرى أن أتكلف ألفاظا أو معاني وأهم ما في الأمر أن أقدم لهذا البلد أعز ما عندي لأحصل على أعز ما فيه، وأعز ما عندي هو قلبي، أقدمه هدية لهذا الوطن. ولاشك أن أعز ما في هذا البلد، هو ما تضمنته هذه الأبحاث القيمة التي لم تترك شاذة ولا فاذة مما له علاقة بالخلافة الإسلامية والبيعة في الإسلام، وهذا شيء لا يضمن سلامة مصير المغرب العربي العريق في إسلامه ومكانته وعروبته فحسب، بل يحمي الأمة الإسلامية كلها، لأننا إذا نظرنا إلى الواقع الذي يعيشه المسلمون اليوم، والعالم أجمع، وما تتخبط فيه الإنسانية على اختلاف أنظمتها ومناهجها الفكرية والسياسية، نجد - ولاشك - أن كل شبر في هذه الدنيا يحتاج إلى نظام مثل هذا النظام القائم في هذا القطر الإسلامي الأصيل، في ظل جلالة مولانا الملك المفدى سلالة المصطفى الحسن الثاني حفظه الله ونصره.

إن المهم في البيعة. ليس هو البيعة في حد ذاتها، وإنما أهم جانب في البيعة هو المحافظة على ما تعنيه البيعة، وهو الذي يأتي في المقطع الثاني مباشرة في الآية التي بين أيدينا : ﴿**إن الذين يبايعونكم إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم**﴾.

والجانب الذي أشير إليه هو : ﴿**فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنوتيه أجرا عظيما**﴾.

- أيها السادة الحاضرون :

إذا رجعنا إلى سيرة المصطفى ﷺ وأعماله وجدنا بأن حياته حافلة بالأعمال وبالمنجزات، وكانت حياته تمثل كل شيء في هذه الأمة، فهو - عليه الصلاة والسلام - رسول مرسل من الله تبارك وتعالى، وقائد عظيم وامام مقرئ ومعلم ومنفذ لشرع الله وواضع له، فهو المشرع، وإذا نظرنا

إلى من بعده، وجدنا كل هذه الأمة منشغلة بأعماله عليه الصلاة والسلام. وأكمل فرد في هذه الأمة، هو من يمثل المصطفى عليه الصلاة والسلام، التمثيل الصحيح. ومما لاشك فيه، بأن الأسرة العلوية المالكة في المغرب، قد قامت بهذا الواجب على أكمل وجه، فمثلت رسول الله ﷺ، وأعظم ما يدل على ذلك، هو الرجوع إلى العلماء في مثل هذا الوقت الذي كانت فيه الميزة أو السمة الظاهرة فيه هي الزهد في العلماء، والعلم الإسلامي، فرجوع جلالة الحسن الثاني ـ حفظه الله ونصره ـ إلى العلماء لا في المغرب فحسب، وإنما في العالم الإسلامي ككل، لدليل قاطع، على أنه يسير على درب جده عليه الصلاة والسلام، في مشاورة أهل الحل والعقد، وهذا أمر مفقود في كثير من بقاع العالم. وأننا نعيش في بلاد تختلف عنكم في النظم إلا أننا نغبطكم على هذه النعمة العظيمة التي وهبها الله لكم، وإلى الاستقرار والطمأنينة والنجاة من الاضطرابات التي تكدر وتؤخر وتربك مسيرة البلد.

أنا قادم من نيجيريا، ولاشك أن نيجيريا هي عملاق إفريقيا العظيم من كل النواحي، فمن الناحية العقدية ـ والحمد لله ـ وكذا من ناحية الثروات التي ينعم بها الخلاق العليم على عباده فهي جامعة لكل هذا، إلا أننا نحتاج إلى المأمن، نحتاج إلى الاستقرار، نحتاج إلى وحدة نطمئن إليها، نحس في نفوسنا بأنها وحدة نابعة من قناعة خاصة بنا وبما أراد الله أن تسير عليه، ولكننا لن نيأس، فقد نلاحظ أنه فلت الزمام من أيدينا بنظم لا صلة لها بالإسلام، إنما تبنينا نظما غربية حديثة، وهي في الحقيقة سراب لا تحقق أي شيء، خالية من كل مضمون، وإنما السعادة كل السعادة في النظام الذي تسيرون عليه، فإننا معكم، نضع أيدينا في أيديكم، وأيدي الجميع في يد صاحب الجلالة الملك الحسن حفظه الله ونصره.

فعلاقات المسلمين في نيجيريا بالمغرب الشقيق علاقات قديمة بعضها دينية محضة وعلاقات عرقية وثقافية، يلاحظ هذا من زار نيجيريا ولو لوقت قصير وتنقل بين ربوع الأهالي بشمال البلاد، فإنه يشاهد أن كل شيء يدل على أن صلة تلك البلاد بالمغرب قوية وعريقة ومتينة، ولم تتغير على الرغم من الألاعيب الاستعمار ولفترة طويلة لا تقل في بعضها عن المائة سنة، وفي بعضها الآخر عن الستين سنة، كل هذه الألاعيب، لم تؤثر في الصلة الحقيقية لهذا البلد الأصيل بالمغرب.

فنحن نقرأ القرآن برواية ورش عن نافع، ونحن لا نعرف سوى وحدة مذهبية هي مذهب الإمام مالك، ونعتمد على كتب ألفت بأقلام مغربية، أو جلبت إلى بلادنا بواسطة علماء من المغرب العربي، كما أننا نعتنق مذهب أهل السنة فلا يوجد ـ أبدا ـ في نيجيريا غير مذهب أهل السنة.

كل هذه دلالات، تدل على أن ارتباط أهل ذلك البلد، ارتباط غير مصطنع، وإنما هو الحقيقة، وهذه الحقيقة، أرجو أن ترعى وأن تعطاها العناية الكافية من إخواننا في المغرب العربي الشقيق، وإنني في الحقيقة، إذا ما نظرت إلى قضية الصحراء المغربية بأصالتها المغربية بإيمانها، ونظرت إلى ما يقوم به بعض من المرجفين لا ألبث أن أراجع نفسي لأجدني مطمئنا تمام الطمأنينة علما مني بأن أراجيفهم لن تغير شيئا في الحقيقة الجاثمة أمامي والماثلة بين عيني، ذلك أن كل من أراد أن يهدم ما بناه الله، فهو لاشك إنسان مجرد نفسه من خصائص العقل كلها، ويظهر نفسه أمام العقلاء عاريا عن كل اهتمام وكل اعتبار، ذلك أن الله تبارك وتعالى أراد للصحراء المغربية أن تكون جزءا لا يتجزأ من المغرب العربي وأنه تعالى ما وضع إرادته في يد أحد فقال تعالى : **﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا﴾**.

ـ أيها الإخوة المؤمنون :

إنني أزف إليكم تحية إخوانكم علماء نيجيريا، وتحية إخوانكم المسلمين في نيجيريا البالغ عددهم خمسة وسبعين مليونا، وبصوت هؤلاء جميعا أحييكم تحية الإسلام، وأحييكم تحية المحبة والوداد، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، وأتمنى وأدعو ـ مخلصا ـ الله تعالى أن أرى دائما وأبدا مغربا موحدا وأمة واحدة حول ملكها المفدي جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله ونصره.

كلمة الشيخ محمد المكي الناصري

كلمة فضيلة العلامة الشيخ الأستاذ محمد المكي الناصري، رئيس المجلس العلمي للرباط وسلا وعضو مجلس الوصاية، باسم أصحاب الفضيلة رؤساء المجالس العلمية وسائر علماء المملكة.

(الجلسة الاختتامية)

باسم الله الرحمن الرحيم.

أحيي في البداية في إكبار وإجلال الشخصيات السامية التي تشرف على منصة الرئاسة، من وزراء جلالة الملك وممثليه، في الأقاليم الصحراوية وممثل علماء الصحراء المغربية.

- إخواني العلماء من الشمال والجنوب.

من حقنا أن نهنئ أنفسنا أصدق تهنئة، فهذه الملابسات التي حفت بجمعنا المبارك، كلها دلائل ناطقة، بأننا من حول الله، من أهل السعادة والتوفيق، لقد اجتمعنا ودرسنا موضوعا جليلا هو «موضوع البيعة والخلافة في الإسلام» تحت رياسة عالم جليل من علمائنا الشباب، هو منا وإلينا، فكانت اجتماعاتنا وجلساتنا كلها محاطة بجو من الاخوة والوئام والتقدير المتبادل والصدق في الحديث، والإخلاص في المناقشة والمجادلة.

وحديثنا عن البيعة والخلافة من الوجهة النظرية، لم يكن حديثا نظريا مجردا، لأننا نعيش البيعة والخلافة في صيم حياتنا في هذا البلد المجاهدة.

فالشعب المغربي دعاه جلالة الملك الحسن الثاني، ليحمل حقيقته ويقدم حياته فداء لهذه البلاد، فاستجاب الشعب، فالملك طلب 350.000 متطوع فاستجاب الشعب بالملايين، تعبيرا عن ثقته بملكه وعن طاعته لأمير المؤمنين دون تحفظ ولا بخل، إستجاب الشعب المدني من المواطنين نساء ورجالا من جميع الأقاليم دون أن يتساءل ما هو المصير ؟ وفاء لعهد البيعة : «الطاعة والنصرة» ودعا أمير المومنين القوات المسلحة الملكية (الجيش المغربي العتيد) فأقبلت الآلاف من هؤلاء الضباط والجنود الأوفياء، سامعين مطيعين، معرضين حياتهم لكل الأخطار، مغامرين في الصحراء بجميع ما يملكون، مضحين بكلما يلزم من تضحية، التزاما منهم بعهد البيعة، السمع والطاعة لأمير المومنين.

ونأتي اليوم وقد حججنا ـ ولا أبالغ إذا قلت أننا حججنا ـ نحن علماء المغرب بتلهف وشوق واغتباط كبير إلى حاضرة العيون، لنرى بأعيننا أيضا مواطنين إخوة مومنين سامعين مطيعين لأمير المومنين ملتزمين ببيعتهم لا يشذون عن الجماعة في قليل ولا كثير، ونجد هذه الأقاليم

الصحراوية التي عاشت في جو من الاضطراب والكيد والمآمرات على رأسها هؤلاء الرجال الأشاوس من عمال وممثلي صاحب الجلالة، الذين قدموا حياتهم دون أن يفكروا بأي بخل لا بالنفس ولا بالمال في جو كله دسائس من كل جهة، وعداء من كل جانب جاؤوا مومنين سامعين مطيعين لأمير المومنين، واثقين بأن أمير المومنين لا يدعو إلا لما فيه الخير وإلا لما فيه المصلحة ونحن في جو البيعة، فإنها حقائق ليست في الكتب فقط ولكنها حية في أعماقنا وفيما نراه.

وننظر إلى أمير المومنين الحسن الثاني كذلك، فنجده في مستواه العالي، وفيا لالتزاماته، مضحيا بحياته، لا يبخل بأي شيء في سبيل الوفاء بعهده، الا وهو الحفاظ على وحدة هذه البلاد، والدفاع عن حوزتها بالنفس والنفيس، يتحرك العالم كله من حوله متذرا، ويتحول الأعداء كلهم من حوله لتخذيله ولإرجاعه عن مسيرته وللعودة إلى الوراء، ويقف الحسن الثاني وقفة الجبل الراسخ الذي لا يلين، وتتكسر عليه جميع الهجمات، الملك مومن صامد وأمير المومنين الملتزم بعهده لأمته ولدينه والذي يضحي بالنفس والنفيس ولا يفكر لا في الليل ولا في النهار إلا في الوفاء بالعهد الذي عاهد الله عليه يوم أن جلس على العرش فكان به وفيا وبه حفيا.

- إخواني العلماء.

لنهنئ أنفسنا، فنحن متمسكون بالعروة الوثقى، ما علينا إلا أن نزيد استمساكا بها، فتلك المفاهيم التي نومن بها ليست عبارة عن ألفاظ براقة، هي قوات زاخرة، هي طاقات تحرك الجبال، وتحدث المعجزات نحن الآن في الصحراء فكيف كانت الصحراء ؟ ومن الذي كان يحلم بعودتها والاستعمار جاثم على أرضها عشرات السنين ؟ همة الملك الحسن، وفاء الملك الحسن، صدق الملك الحسن، شجاعة الملك الحسن.

ألا يحق لنا أن نعتز جميعا، إخواننا من الصحراء، من الشمال من كل بلد بقيادة زعيم من هذا الطراز، أين يوجد رئيس كهذا الرئيس ؟ أين يوجد أمير للمومنين ملتزم، صامد، لا يتراجع ولا يتقهقر، وكثير من الناس يشكون وكثير من الناس يتراجعون، وكثير من الناس يقولون ما هذه المغامرة ؟

ونعود إلى الشعب المغربي في القرى والمداشر، الذي يضحي بخبزه وقوت يومه من أجل الدفاع عن وحدة هذه البلاد في كل مكان، شعب لا يبخل، يضحي في كل يوم، ولا يتململ، ولا يتذمر، ولا يقول كفانا من الصحراء أبدا، إلى الإمام من أجل الصحراء المغربية...

- معالي الوزير.

نهنئكم ونهنئ أنفسنا، فحول هذه المعاني التي ليست معاني مجردة طاقات زاخرة وتيارات دافعة، يلزمنا أن نتمسك بها، وأن نحافظ عليها، وأن نعمق الشعور بقيمتها وبجلالها في حياة أمتنا وفي حياة كل أمة تؤمن بها.

- هنيئا لمدينة العيون.

- هنيئا للصحراء المغربية.

- هنيئا لإخواننا الذين جمع الله بهم شملنا وجمع شملنا بهم في ظل أمير المومنين، ملك العلماء، وعالم الملوك والسلام عليكم ورحمة الله.

الشيخ محمد المكي الناصري

كلمة الدكتور عبّاس الجراري

الدكتور عباس الجراري

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

- سيدي الرئيس
- أصحاب المعالي والسعادة
- حضرات الإخوة والسادة

أرجو أن تسمحوا لي بكلمة قصيرة، أتحدث فيها باسم السادة العلماء والأساتذة المشاركين في ندوة البيعة والخلافة في الإسلام، لأعرب عن الأحاسيس التي نشعر بها جميعا تملأ قلوبنا متدفقة فياضة.

وإن العبارات لتبدو غير مشعبة في الإفصاح عن اللائق من الشكر والامتنان للذين ساهموا في تنظيم هذه الندوة وهيأوا لها ظروف النجاح وأتاحوا لها أن تحقق ما تصبو إليه من أهداف.

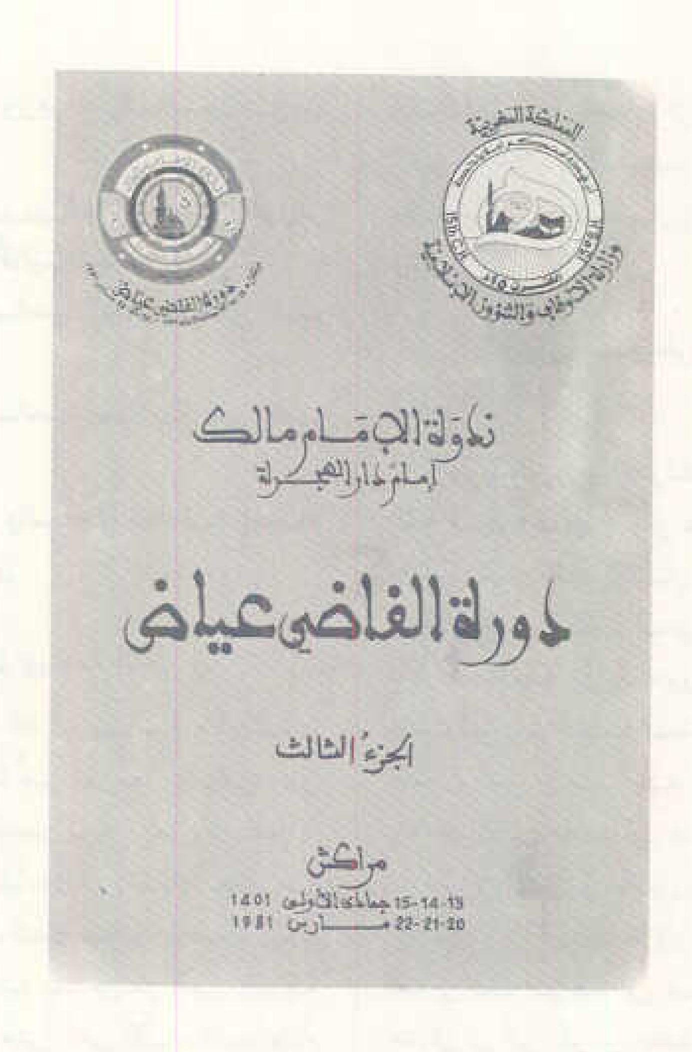
وإن ما بذلته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، من جهود مادية وأدبية منظورة وغير منظورة ليفوق كل تقدير، فإلى فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري، جزيل الشكر وعميق الثناء على دعوته الكريمة لهذه الندوة، وعلى إشرافه الحازم عليها، وعلى تسييره المحكم لجلساتها، بما هو معهود فيه من علم وحكمة ودقة وضبط وصرامة كذلك، وإننا لنشجع تلك العبارات بجميل الثناء وخالص التقدير لمعاوني معاليه وعلى رأسهم سيادة الكاتب العام، الأستاذ الحاج محمد المرابط وجميع المنظمين والمرافقين والمسؤولين عن كتابة الندوة والساهرين على الطبع والنشر، أولئك الذين وضعوا بين أيدينا مآت من الصحائف مما تضمنته بحوث الندوة وغيرها مما كنا نوافي به طوال فترة الندوة.

وإذا كنا قد أقبلنا على هذه الندوة بابتهاج وحماس تجليا في الأعمال التي استغرقتها جلسات هذه الندوة، وهي جلسات كانت تدوم ساعات طويلة فإن ذلك معزو إلى الجو الذي انعقدت فيه، في رحاب مدينة العيون المجاهدة ووسط أبنائها الكرام وبين نخبة من مواطنينا في بقية الأقاليم الصحراوية، فإليهم جميعا نهدي عبارات الثناء والامتنان ممزوجة بالحب الخالص، على ما لقينا عنهم من حفاوة الاستقبال وكرم الضيافة وصادق التجاوب، وليتقبل منا هذه العبارات.

بالنيابة عنهم، معالي الوزير المنتدب لدى الوزير الأول، المكلف بتنمية الأقاليم الصحراوية ورئيس المجلس البلدي لمدينة العيون السيد خليهنى ولد الرشيد وعامل صاحب الجلالة على هذا الإقليم السيد صالح زمراك وكذا عمال صاحب الجلالة على أقاليم السمارة وبوجدور والداخلة، وليتقبلها كذلك رئيس المجلس العلمي، فضيلة الشيخ لارباس ماء العينين وصحبه من العلماء العاملين، والسادة المنتخبون ورجال السلطة المحلية من إدرايين

وقـائمين على الأمن ورجـال القـوات المسلحـة الملكيـة المرابطة.

وإننا إذ نختتم هذه الندوة، لننتظر أن تتبعها نـدوات أخرى تبحث مـوضـوعـات من صميم حيـاة الـوطن الفكريـة الحيويـة، حتى يتسنى لنا أن نقوم بالـدور العلمي الجهـادي المنوط بنا ونؤدي الرسالة التي يحملنا إياها الـدين والوطن والتاريخ وواقع أمتنا المتطلعة المناضلة، وحتى نكون عند حسن ظن عاهلنا المفـدي، مبـدع المسيرة، ومحرر الصحراء جلالة الملك الحسن الثـاني الـذي أبى حفظـه اللـه ـ إلا أن تنعقد هذه الندوة في كنف كريم ضيـافتـه وجميل عنـايتـه ورعايته، وإننا لنرفع أكف الضراعة إلى اللـه، أن يعز أمره، ويؤيده بالنصر والظفر الدائمين، ويبقيه ذخرا للأمـة، ورمزا للوحدة وقائدا للمـسيرة، وراعيا للعلم والعلماء، وأن يقر عينه بولي عهـده المحبوب، الأمير سيـدي محمـد وصنـوه المـولى الرشيد، وسـائر أفراد أسرتـه الشريفـة والسـلام عليكم ورحمـة الله.



كلمة شرفاء الرقيبات

بسم الله الرحمن الرحيم
وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

- السيد معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

- السيد معالي الوزير المنتدب لدى الوزير الأول المكلف بتنمية الأقاليم الصحراوية

- السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم العيون

- السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم السمارة

- أصحاب الفضيلة والسماحة، سادتنا العلماء الأجلاء، السادة الحاضرون

السلام عليكم ورحمة الله،

إنه لشرف عظيم حبانا الله به بمناسبة هذه الندوة الميمونة، التي ارتأى مولانا أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين، جلالة الملك الحسن الثاني المؤيد بالحفظ والسبع المثاني ووزاره، وعملاءه الذين تفضلوا بعقد هذه الندوة في هذا البلد المجيد، الذي طالما انتظرها وبكل فارغ الصبر، حتى من الله عليه بما منّ من الخير والبركة وجمع الشمل وصلة الرحيم حتى التقى الأب بالابن، والأم مع الولد والغريب معا الغريب، وما إلى ذلك من الخيرات والبركات بفضل القيادة الرشيدة والفكرة النيرة والهدف الخير من جلالة مولانا الحسن الثاني دام له النصر والتمكين وفتح عليه في العاجل والآجل بالخير في كل وقت وحين.

الكلام على البيعة على ضوء ما في كتاب الله عز وجل. قال الله تعالى :

﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم﴾ ومن هنا، فإن أصل البيعة العقد والإبرام الذي عقده الإنسان على نفسه من بذل الطاعة والوفاء للإمام بالعهد الذي التزمه وإن أعلم الناس لما تستوجبه البيعة من وفاء وولاء، وإخلاص وصبر واستماتة وثبات لهو بحق القطب المجاهد الشريف سيدي الشيخ سد أحمد الرقيبي بن سيد أحمد بن امحمد بن يوسف بن علي بن عبد الله بن محمد ابن عبد الكريم بن أحمد بن موسى بن غانم بن كامل بن تكميل بن زين العابدين ابن حيدرة بن يعقوب بن علي بن مزوار بن خطاري بن عيسى بن عبد الله بن عبد الواحد ابن عبد الكريم بن عبد السلام بن امشيش بن أبي بكر بن محمد بن حرمة ابن عيسى بن سالم بن حيدرة بن علي بن محمد ابن أحمد بن عبد الله بن

إدريس بن إدريس ابن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبطي بن علي كرم الله وجهه.

وبعد، فالغرض من إظهار هذه السلسلة النيرة الشريفة والإعلام المتوالية المنيفة، هو تأكيد استمرارية هذه البيعة في الأعناق من بداية السلف إلى هذا الخلف على الإطلاق.

فبعد هذا التوضيح عن ثبوث البيعة بالنسب يأتي تأكيدها بالجهاد والعمل، فمن هذا الجهاد الذي قامت به قبيلة الرقيبات ضد الدولة الفرنسية الذي استمر ثلاثون سنة بالضبط دفاعا عن الوحدة الترابية، وإخلاصا للدولة العلوية الشريفة، فإليكم بعض هذه المعارك الشهيرة مرتبة حسب الزمان والمكان :

1) - معركة لكويشيش سنة 1912
2) - معركة اتويدارارت سنة 1912
3) - معركة اكجوجة سنة 1912
4) - معركة المطلح سنة1912
5) - معركة يطن سنة 1912
6) - معركة أزويل سنة 1912
7) - معركة الكَطار سنة1914
8) - معركة الابيار البيض سنة 1914
9) - معركة احميم سنة 1914
10) - معركة الحفر الأولى سنة 1914
11) - معركة واد الم سنة 1914
12) - معركة الكيدري سنة 1916
13) - معركة الكَليب سنة 1916
14) - معركة الوس سنة 1916
15) - معركة الخرفانيات سنة 1916
16) - معركة أم اغوالب سنة 1922
17) - معركة الحفر الثانية سنة 1922
18) - معركة اطريفيات سنة 1922
19) - معركة برميل سنة 1922
20) - معركة رزويك سنة 1923
21) - معركة امطلات سنة 1923
22) - معركة تنويكتين سنة 1924
23) - معركة تكَيكَل سنة 1924
24) - معركة لمفالكَ سنة 1924
25) - معركة تجنين سنة 1935
26) - معركة الطارية سنة 1925
27) - معركة ميجيك سنة 1926
28) - معركة العاكَر سنة 1927
29) - معركة درزم سنة 1928
30) - معركة امبيقير سنة 1930

وهذا كله وقع بدعم ورأي واجتهاد ملوكنا العلويين.

اللهم بحرمة نبيك الشهيد، أيد بقوتك وعونك مولانا أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين، واحفظه في ولي عهده المحبوب سيد محمد، وصنوه المولى الرشيد وسائر أفراد أسرته الشريفة إنك سميع مجيب.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.



كلمة قبائل تكنة

- معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

معالي الوزير المنتدب لدى الوزير المكلف بتنمية الأقاليم المسترجعة السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم العيون السيد عامل إقليم السمارة السيد الكاتب العام لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

حضرات السادة العلماء الأجلاء

إخواني، أخواتي..

يشرفني أصالة عن نفسي ونيابة عن قبائل تكنة أن أرحب بكم بالغ الترحيب هنا في مدينتكم وبين ذويكم في هذه البقعة الصامدة من وطننا الحبيب التي عقدتم في أرضها المباركة ندوتكم : «البيعة والخلافة في الإسلام» هذا الموضوع الذي شاركتم فيه مشاركة تستحقون عليها كل الشكر والتنويه بفضل عروضكم الشيقة التي تتبعناها نحن أبناء الأقاليم المغربية بشوق ولهف كبيرين، نظرا لما أتى به هذا المنتدى الفكري من معلومات نيرة ساهمت في بلورة مفهومي البيعة والخلافة في الإسلام في أوساط مجتمعنا هذا الذي ورث البيعة أبا عن جد منذ تاريخ قديم مستلهمين قول الباري تعالى : «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا» وقول الرسول ﷺ المومن للمومن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

وإن اختيار أمير المومنين نصره الله لمدينة العيون كمقر لانعقاد ندوتكم هذه بعد فاس ومراكش لدليل قاطع على مدى ما تحظى به أقاليمنا هذه من حب وتقدير في شخص جلالته والذي ما فتئ حفظه الله يسدي أيادي بيضاء يعجز اللسان عن عدها والتي تتمثل في تنمية هذه الأقاليم في جميع الميادين الإقتصادية والإجتماعية والثقافية وأن انعقاد ندوتكم «البيعة والخلافة في الإسلام» في هذا الوقت وفي هذا المكان لهو الدليل القاطع على مغربية أقاليمنا هذه التي يجعل أبناءها البيعة في أعناقهم منذ زمن بعيد، فمنذ قيام الدولة العلوية الشريفة والصحراء جزء لا يتجزأ من المملكة المغربية والتاريخ يشهد على هذا الرباط الوثيق الذي لم يزدد مع مرور الأيام والسنين إلا صلابة ورسوخا فعلى سبيل المثال في عهد المولى اسماعيل لما عزم على السفر إلى هذه الثغور أخذ معه خليفته على الصحراء آنذاك المجاهد الكبير والولي الصالح والوطني الغيور حدو سعيد الملقب بقارس النعاسة أحد أبناء قبيلة ازرقيين المجاهدة وقد دامت هذه الرحلة شهرين كاملين تفقد خلالها جلالة السلطان شؤون رعيته ومراكز قواته وفي عهد المولى الحسن الأول تم تعيين عدد كبير من القواد من أبناء هذه المناطق من أهل الحل والعقد أثر زيارته لوادي نون ومنطقة الجنوب، ومن بين هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر القائد ابراهيم ولد امبارك والقائد محمد البلال وسليمان ولد بوجمع الجلالي وقد تم هذا التعيين بظواهر

مولوية لا تزال محفوظة مع بعض الرسائل المتبادلة بين السلاطين وقوادهم وما هذا كله إلا تأكيد على مدى تشبث أبناء هذه المناطق ببيعتهم للدوحة العلوية الشريفة الموروثة أبا عن جد ولما امتدت يد المستعمر القذرة إلى رمز سيادة هذا الوطن جلالة المغفور له محمد الخامس، انتقض أبناء هذه الأقاليم ضد المستعمر مطالبين بعودة ملكهم واستقلال وطنهم مهما كلف ذلك من تضحيات وتوالت الأحداث إلى أن عاد عاهل البلاد منتصرا ظافرا حاملا وثيقة الإستقلال ومعلنا قيام عهد جديد : عهد الحرية والعمل الجاد من أجل ازدهار هذا الوطن العزيز وإثر عودته أبى أبناء هذه المنطقة إلا أن يؤكدوا البيعة والولاء لقائد البلاد فتوجه وفد كبير يضم قواد القبائل وقضاتها والوجهاء من أهل العقد والحل إلى عاصمة المملكة للمثول بين يدي جلالة الملك وتأكيد بيعة أهل الصحراء المغربية الموروثة عن آبائهم وأجدادهم امتثالا لقوله تعالى : «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم» وفي سنة 1957 لما خطر ببال المستعمر تقسيم هذه المنطقة تشكل جيش التحرير من أبنائنا الذين أبلوا البلاء الحسن فضحوا بأموالهم وأنفسهم من أجل الحفاظ على وحدة هذا الوطن ولقنوا العدو دروسا في الشهامة والبطولة لن ينساها أبدا، وهكذا تم على أيديهم دحر الغزاة في المواقع التالية : الدشيرة ـ تكي، آيت باعمران وتحرير كل من طرفاية وآيت بعمران، باستثناء سيدي إفني والساقية الحمراء ووادي الذهب هذه المناطق التي تم تحريرها في عهد الوحدة والحرية عهد جلالة الملك الحسن الثاني القائد المسلم والمجاهد الكبير عاملا بوصية والده المنعم في استمرار الكفاح من أجل استكمال وحدة المغرب الأقصى من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى المحيط، ولما خطط المستعمر لعزل الساقية الحمراء ووادي الذهب عن الوطن الأم وخلقه دولة على أرضه تدين له بالولاء وتسير ضمن خططه تدارك حفظه الله خطورة الوضع فبادر بإعلانه في الوقت المناسب عن مطالبة المغرب بحقوقه المشروعة والمتمثلة في سيادته على أرضه فتقدم بملف الصحراء إلى محكمة العدل الدولية بلهاي وبعد إعلان هذه الأخيرة عن ثبوت مغربية الصحراء استنكر المستعمر حكمها فخطط حفظه الله جوانب الحل الشرعي الممثل في المسيرة الخضراء الحسنية التي اذهلت أكبر السادة والمفكرين في عالمنا المعاصر وكانت الحد الفاصل بين عهد العبودية والاستغلال وعهد الحرية والنور وانبثاق المغرب الجديد مغرب الوحدة والنماء فربط الشمال بالجنوب وحطمت الحدود، وتم تأكيد البيعة بالوفود الوافدة على القصر الملكي العامر مرددين قول الله تعالى : «الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور «هذا، وبعد عودة إقليم وادي الذهب إلى حظيرة الوطن الأم يوم 14 غشت 1979 اكتملت الوحدة وعم الهناء، فأكد المغاربة جميعا البيعة والولاء بحاضرة إقليم وادي الذهب مدينة الداخلة يوم 4 مارس 1980 رغم كيد الكائدين وحسد الحاسدين وتوجت هذه الأحداث كلها بالزيارة الميمونة المباركة زيارة النماء والوحدة التي قام بها عاهلنا المفدى جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله للأقاليم الصحراوية في مارس من السنة الجارية تلك الزيارة التي برهنت للعالم عن وجود أبناء الصحراء المغربية على أرضهم ومع ملكهم وقائدهم مؤكدين له البيعة وملتفين حول عرشه ومجندين وراءه، وإننا معشر العلماء لنشهد لله ونشهدكم في هذا اليوم المبارك السعيد على أننا مغاربة لعهدنا وافين وعلى بيعتنا محافظين وللعرش العلوي والجالس عليه حامين.

وفي الختام، نتضرع للباري سبحانه أن يمد في عمر مولانا مبدع المسيرة الخضراء ومحرر الصحراء جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله حتى يحقق لشعبه ما يصبو إليه من عز وفخر وسؤدد وأن يقر عينه بسمو ولي العهد المحبوب الأمير الجليل سيدي محمد وصنوه المولى الرشيد وباقي أفراد العائلة المالكة، إنه على ما يشاء قدير وبالاستجابة جدير وهو نعم المولى ونعم النصير.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

كلمة الشرفاء العروسيين

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسول الله

- أصحاب المعالي السادة الوزراء.
- أصحاب السعادة عمال صاحب الجلالة.
- السادة العلماء الأفاضل.
- حضرات السيدات والسادة.

باسم قبائل الساحل، يشرفني أن أرحب بكم في مدينة العيون التي كان لها شرف احتضان هذه التظاهرة الدينية الكبرى بأمر من قائد الأمة جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده، بعد شقيقتيها فاس ومراكش، وان دلت هذه الالتفاته المولوية الشريفة على شيء فإنما تدل على العناية التي يحظى بها رعايا العرش العلوي المجيد في هذه المنطقة من مغربنا العزيز على مر الدهور والأزمان.

إن أبناء الصحراء المغربية الأوفياء المتشبثين بالبيعة والولاء للدولة العلوية الشريفة على مدى تسلسلها التاريخي من مولاي علي الشريف مرورا بالمولى إسماعيل فالحسن الأول ثم فقيد العروبة والإسلام جلالة المغفور له محمد الخامس إلى وارث سره جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأيده، لقد عرفت هذه الناحية الجنوبية من بلادنا عدة هزات ومؤامرات تصدى لها السكان، وعبروا عن الالتحام والوفاء والبيعة ومساندة ملوكهم الشرعيين. حيث رفضت كل القرارات الاستعمارية الدنيئة التي كانت تحاول النيل من هذه الروابط والعلاقات المتينة التي تربط بين العرش العلوي المجيد وسكان هذه الربوع من وطننا الغالي، أجل هذه الربوع التي تعد بحق امتدادا جغرافيا للملكة المغربية الشريفة التي يقودها سليل الدولة العلوية الشريفة مولانا الحسن الثاني نصره الله وأيده، إلى مكارم العز والرقي حتى أصبح مغربنا العزيز، قبلة سائر الدول.

ترى فيه البلد الطموح الذي يبني حضارته العصرية طبقا لتعاليم الإسلام الحقة.

وأخيرا نشكر السادة العلماء الذين أناروا أفكارنا بأبحاثهم القيمة في موضوع البيعة والخلافة في الإسلام. هذه البيعة التي ورثناها عن آبائنا وأجدادنا منذ أن وطئت أقدام عقبة ابن نافع الفهري هذه الديار. ونحن اليوم على ذلك العهد مؤكدين بيعتنا المباركة إلى قائد الأمة المغربية وحامي حماها مولانا الحسن الثاني سليل الدوحة العلوية الشريفة أدام الله عزه ونصره وتأييده وحفظه في ولي عهده الأمير الجليل سيدي محمد وصنوه المولى رشيد وكافة الأسرة المالكة.

إننـــا على حب العرش متفـــانـــون
وعلى العهــــد بـــــاقـــون

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

البيان الختامي
لندوة البيعة والخلافة في الإسلام بالعيون

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

قال الله عز وجل : «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجرا عظيما» وقال عز من قائل : «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم».

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : «من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية.

وفي إطار هذا التوجيه الرباني العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وتمسكا بالهدى النبوي الكريم، دعت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية إلى عقد ندوة علمية تحت عنوان «البيعة والخلافة في الإسلام»، استمرت أشغالها ابتداء من يوم 19 ذي الحجة 1405 حتى يوم 22 من نفس الشهر، بمدينة عيون الساقية الحمراء، وشارك فيها أزيد من مائة عالم من المغرب وبعض الدول الإسلامية.

ومن خلال البحوث والمناقشات أبرز العلماء، أنه لما وصلت الإنسانية منعطفا خطيرا من تاريخ حياتها واختل فيه تعايش البشر، فتعقدت المشاكل وانحدر الإنسان في متاهات التخلف، من الله على الإنسانية ببزوغ شمس الحق التي صحت دياجير الظلم، واقتلعت جذور رواسب التحكم الأعمى عن كل من أنعم الله عليهم باتباع تعاليم الشريعة الإسلامية والتفيىء بظلالها فصححت اعتقادهم وقومت تفكيرهم وهذبت سلوكهم، ونظمت تعاملهم في إطار علاقات مثالية، كان عقد البيعة مرجعها الأول، وسبيلها الأمثل، ومن خلاله ظلت الخلافة ـ ظل الله في الأرض تحرس القيم وتحمي الحقوق، وترعى المحارم وتصون الكرامة، وتقوم الحدود، وتنشر الدين، وتطبق العدل وتضمن المساواة إلى أن وصلت دولة الإسلام إلى تلك الوثبة الحضارية، التي أضاءت أشعتها كثيرا من ربوع العالم، فكانت عطاءاتها السخية وتطلعاتها المتجددة في إطار مؤسسة الخلافة التي سهرت على أن تجعل سلوك الحاكمين تطبيقا لنظرية الإسلام، وما تفرضه من واجبات متبادلة بقيت فيها البيعة حافزا على الإستجابة لسنة التطور وحرية الإنسان وأمن المجتمع من خلال ثوابت نظمت أساسا لخدمة مصلحته، ورعاية أمنه ووحدته وكرامته.

ولأهمية موضوع الندوة فقد أحاط العلماء بكل جوانب البيعة لغة واصطلاحا، وحكمها وتاريخها ونتائجها،

وآثارها، كما تدارسوا مؤسسة الخلافة والواجبات المتبادلة والتي تلقيها على كل من الحاكمين والمحكومين في دول الإسلام بصفة عامة، عندما كانت نظم الحكم في الإسلام لا تعرف إلا تلك المؤسسة، كما تدارسوا عقد البيعة في المغرب بصفة خاصة، وما وفرته الخلافة للمغاربة من وحدة الصف والعقيدة والمذهب، كانت ثمارها المحمودة حمى حوزة الوطن وأمن الإنسان، وتوفير كرامته، والعمل على استمرار حريته وحفظ سائر حقوقه.

كما تعرض العلماء لمبايعات أهل الصحراء المغربية عبر التاريخ القديم والحديث وما تشكل تلك المبايعات من تكذيب صارخ لكل من جادل أو سولت له نفسه أن يجادل في مغربية الصحراء وفي وحدة المغرب من طنجة إلى لكويرة.

ومن خلال ما وفرته هذه الندوة من دراسات إسلامية معمقة استقطبت كل جوانب موضوع نظام الحكم في الإسلام، فإن علماء المغرب يعلنون.

أولا : إن البيعة والخلافة أفضل مناهج الحكم سواء في القديم أو الحديث نظرا لتوفر الحرية الكاملة فيهما لكل أطراف الدولة.

ثانيا : يوصي علماء المغرب جميع الأجيال المغربية في الحاضر والمستقبل بتأصيل وتركيز نظام البيعة والخلافة في وطنهم والإخلاص له والتقيد بتعاليم الإسلام التي حث فيها على الطاعة لله ولرسوله ولأولى الأمر.

ثالثا : إن البيعة والخلافة التي استلهم منهما الدستور المغربي نظام الملكية الدستورية تجسد أن تمسك بلدنا بقيم الإسلام وتعاليمه وتحفظان للمغرب وحدته وكرامته وتمدان بلادنا بحكم شرعي وشعبي أصيل ولذلك وجب أن يكون التشبث بالإسلام عقيدة، والخلافة حكما، والوحدة الوطنية دولة وشعبا مبادئ تستمد قداستها من حرمة الإسلام، كما وجب أن تتمسك جميعا بحكم الله بالرجوع إلى تعاليمه وفق أحكام البيعة والمحافظة على مؤسسة الخلافة متسلسلة في الدوحة العلوية الشريفة إلى أن يرث الله الأرض، ومن اطار من الوحدة والحفاظ على المكتسبات التي حققتها مسيرة فتح القرآنية، وجدد التمسك بنتائجها قسم المسيرة.

رابعا : يبارك العلماء جهود وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية التي دعت إلى تنظيم هذه الندوة وإبراز خصائص نظام الحكم في الإسلام القائم على البيعة والخلافة كنموذج فريد يسمو فوق جميع الأنظمة.

«وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون».

صدق الله العظيم

وحرر بالعيون يوم الأحد 22 ذي الحجة عام 1405 موافق 8 شتنبر 1985

نصّ البرقية الموجّهة إلى صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني

لقد انتهت بفضل الله وحسن رعايتكم زوال اليوم ندوة البيعة والخلافة التي نظمتها وزارتكم في الأوقاف والشؤون الإسلامية ما بين السابع والتاسع من شتنبر بمدينة العيون كبرى حواضر الأقاليم الجنوبية لمملكتكم الشريفة.

ويشرف خديمكم أن ينهي إلى علم جلالتكم أن مداولات اللجنة واجتماعاتها دارت في جو من الجدية والمسؤولية والحماس وأنها استوفت أغراضها بما قدم فيها من بحوث ودراسات، ووقع فيها من مناقشات وتدخلات، أثرت الدراسات الإسلامية ودلت على عمق تفكير وحسن استنتاج العلماء الذين اسهموا فيها سواء كانوا من رعايا جلالتكم الشريفة أو من علماء بعض الأقطار الإفريقية الشقيقة.

ونرفع إلى علم الجلالة الشريفة أسماها الله إقبال سكان الأقاليم الجنوبية لمملكتكم الشريفة على المساهمة في الندوة بحضورهم ومشاركتهم في التدخلات والمناقشات وأمتاعهم لسائر الحاضرين بما كانوا ينشدون من الأشعار الفصيحة والأخرى الحسانية التي تفيض غيرة وإخلاصا وتعلقا بشخص جلالتكم واستمساك بعروة مغربيتهم الوثقى.

وقد كلفني الحاضرون أن أعبر لجلالتكم أدام الله علاءها وسناءها عن عظيم إخلاصهم وكبير احترامهم وإجلالهم وشديد تعلقهم بالعرش العلوي المجيد ومعاهدتهم لجلالتكم على السير خلفكم لإعلاء كلمة الله ونشر الدين الإسلامي الحنيف وتحقيق جميع الأعمال التي تخططونها وتسهرون على تنفيذها لخير شعبكم ووطنكم وخير الإسلام والمسلمين في كل مكان.

كما يشرفني أن أبلغ جلالتكم شكر جميع المشاركين في الندوة على كرم جلالتكم واريحيتها وما أحاطهم به عامل جلالتكم بالعيون ورئيس مجلسها البلدي وسائر ولاتكم وخدامكم الموظفين من عناية ورعاية وبذلوا من جهود لتوفير الراحة لهم ومهدوا عن سبل النجاح أشغال الندوة.

ويرفع الحاضرون أكف الضراعة إلى الله العلي العظيم أن يحفظ جلالتكم وينجح أعمالكم ويوفق مساعيكم لخير الدنيا والدين، ويقر عينكم بحياة ولي عهدكم الأمير سيدي محمد وشقيقه الأمير مولاي رشيد ويديم الأصر المتينة والرابطة القوية المكينة التي تربط بينكم وبين شعبكم الذي بايعكم بيعة صادقة وارتضاكم له خليفة وإماما.

والسلام على المقام العالي بالله ورحمة الله وبركاته.

خديمكم الوفي - عبد الكبير العلوي المدغري



الأستاذ محمد بن علي الكتاني



في مسيرة الفكر الإسلامي نقف دوما وباستمرار على علامات بارزة، تشد إليها الأنظار، وتجذب العقول والأفكار إلى قيمتها وفعاليتها في توطيد أركان المعرفة وتصحيح المسار، ومحاولة إزالة الشوائب التي تعترض الطريق، ومكافحة الانحراف العقلاني والأخلاقي بالطرق السليمة والعلاج الشافي...

ولعل في مقدمة هؤلاء الذين أثروا المعرفة، وحفضوا الكثير من النجاج في العديد من المجالات، يقف الغزالي صرحا شامخا وطودا ثابتا، لا تنال منه الأعاصير، ولا تزحزحه الأحداث، ولا تؤثر فيه الحملات، ذلك أن فكر الغزالي وما أحدثه من أثر بقولة البرهان وسلامة التعبير، لم يقف عند حدود حياته ومجال نشاطه، بل استمر مواكبا للتطور الفكري، ومؤثرا وفاعلا في كثير من الأحداث والمواقع إلى يومنا. ولا أدل على فاعليته واعتباره حجة الإسلام - خصوصاونحن نعيش هذه الصحوة العارمة - من أننا نحتفل بالذكرى المائوية التاسعة لوفاته، ونتعرض لوقائع حياته وأحداث زمانه، ونتائج فكره وما أحدثه من انقلاب في دنيا المعرفة... فلم يكن شخصا عاديا وباحثا بسيطا، ولكنه كان عملاقا وفذا في بابه، تناول بفكره الوقاد ما اتصل بالعلوم الإسلامية، وصاغ منها بقلمه المشتعل حرارة، مجموعة من المدارك التي كشفت عن الاسرار، وأماطت الحجب عن كثير من الحقائق، وبصرت بالمواقع السليمة التي يجب أن يرتكز عليها، كما نبهت ووضحت الهدي الذي ينبغي أن يقصد، والهدف الذي يجب أن يعمل الجميع من أجل الوصول إليه.

ويجب أن نعلم في البداية أن أبا حامد هذا ليس إلا نتيجة لزمانه، وهو في الحق ابن لبيئته ولعصره الملئ بكثير من التيارات، هذا العصر الذي ظهرت فيه الدولة السلجوقية، واستولت على مجموعة من الأقطار الإسلامية، بل تحكمت في الخلفاء العباسيين وجعلتهم آلة مطواعة تحركهم كيفما شاءت، وعاصر الغزالي أكثر ملوكهم، ويكفي أن نذكر من أفضال هاته الدولة تأسيس المدرسة النظامية التي كان لها

أكبر الأثر في توجيه الفيلسوف الإسلامي وتدعيم ثقافته، وفتح الطريق أمامه للمعرفة على اختلاف أصنافها، كما بلغ من تأثيرهم عليه أن ألف كتابه : «التبر المسبوك في نصيحة الملوك» لأحد ملوكهم محمد بن ملكشاه.

هذا العصر الذي تعاظم فيه نفوذ النزعة الباطنية، وتغلغلت دعوتهم في مجموعة من الأقطار بفضل نفوذ الفاطميين، وقد استطاعت هاته الدعوة بما ملكت من عناصر جيدة التدريب، قوية الإيمان بمبادئها، النفوذ إلى أعماق النفوس، بل وكسبت التأييد بواسطة المكر والدهاء، واختيار الأساليب التي تناسب كل طبقة، وتقسيم المعرفة إلى نوع غامض لا يتوصل إليه أولا تحصل عليه إلا النخبة وقد ستره الله فلا يعرف إلا من ارتضى وهو العلم الحقيقي، ونوع عادي بسيط لا يحقق نفعا ولا يوصل إلى غاية، وهو ما يتعامل معه من لا ينتحل مذهبهم !

هذا العصر أيضا الذي استغل فيه الصليبيون فرقة أهل الإسلام، وتنازع السلاجقة والفاطميين، فأوفدوا الحملات إلى الشرق، وتغلبوا على كثير من مدن آسيا الصغرى، وأسسوا إمارات والناس في غفلتهم يعمهون... وعموما فالعصر يموج ويموج، وهو عصر اضطراب وقلق، وخلافات سياسية ومذهبية ولا من منقذ، حتى أصبح الناس يرقبون في اهتمام وشغف التوفيق الذي اقترن باسم يوسف بن تاشفين، والذي أوقف المد الصليبي إلى حين : بل رأى فيه الغزالي الإمام الذي تمنى أن يراه، وأن يعيش في ظله وحماه، وفكر فعلا في القدوم إليه، لولا أنه وصله أنه انتقل إلى الرفيق الأعلى.

وكان لابد وهاته التيارات المتضاربة وهذه الأحداث المتلاطمة، أن يتأثر الغزالي بها عن قرب أو عن بعد، وأن ينفعل ويتمحور مع هذا العصر، في محاولة لزحزحة هذه الفوضى، ولوضع حد لهذا الاضطراب عن طريق مد فكري يزحزح البناء ويوقف الاختلال إلى حد ما.

ولكن من هو الغزالي هذا ؟ الذي ملأ الدنيا ضجيجا وصخبا، والذي تناوله الناس بين مبالغ في الثناء عليه، وبين جاحد لفضله منتقص لمكانه... وصفه التاج السبكي في طبقات الشافعية في بداية ترجمته الطويلة «بحجة الإسلام ومحجة الدين، جامع أشتات العلوم، والمبرز في المنقول منها والمفهوم، أخمل من القرناء كل خصم بلغ مبلغ السهى، وأخمد من نيران البدع كل ما لا تستطيع أيدي المجالدين مسها... إلى أن يقول : جاء والناس إلى رد فرية الفلاسفة أحوج من الظلماء بمصابيح السماء، فلم يزل يناضل عن الدين فحلاوة مقاله، ويحمي حوزة الدين ولا يلطخ بدم المعتدي حد نصاله» وطبيعي أن نغمة المحبة واضحة في هذه السطور، كذلك حين نوجه وجهتنا إلى الزبيدي الذي وضع شرحا مطولا للإحياء، نلمس دفاعه المستميت عنه، ونلاحظ تتبعه لادعاءات الخصوم وكيف كشف زيفها، ولكن بجانب هذا نقرأ هجوم العلامة المالكي المازري، ونحس بخصومة ابن رشد له، وبجرأة ابن تيمية عليه ورميه بالتناقض في كتبه وتسفيه أفكاره، ونتعجب من حرب ابن القيم ومبالغته في رد أفكاره، كما نلاحظ مجموعة وسطى على رأسها ابن العربي الذي قبل بعض أفكاره وتحلل من البعض الآخر... ولعل الذي أثار كل هذه الضجة هو جنوحه إلى التصوف، وتأليفه لكتاب إحياء علوم الدين الذي سنقف عنده بعض الشيء.

أبصر الغزالي (واسمه محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي والمكنى بأبي حامد) الحياة في مدينة طوس والتي تسمى اليوم مشهد، سنة 450 هـ 1058م في بيت فقر وخصاصة، وكان والده الأمي يرغب في أن ينشأ ولده متعلما فقيها، لكنه توفي قبل أن يحقق هذه الأمنية، ولذلك أوصى به وبأخيه إلى صديق متصوف من أهل الخير، وطلب منه أن يستنفذ في ذلك جميع ما يخلفه لهما، وفعلا تعهدهما هذا الصوفي حتى فني النزر اليسير الذي تركه الهالك، وإذ ذاك نصحهما بالتوجه إلى مدرسة تعينهما على القوت المادي والروحي، وكان في ذلك السعادة، واستجاب الله دعاء الوالد، فكان الغزالي أفقه حسب حكاية السبكي، وصاحب كرامات وإرشادات حسب رواية ابن خلكان.

وهكذا درس الغزالي أولا على الراذكاني، ثم انتقل إلى جرجان حيث تتلمذ على الإمام أبي نصر الإسماعيلي، ثم

آب إلى طوس يراجع ما تلقاه، وقال بنفسه عن هاته الفترة : حفظت في ثلاث سنوات جميع ما كنت علقته، وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد عن علمي، أي أنه لم يعد في حاجة إلى الكتب... وتحرك بعد في الاتجاه الذي قاده إلى الأمام، حين انتقل إلى نيسابور حيث كان إمام الحرمين أبو المعالي الجويني فارس المدرسة النظامية وبطل المعقول في عصره، فلازمه وجد في الاستفادة منه حتى توفي، وكان الجويني يفاخر به، وإن نقل إنه كان يغار منه أحيانا لما ظهر من نجابته ولاح من ذكائه... وعلى كل فقد قرأ الحكمة والفلسفة، وتبحر في مذاهب القوم، وتصدى للرد عليهم - بعد أن وعى فلسفة ابن رشد، واطلع على كتب أبي حيان التوحيدي، ورسائل إخوان الصفا، ويذكر في كتابه المنقذ من الضلال : إنه ابتدأ بدراسة علم الكلام قبل دراسة الفلسفة، ويتحدث عن ذلك ابتداء من صفحة 14 فيقول : «ثم ابتدأت بعلم الكلام فحصلته، وعقلته وطالعت كتب المحققين، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف، فصادفت علما وافيا بمقصوده غير واف بمقصودي... ويقول في ص 17 وعلمت يقينا أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم، من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أصل العلم، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة، فإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقا، ولم يكن في كتب المتكلمين إلا كلمات معقدة ظاهرة التناقض والفساد... ويزيد فيدعي أنه تعلم هذا بدون أستاذ، وأطلعه الله على ما فيه من خداع وتلبيس... وشن عليهم حملة شعواء بدون هوادة، وهذا يدل على أنه في هاته المرحلة لم يكن مجرد قارئ، ولكنه كان أكثر من واع وأكثر من ناقد، ولهذا تخطى المراحل، واستطاع أن يحل محل أستاذه الراحل، وأن يأخذ مكانته، وان تتعدى شهرته أماكن استقراره، وأن يلقى الوزير نظام الملك الذي أحضره إلى مجلسه، وأوصله بعلماء وقته ونخبة مجالسه، فظهر كالشمس الساطعة وأخفى غيره، مما جعل الوزير يوليه التدريس في المدرسة النظامية ببغداد، وذلك من سنة 484 هـ إلى 488 هـ حيث عاد بعدها إلى خراسان، والمجد يحيط به من كل جانب، إذا أفتى أفاد وأجاد، وإذا تحدث أخذ بألباب المستمعين، وقد تحدث معتزا بمواهبه في مقدمة كتابه المنقذ من الضلال فقال : ولم أزل منذ راهقت البلوغ قبل العشرين إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين، أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور، أتوغل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، واستكشف مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنيا إلا وأطلع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته، ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقا إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته... وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني، غريزة وفطرة من الله وضعنا في جبلتي، لا باختياري وحيلتي، حتى انحلت عني رابطة التقليد، وانحسرت عني العقائد الموروثة...

وواضح من هذه السطور أن صاحبنا كان قوي الشكيمة يتحرى الحقيقة ويبحث عنها، وأن عصره عصر حركة فلسفية نشيطة، وأنه لم يرد أن يكون مجرد متحرك مع التيار، بل ضد التيار وباستمرار..!

ولكن هل توقف هذا العقل الجبار عند هذا الحد ؟ وهل أخلد هذا العملاق إلى هذا المجد ؟ وهل اكتفى بإمامة خراسان ثم إمامة العراق، وتفرغ لما يتفرغ له الكثير من أصحاب الجاه العلمي..؟ أبدا فقد غمرته بعد كل هذا النجاح شكوك وشكوك، فهل اليقين في المحسوسات ؟ أو ليست هذه تستحق الثقة ؟ وهل الأمر للعقليات ؟ أو أن الثقة بالمحسوسات هي نفس الثقة بالعقليات ؟ وأن وراء إدراك العقل يوجد حاكم آخر وهكذا، ويدخل في شعاب وشعاب أفصح عنها في سطور كتابه «المنقذ من الضلال»، ويصل في النهاية إلى الحقيقة التي انكشفت له - حسب تعبيره - بنور قذفه الله في صدره.

ورغم أنه في هاته الحالات النفسية التي عاشها، يذكر الذين أرخوا له، أن قصد مكة للحج، وتوجه بعد ذلك إلى الشام ودرس في المسجد الأموي، ثم انتقل إلى بيت المقدس وعاد إلى الشام، ثم سافر إلى مصر وأقام في الأسكندرية، ثم عاد إلى بغداد وحدث بكتابه الإحياء، ثم رجع إلى طوس وألف بعض كتبه العلمية... إلا أن النتيجة الحتمية التي وصل إليها عن طريق المشاهدة والتجليات هي طريق الزهد والخلوة، واتخذ لنفسه (خانقاه) للصوفية، ومدرسة للمشتغلين بالفقه والعلم في جواره، ووزع وقته على وظائف الخير من ختم للقرآن ومجالسة لأرباب القلوب، والارتواء من أحواض الصوفية حتى لقي ربه يوم الاثنين 14 جمادى 505 هـ.

ورغم أن بعض المترجمين له يذكرون بعض الأحوال والمشاهدات التي تدل على مكاشفاته وعلى ما بلغ من صلاح بعد أن مر في المراحل كلها، إلا أننا لا نريد أن نعالج هذا الجانب، وحسبنا أننا وصلنا معه إلى المرحلة التي عرف فيها طريقه.

لقد تكلم الناس كثيرا حول هذه الشخصية الفذة، واهتم به فعلا الشرق والغرب على السواء، وقد اختلفوا هل كان متكلما أو أصوليا أو فيلسوفا أو متصوفا أو فقيها، لكن الواقع أنه كان جماع كل هذا أو أكثر، فهو الأصولي الأعظم - كما يقول عنه المرحوم الفاضل ابن عاشور - حيث ألف كتابه الذي أطر فيه الفقه الشافعي والمسمى بالمستصفى، وهو أيضا المتكلم الحكيم كما يلاحظ في كتابه الاقتصاد في الاعتقاد، وهو الصوفي المبدع كما يلمس هذا في الإحياء، وهو الفيلسوف المتفوق كما يبرهن على ذلك كتابه : تهافت الفلاسفة، وهو الفقيه المتمكن كما يرى في كتبه الثلاثة : البسيط والوسيط والوجيز، بل هو التلميذ الذي جسم علم إمام الحرمين في كتابه نهاية المطلب، وعلم أبي شجاع في كتابه عناية التقريب... ومع ذلك لازمته الحيرة وعانى من آلامها، وحاول أن يتغلب على ذلك بالتغرب إلى الله والتأليف، ولكنه كان يحسن رغم ذلك بفراغ روحي ولا يشعر بالطمأنينة، خصوصا وقد مر بأحوال نفسية خسيسة منذ عهد الصبا، فقد روى عنه أن كان منكرا لأحوال الصالحين ومقامات العارفين، وكان لا يخلو من شراسة واحتقار للناس، وكان لا ينفك يفكر في التطهير ومحاربة النفس، ولكن كيف السبيل ؟ وما هي الوسائل ؟ ولعل كتابه المنقذ من الضلال خير من يهدينا إلى الطريق، فهو يتحدث عن أصناف الطالبين حسب منهجه، ويحصر هذه الأصناف في أربعة :

1) المتكلمون ويدعوه أهل الرأي والنظر.

2) الباطنية : ويزعمون أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الامام المعصوم.

3) الفلاسفة ويعتقدون أنهم أهل المنصب والبرهان.

4) الصوفية : ويقولون إنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة...

وقد سلك كل هذه الطرق وعاشها وسبر أغوارها علّه يجد ضالته - فقال : عن علم الكلام أنه لم يحصل منه بالكلية، ما يمحي به ظلمات الحيرة في اختلاف الخلق، ولذلك توجه إلى الفلسفة التي درسها لينشر عيوبها على العالمين كما يقول الدكتور زكي مبارك، وبعد أن عدد أصحابها : من دهريين وطبيعيين والآهيين، وأقام علومها من : رياضية ومنطقية وطبيعية وآلهية وسياسية وخلقية، كفرهم جملة وتفصيلا من إخوان الصفا إلى الفارابي وابن سيناء، وتصدى لتزييف آرائهم، ودحض حججهم، ولم يذكرهم إلا بالسوء.

لا أحاول في هاته العجالة أن أتقصى أصناف هاته الردود، وأن أعالج حقها من باطلها : بل يكفي أن نلاحظ أن سبب ذيوع شهرة الغزالي يرجع إلى اهتمامه بالفلسفة، وأنه حاكى الفلاسفة، في منهجهم حين تحدث عن الأخلاق والآداب الاجتماعية في موسوعته الإحياء، ولست طبعا أسمه بالانتهازية بل أنزهه عن كل ذلك... وثلث بالباطنية واهتم بنحلتهم وحللها تحليلا شافيا - حسب ما يتجلى ذلك في كتابه المنقذ من الضلال الذي هو مرجعنا الأساسي في هذا الجانب بالذات - وأظهر فسادها وتوصل وبمنطق سليم إلى أنها بدعة ممقوتة، وكانت الخاتمة دراسة التصوف حيث

يقول : «لما فرغت من هذه العلوم، أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله... وكان العلم أيسر علي من العمل، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي والبسطامي... فظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالتذوق والحال وتبدل الصفات، وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة وحد الشبع، وبين أن يكون الشخص صحيحا وشبعان، وبين أن يعرف حد السكر وبين أن يكون سكرانا... ونبه على نيته في التدريس وأنه لم يكن خالصا لوجه الله، بل مبعثه طلب الجاه وانتشار الصيت، ووضح حالات الاضطراب التي أصابته وكيف كان يقدم رجلا ويؤخر أخرى، وكيف كان يعيش بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة، وكيف مال إلى الخلوة بعد الحج والسفر، وكيف كانت تدفعه العوائق ثم تنكشف له الحجب، ثم كيف علم أن الصوفية هم السابقون لطريق الله، خصوصا وأن أخلاقهم أزكى الأخلاق، بل جميع حركاتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوءة، وليس وراء نور النبوءة على وجه الأرض نور يستضاء به... وماذا يقول القائلون في طريق : طهارتها وأول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله، ومفتاحها استغراق القلب بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله !!

وواضح من هذه السطور أنه كرع من مناهل الصوفية حتى ارتوى، ثم اندفع يحدث الناس بأصول السلوك في كتبه المعروفة : الأربعين والميزان والإحياء، بل انغمر في هذا الطريق بحسه ووجدانه، واظهر أنه أضاع عمره هباء، حيث لم يبدأ به أول مرة، وبذلك زالت حيرته بعد أن وصل إلى طهارة الباطن، ولسنا هنا نناقش الوسائل التي استهدفها السادة الصوفية حين قطعوا العلائق مع الناس وزهدوا في الحياة، فذاك له مجاله الخاص، وإنما حسبنا أننا رصدنا انجذاب هذه الشخصية العلمية المقتدرة إلى هذا اللون من المعرفة الروحية، ونلاحظ هنا أنه رغم اعترافه من قوت القلوب، ورسالة القشيري، وورع المزني، وزهد المحاسبي، وإشراقات الجنيد، فإنه لم يغفل أثر شيخ يأخذ بيده، ويصقل إحساسه، ويشذب حواشيه، فكان هناك يوسف النساج الذي كانت الصلة به بداية اليقين، وكذا صحبته للإمام الزاهد أبي عبد الله الفارقدي، وهكذا لم يصل إلا بعد أن ارتاض كل الرياضات، وصار كما جاء في طبقات الشافعية نقلا عن عبد الغفار الفارسي : (ما كان يظنه به بعض الناس تخلفا وتمرسا، طبعا وتخلقا وذلك أثر السعادة المقدرة له من الله ص 109 ج 4).

على أن رغم هذا الترقي وهذه المكاشفات ظل في إطار الشريعة وحماها، ولم يقرب من طوائف الحلول والاتحاد، بل نقل الذين ترجموا له، ان خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى ومطالعة الصحيحين، ويقول التاج السبكي : ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن بيسير من الأيام... وعموما فقد ظل تصوفه متصلا بالشريعة غير منفصل عنها، ورغم الالهامات والتصريحات والإشارات، لم يحاول أن يجعل لنفسه مقاما، ولا أن يهيئ مجلسا للمشيخة، ولا أن يجمع المريدين، وإنما اعتكف لتدوين المبادئ الصوفية الصافية، ولشرح أحوال القلب الإنساني الذي هو محل التربية، يبين علله وأمراضه، ويعالج أدواءه وإسقامه، وصاغ هذا العلاج بأسلوب مشرق وواضح، وذلل صعوبته ليكون في أيدي كل الطالبين دون قصد أو تعيين... وإن كنا لا ننكر دور المشيخة والطرق التي تنتهج في هذا السبيل سواء في الشيخ أو المريد، ونميل إلى رأي الشيخ ابن عباد النفزي دفين فاس وخطيب القرويين، الذي كتب به إلى الإمام النظار أبي إسحاق الشاطبي، وفصل فيه بين شيخ التربية والتعليم، وشيخ التعليم ومجال كل واحد، ومتى يطلب شيخ التربية، ومتى لا يطلب، واعتماد قدماء الصوفية على شيخ التعليم، واعتماد المتأخرين منهم على شيخ التربية... وقد ساق رأيه هذا في كتابه الرسائل الصغرى... وعموما فللقوم قواعد

واصطلاحات لا يرغمون أحدا عليها.

وأعظم أثر صوفي أخلاقي تركه الغزالي هو الإحياء، ولابد من وقفة صغيرة عنده، نحاول بواسطتها أن نتعرف على هذا الجهد الذي أثار ضجة في أوساط علماء الشريعة، وسيظل نبراسا يستضاء به رغم ما قوبل به من نقد وملاحظات، ورغم أن الغزالي رزق التوفيق في التأليف، وظهر فكره في كثير من الانتاجات العلمية، إلا أن الإحياء يبرز من بينها عملاقا يحجب ما عداه، ورغم أن كتبه في الجانب الأخلاقي لا تقف عند الإحياء، بل كتب ميزان العلم، والأربعين التي هي جزء من كتابه جواهر القرآن، ومنهاج العابدين، إلا أن الإحياء يظل في المقدمة كما أشرنا.

في أواخر القرن الخامس الهجري وحين جنح الغزالي إلى العزلة، طلع على الناس بهذا الكتاب، فكان عجبا في بابه، ما تناوله عالم الا وجد فيه علمه ورأى بواسطته نفسه، أسسه على أربعة أرباع، ربع «للعبادات تناول فيه العلم، وقواعد العقائد، واسرار العبادات من طهارة وصلاة... وآداب تلاوة القرآن، والاذكار والدعوات وترتيب الأوراد، وربع للعادات تناول فيه آداب الأكل والنكاح والكسب والصحة والمعاشرة والعزلة وآداب السفر، والسماع، والوجد، والأمر بالمعروف، وآداب المعيشة، وربع للمهلكات ووضح فيه عجائب القلب، ورياضة النفس، وآفات الشهوات، وآفة اللسان، والغضب والحسد، والعجب والغرور، وذم المال، وربع للمنجيات وحلل فيه التوبة والصبر والشكر والخوف والرجاء والفقر والزهد والتوحيد والتوكل والمحبة والشوق والصدق والإخلاص، والمراقبة والمحاسبة وسوى ذلك مما يسلم به الشخص ويتحرر من الآفات والنكبات.

ورغم أنه وسم كتابه بكثير من المميزات، وحقق به فوزا، وسد به ثغرات، ونقى هذا العلم مما حاول الكثير إدخاله فيه، فإن بمجرد ظهوره ثارت الحروب بين صاحبه ومجموعة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين وحتى بعض الصوفية، حيث أغلق عليهم الباب وسد كل المنافذ، ولأنه حاول أن يقوم هذا العلم بطريقته الخاصة، وأن يجدد الأسس التي تعارف عليها الناس شرقا وغربا، فكان من الطبيعي أن تكون هذه الهجمات، وأن يترصد كل واحد الهفوات، وأن يجاهدوا لإسقاط هذا الصرح... فلاحظ الإمام المازري ما لاحظ حسب ما جاء في الفصل الذي عقده السبكي في الطبقات وعفونه بذكر كلام الطاعنين عليه (ص 122 ج 4) وخلاصته أنه ناقل فقط لمذاهب الموحدين والفلاسفة وأصحاب الإشارات، وأنه قرأ الفلسفة قبل استبحاره في أصول الدين، وأن أحاديث الأحياء ضعيفة، وأنه لا ينقل عن مالك والشافعي، وأنه يستحسن قص الأظافر ابتداء من السبابة... وحمل الطرطوشي بدوره حملة شعواء وقال عنه : إنه سقط على أم رأسه حين تكلم في علم الأحوال ومرامز الصوفية، ولا يهمني رد هذا الكلام فقد تكفل بذلك التاج السبكي، بل الذي يهمني أن هذا ليس هو الهجوم الوحيد، بل نقل الزبيدي شارح الاحياء أنهم أنكروا عليه قوله : ليس في الإمكان أبدع مما كان، وأنكروا عليه اباحته للصوفية تمزيق ثيابهم عند غلبة الحال، وأنكروا عليه أن المقصود بالرياضة تفريغ القلب ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والجلوس في الظلام، فإن لم يكن ظلام لف رأسه في جيبه ! وأنكروا عليه قبوله لقولة الجنيد : إذا كان الأولاد عقوبة شهوة الحلال، فما قولكم في عقوبة شهوة الحرام، وأنكروا عليه نظرية الصوفية في التوكل. وكان هجوم العلامة ابن القيم وشيخه ابن تيمية فوق التقدير. كما كان آخر المطاف اتهامه بأنه قليل الخبرة بالنحو...

والمتأمل يجد أن الملاحظات لا تخرج عن : 1) تساهله في إيراد أحاديث ضعيفة أو موضوعة 2) إثبات طائفة من الحقائق بواسطة ما يدعى من الفيض أو الإشراق الذي لا يتأتى إلا بالتجربة عند أصحابه وبالكون معهم حسب تعبيرهم.

أما النقطة الأولى فتكفل بها الحافظ زين الدين العراقي، وأكمل المهمة التاج السبكي في ذيل ترجمة الغزالي، وحصر بالفعل مجموعة من الأحاديث لم يعثر على إسناد صحيح لها (ص 145 ج 4).

أما النقطة الثانية فلم يصل الناس إلى حل لإشكاليتها

إلى الآن، وما انفك الصراع قائما بين الذين خلطوا التصوف بالحكمة الإشراقية وصدرت عنهم مقالات منكرة منذ الحلاج إلى ابن عربي ومن تلاهم، ولعل الغزالي تنبه إلى عدم فهم المعارضين له، فكتب كتابه : الاملاء عن إشكالات الأحياء، لكنه بالفعل لم يحل الإشكال، واعتقد أن التوفيق بين علم الظاهر والباطن يتعذر، لاختلاف المشارب وتنوع السبل، وإن كان التصوف شهد طفرة على يد أبي مدين والشاذلي ومن تلاهم شرقا وغربا، حيث تعلق بالأصول الكلامية، وتغذى بالشريعة، وإن كنا لا ننكر أن بعض الرواسب ظلت متحكمة.

لا أريد أن أتعرض لمحنة الأحياء في المغرب، ولا إلى إحراقه، ولا إلى الذي قام بذلك أو تسبب فيه، ولا إلى الخرافات التي صحبت ذلك، ولا إلى تراجع ابن حرزهم، فذاك يتطلب بحثا طويلا وعريضا، وعلى القارئ أن يرجع إلى الأعداد القديمة من هذه المجلة الأصيلة مجلة دعوة الحق، وإنما حسبي أن الأحياء رغم هاته الضجة لقي القبول والرضا من طوائف، خصوصا بعد أن وضع العلامة الزبيدي شرحه الضخم عليه، واشتغل الناس به، واختصره من اختصره، ودافع عنه من دافع كالشعراني وابن عربي، بل نقل الدكتور زكي مبارك في كتابه الأخلاق عند الغزالي أن هناك من كان يحفظ الأحياء عن ظهر قلب، وأن هناك من ينسخه تقربا إلى الله، وأن هناك من اتخذه وردا.

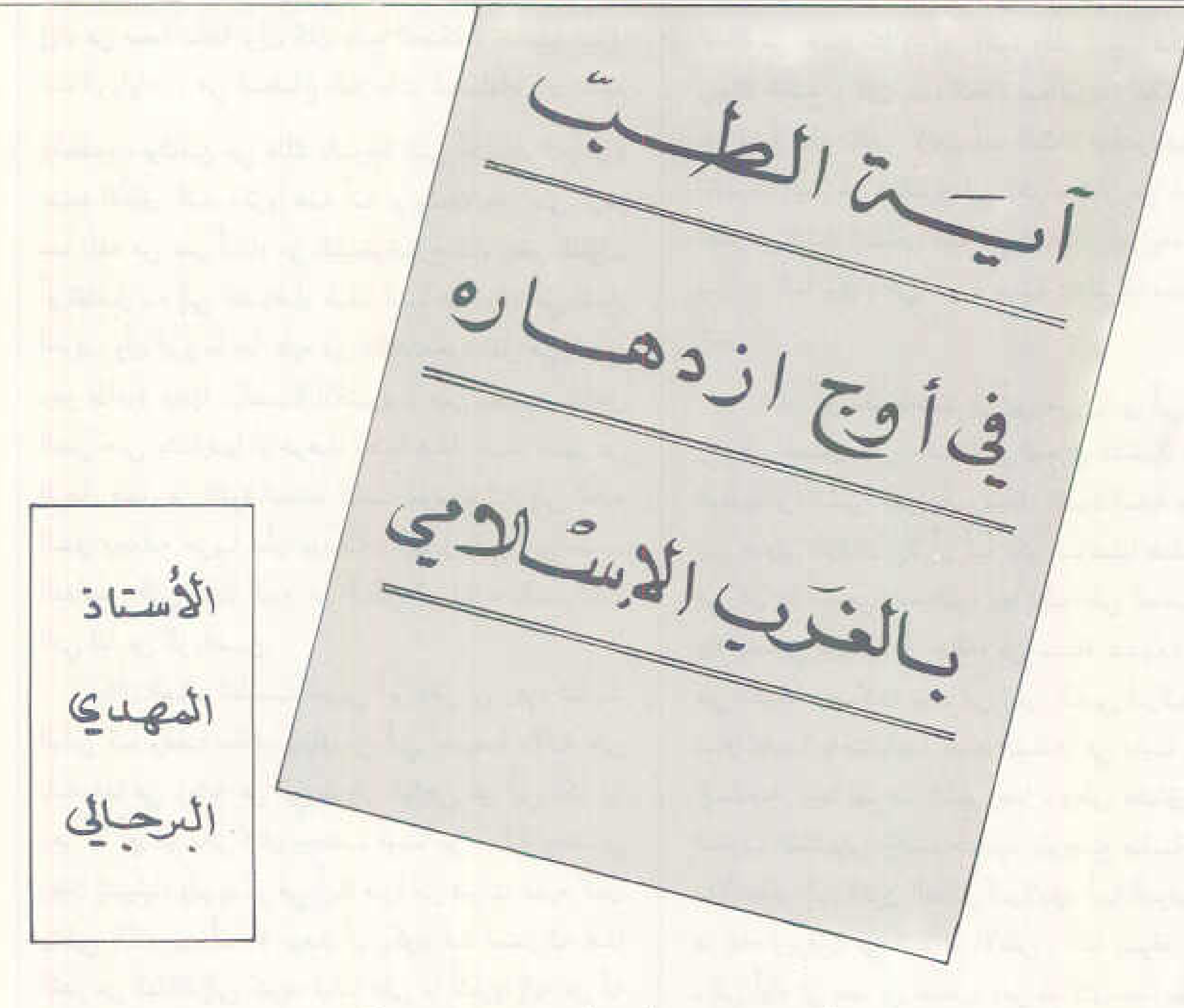
وامتد الإعجاب به حتى إلى المغرب، حيث أفسح العلماء له مجالا في دراستهم، وصدروا به مكتباتهم، وتسرب هذا الإعجاب حتى إلى الباحثين الأجانب فدرسوه، وانتقدوه وترجموه بل وتأثروا به.

رحم الله الغزالي الذي كان فذا في بابه، والذي استطاع في الظرف القصير الذي عاشه في هاته الدنيا أن يحرك الساكن، وأن يترك دويا في كل مكان وتلك سمة العظمة، ولا نريد أن نرفعه فوق قدره، أو ننزله من فوق صرحه، ولكننا لا نغفل أن التصوف لعب دورا في حياة المسلمين، وأنه حاول استئصال الغرائز الشريرة عن طريق المراقبة والرياضة النفسية، والغزالي ونحن نحيي ذكراه في هاته الأيام بناء على رغبة الأسيكو، أعطاه الله نوعا من اليقين، ورزقه هذا الاشعاع المستمر، واستطاع بهذه المواهب أن يتخطى الصعاب، وأن ينشر على العالمين أفكاره وآراءه التي هي في نظره أفكار الإسلام وتعاليم الشريعة، وعلى الناس أن يعترفوا بفضله وعلى قدر ما يستطيعون.

فاس : محمد بن علي الكتاني الحسني



ابن زُهْر الحَفيدُ



معتدل القامة، صحيح البنية، قوي الأعضاء، تخامره إمارات تنم عن بعض التقدم في العمر إلا أن الإمارات لا تشير - في شيء - إلى عوارض ضعف من قبيل ضعف الشيخوخة أو خور عزم، أو فتور في النشاط، مثلما يلحظ أحيانا، فيمن تقدمت بهم الحياة، وعاشوها لأمد طويل، أن الرجل قد شارف على الشيخوخة في حكم الواقع، ولكن مظاهر الشيخوخة لم تكن بادية عليه، مثلما يجب أن تبدو، بل أنها كانت أخفى من أن تترآى لعين، إلا إذا كانت عين فاحص مدقق، معني بما يفحصه ويستطلعه، أما الملقي نظرة عابرة على الرجل، فحري به أن يتوهمه شبه شاب، أو يخاله - على الأقل - في عنفوان الكهولة، بكل ما يلابس هيئة الشبان أو الكهول العاديين من مضاء في الإرادة وحرارة في اتخاذ المبادرة، وطاقة على العمل والتنفيذ، ووجه أغر اللون، لامع الملامح، حاد النظرات، يشير إلى

ما ينطوي عليه الشخص كهذا من ممكنات حيوية، ودفق الموارد النابعة منها الحيوية. كان الرجل طبيبا معنيا بالحفاظ على صحة غيره، وتوفير العوامل والظروف الملائمة لاستمرار الصحة وتعزيز عواملها. وكان في ذاته هو المثال الذي يرغب الناس عادة أن يكونوه، إذ ينشدون عافية عن طريق العلاجات أو التطبيب، لم تكن العقاقير، على ما يظهر - سبيله الرئيسي إلى اكتساب ما كان مكتسبا إياه من صحة سابغة وإن كان واسع الحنكة - حسبما تسوق عنه الروايات - في اصطناع العلاجات المختلفة، ذات النفع

والجدوى، والتفنن في ذلك بالدرجة التي أطارت له شهرة بعيدة الأفاق، لقد ذكروا عنه أنه لم يشك داء، على الرغم مما بلغه من عمر أدناه من الشيخوخة حسب بعض النقول، أو تغلغل به إلى اقصاها، طبقا لما هو وارد في نقول أخرى، وأن أبرز ما بدأ عليه من ذلك، مجرد ثقل في السمع، وهو ظاهرة عادية بالنسبة للكثيرين، ممن يطوون مراحل العمر حتى يشارفوا أواخرها، وعدا هذا، فقد اشتهر عن الرجل فيض من القوة البدنية كانت موفورة له، إلى الحد الذي يجعله حريا بأن يوصف بالبطل الرياضي حسب المقاييس التي لدينا اليوم عن البطل الرياضي، والمدركات التي لنا عن الرياضيين.

كان العالم الطبيب العربي أبو بكر بن زهر، شديد الباس كما وصف بذلك، وساق ابن أبي أصيبعة دلالة على بأسه هذا في رواية عن أبي مروان الباجي عن أبي بكر بن زهر أنه أي أبو بكر كان يجذب قوسا من مائة وخمسين رطلا إشبيليا، ولم يذكر في أية فترة من فترات عمره كان يتطيع ذلك، بيد أنه لا يبعد أن يكون قد استمر له هذا القدر من الطاقة إلى كبره، قياسا على ما أشاروا إليه من أنه كان في كمال النضارة والقوة، وهو بالغ من السن مبلغا. وقد يتسرب إلى الرجل - وهو هكذا - قوة واقتدارا - بعض الشعور بالزهو والخيلاء. لكن الذي عرف عن صاحبنا، كما تؤكده النصوص الدالة عليه، أنه كان على عكس قدرته البدنية - لينا جدا من حيث خلقه وسلوكه ومعاملاته. وإذا ما استعملنا العبارات التي أطلقها صاحب طبقات الأطباء في حقه. فقد كان أبو بكر صائب الرأي، حسن المعاملة، جيد التدبير، متين الديانة، ملازما لأحكام الشرع، قوي النفس، محبا للخير، مهيبا أديبا حسيبا، إلى غير هذا، مما أغدقه عليه من نعوت، وساقه من قصص دالة في عمومها - على صحة هذه النعوت في نفس الرجل، وامتزاجها بأخلاقيته. لقد كان صاحبنا - فيما كان عليه - شديد الصلابة بدنيا، كثير اللين والنعومة في مزاجه، فكان بهذه الحالة من حسن التلاؤم بين القوة واللين، بين صلابة الجسم، ودماثة الطبع - كان بهذه الحالة لمعاصريه، كظاهرة إنسانية جد قيمة، وقد تلقف الاتون بعد ذلك - عناصر تقييم كهذه، انحدرت إليهم من معاصري ابن زهر، فكان من ذلك، هذا القدر من الثناء المفاض عليه في المصادر العربية، وهو ثناء يبرزه - كما نرى - في صورة بدنية وخلقية، معجبة بقدر كبير.

عاش أبو بكر محمد بن أبي مروان بن أبي العلاء بن زهر في غضون القرن السادس الهجري متنقلا فيما بين المغرب والأندلس، مبرزا في مجال الحياة العامة هنا وهناك بين عدوتي الزقاق، إلا أن أبا بكر صاحبنا هذا، لم يكن في كل ما أتاه في العدوتين، وما ناله على الصعيد العلمي والاجتماعي فيهما - إلا حلقة، من سلسلة عديدة الحلقات هي سلسلة رجالات بيت ابن زهر، الذين أدركوا جميعهم شأوا علميا واجتماعيا بعيد المدى في دنيا الأندلس الإسلامية، ونما لهم هذا الشأو أيضا - وعلى نطاق واسع في المغرب اللمتوني والموحدي. وترجع صلة بني زهر بالأندلس إلى القرن العاشر الميلادي، أما أصولهم فعربية عريقة، ويرقون في انتمائهم الأعلى - كما يسوقه ابن الأبار - إلى أياد بن معد بن عدنان، ومن ثم كان مما يطلق عليهم من نعوت نعت الأيادي، يذكره لهم من يراعي قمة الانتساب الذي إليه يرجعون. لكن هذا النعت لا يعرفهم بطبيعة الحال إلا بصورة محدودة، ويبقى التعريف بـ «ابن زهر» أساس شهرتهم على الاطلاق، و«زهر» هذا الذي يستمدون منه هذه الصفة، هو جدهم الوارد على الأندلس والمؤسس لأصالة بيتهم هناك، وقد كان ورود الجد هذا

على العدوة في غضون القرن العاشر الميلادي كما سلف ذكره. آتيا إليها من شبه العربية، ومستقرا في الشرق الأندلسي، حيث انتشرت ذريته من هناك، حتى إشبيلية في غرب الأندلس. وقد كانت الثقافة السائدة عند وجوه هذا البيت، هي الثقافة الدينية والأدبية المتعارف عليها عادة في أساس التثقيف العام في البيئة الإسلامية بالأندلس وغيرها، ثم ظهرت في بيتهم بعد ذلك صناعة الطب، وتسلسلت عندهم، حتى صاروا أعلاما في فن المعالجة والتطبيب وامتدت شهرتهم بذلك، إلى إفريقيا، وأوروبا، حيث ما فتئت المراجع العلمية الأوروبية تقر لهم في هذا الشأن بالكثير، وتقرهم كرواد في مضمار التطور الطبي العالمي.

وقد كان من أوائل من اتجه فيهم هذا الاتجاه، الاتجاه إلى معالجة أمر الطب، عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر، الذي عرف برحلاته العلمية إلى القيروان والقاهرة، وبصلاته بالأمير مجاهد أمير دينية بالأندلس.

وما كاد القرن الخامس يتقدم قليلا، حتى تألق في بيت بني زهر نجم عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر، والد المترجم له، وقد امتزجت حياة الوالد الاجتماعية والعلمية والمهنية بحياة ابنه بعد ذلك، حتى لتعد سيرتهما - بحق - بمثابة سيرة واحدة، ويبدو من التعجل، نتيجة ذلك - التفريق بين وقائع حياة أحدهما ووقائع حياة الآخر.

فقد اندرج كلاهما في مصير ثقافي واحد، ومارسا نفس المهنة طيلة حياتهما، وارتبط نشاطهما معا بخدمة الدولة المغربية، حتى النهاية، نهاية كل منهما، وأبديا من ضروب المهارة والنبوغ فيما زاولاه من أعمال، ما أكسبهما - بنفس المقدار - بعد صيت، وجميل مقام.

وقد ازداد عبد الملك والد المترجم بمدينة إشبيلية سنة 484، وبها ازداد ولده أبو بكر محمد بعد ذلك. وعرف عبد الملك الوالد بنبوغه في الدين والأدب، وحذاقته في الفنون المتعلقة بذلك، وكان الرجل معاصرا للفيلسوف. ابن رشد فتوطدت بينهما صلة واسعة، وكانت هذه الصلة - كما يظهر - واقعة في إطار الصداقة الجامعة بين امرئ وآخر، ولم تكن من نوع العلاقة بين تلميذ وأستاذه، إذ لم يتأكد أن ابن زهر الوالد، تلقى من ابن رشد ما يتلقاه المتعلم من معلم. على أن عامل الثقافة كان عاملا حيا في علاقتهما تلك. ومن ظواهر ذلك، ما يعلم من ثناء ابن رشد على بعض مؤلفات ابن زهر الوالد، الأمر الذي يدرك منه أن الأخير، ربما كان يعرض أعماله أو بعض أعماله على الأول، ومن ذلك، كانت تتاح لابن رشد - حسب هذا الظن - أن يكون عن نشاطات صاحبه نظريات معينة.

وفي هذه البيئة الحافلة بالاهتمامات العلمية والثقافية، نشأ المترجم له أبو بكر، ابن زهر وهو أحد أبناء عبد الملك الذي أشرنا إليه، نشأ الطفل في هذه البيئة وتكونت عقليته العلمية وتحددت وجهته في الطب وبنو زهر، لا يتخلفون عنه منذ أمد طويل. وقد برز فيه ابن زهر الوالد سابقيه، فكان من المعقول جدا أن يتخرج الابن على غرار الوالد، ويتجه وجهته الطبية بالذات. على أن الوالد لم يكن قد هيأ لابنه أبي بكر وسيلة التوجيه والتكوين فقط، لكي يصير مثله من أهل فن التطبيب، بل كان قد عبد له السبيل، إلى ولوج أرفع المقامات الاجتماعية، وفتح له من الآفاق في ذلك، ما أفضى به لأن يصير وجها بارزا من وجوه المجتمع، وعلما مرموقا يشار إليه، وقد كان المغرب في القرن السادس الهجري، أفقا متفتحا جدا، وعلى أوسع نطاق لاستيعاب ظواهر النبوغ، وإذكاء إمكانياتها البادية هنا أو هناك، ومن ذلك، وجد فيه ابن زهر الوالد مصيره الجديد واللامع، ووجد أبو بكر صاحبنا نفس المصير اللامع الذي لقيه والده في هذه البلاد.

☆ ☆ ☆

كانت إشبيلية المعتمد ابن عباد قد انتهت منذ عهد غير يسير، عندما نبه ذكر ابن زهر الوالد والحفيد، وتفتحت لهما آفاق المغرب لتستقبلهما بالاحضان. كانت الأندلس آنئذ قد أصبحت متفتحة على مغرب لمتونة، حاظية بحمايته السياسية والعسكرية لها، ومتخلصة - كنتيجة لذلك - من الجو السياسي الطوائفي الذي ران عليها من قبل - ومن التهديد الافرنجي الآتي من الشمال، وقد أفادت

العدوتان كثيرا من اتصالهما الإيجابي إحداهما بالأخرى، وكان من ألمع مظاهر هذا التواصل تدفق علماء وأدباء الأندلس على المغرب. وضمن ذلك كانت هجرة ابن زهر وابنه أبي بكر إلى هذه العدوة، حيث تبرزهما الرواية التي تسوقها المصادر العربية، عاملين في خدمة بلاط على ابن يوسف بن تاشفين، ومستمرين في خدمته تلك، إلى آخر عهد الملثمين، والرواية الموردة بهذا الشأن، مقتضبة جدا، إلى درجة الغموض، كشأن عدد من روايات التي قد يرجع إليها الباحث في المصادر القديمة وبسبب هذا الاقتضاب لا يتمكن المرء من تكوين استنتاجات كافية عن الظروف التي أحاطت بهجرة ابن زهر وابنه إلى المغرب، والتدرجات التي أدت بهما إلى خدمة بلاط على بن يوسف، ثم ما كان من حياتهما العلمية بعد ذلك، على وجه التدقيق، أثناء فترة علمهما بالمغرب، وما انتجاه خلال ذلك متعلقا بمهنتهما التطبيبية على وجه الخصوص، وإذا كانت ظروف ابن زهر وابنه في هذه الفترة من إقامتهما بالمغرب غير واضحة بكل ما يجب من وضوح، فإن الذي تتضافر الروايات على

تأكيده، هو أنهما قد نالا عند عبد المومن بن علي الموحدي ـ عند ما آل الأمر إليه ـ درجة مكينة، استمرت إلى وفاة ابن زهر الوالد وابنه بعد ذلك، وقد أحرز ابن زهر ـ فضلا عن مكانته هذه ـ على صفة وزير وحسنت أحواله، بقدر ما ازداد نشاطه العلمي، ونمت مقدرته، وقد وضع بعض المصنفات من بينها كتاب الاقتصاد، وقد نقلت كتاباته بعد إلى اللاتينية، وعلاوة على ما كتب، فقد برز ابن زهر الوالد في مجال التطبيق العملي المتعلق بفنه، ومن ذلك نجاحاته في أمراض الغشاء القلبي، وممارسته الموفقة لتقنية التغذية الصناعية عن طريق المرئ أو الشرج، وقد ذكر في حقه أنه كان أول عربي ارتاد ميدان جراحة الوريد الأبهر، وهو شيء لم يسبق إليه. وتوفي ابن زهر الوالد وهو يزاول خدمة دولة عبد المومن وينعم بحسن الحال في ظلال المغرب الموحدي الفتي. وكان ابنه أبو بكر حفيد مترجمنا، يعمل هو الآخر في نفس الظروف، محرزا على نفس الميزات التي كان يحظى بها والده. ويظهر مما تورده النصوص

بهذا الصدد، أنه كان قبل وفاة أبيه قد برهن عن نبوغ قوي في مضمار التطبيب، حتى ليقال إنه كان يستدرك على والده نفسه بعض الأخطاء الطبية، مع ما كان لوالده من طول الباع في الطب معرفة وتطبيقا، ويسوقون بهذا الصدد قصة مفادها : أن ابن زهر الوالد، كان قد حضر لمخدومه عبد المومن بن علي، دواء مسهلا، فلما علم أبو بكر المترجم له، وبطبيعة تركيب ذلك الدواء، تدخل في الأمر، واعترض على عبد المومن أن يتناوله، باعتبار أنه غير ملائم، واقترح استبداله بتركيب علاجي آخر غيره، ولم يسع الوالد ـ الذي ركب الدواء ـ إلا أن يصادق على ملاحظات ابنه، ويقر بصوابها، إذ أنه أدرك أنها صائبة فعلا.

استمر أبو بكر الحفيد في المغرب بعد وفاة والده، وقد قدر عبد المومن بن علي مزايا الابن كتقديره لمزايا الأب الراحل، ومن ثم، بقي أبو بكر ينعم في بلاط عبد المومن بكل ما كان ينعم به والده من جاه ويسر حال، حتى كانت وفاة عبد المومن، وخلافة أبي يعقوب يوسف ابنه. ولم يحدث في وضعية أبي بكر الحفيد تغيير ما، كنتيجة لذلك، بل أن صاحبنا قد استمر بكل ما كان قائما به من خدمة البلاط الموحدي، وتواصلت له كل الحظوظ الموفورة له في الأصل. ثم جاءت بعد ذلك دولة أبي يوسف يعقوب الملقب بالمنصور، فاتسعت الآفاق بذلك أمام ابن زهر الحفيد، وازدادت مكانته توطدا في البلاط، وبموازاة ذلك، اتسعت له السبل للتدليل على براعته في فن التطبيب، واكتساب المزيد من إعجاب المنصور به نتيجة لذلك، ومما تورده الروايات عنه من هذا، أنه أشار على المنصور بمكان في الأندلس قريب من إشبيلية، يقيم فيه للراحة، وطلب العافية، وقد ابتنى المنصور في المكان حصن الفرج، الذي كان يأوي إليه في الكثير من الأحيان عند حلوله بالأندلس، وكان هواء المنطقة الواقع فيها الحصن من الجودة بحيث تخزن الحنطة هناك لمدى ثمانين حولا، ولا يصيبها شيء من عوامل الفساد، وهذا ما لاحظه العالم الطبيب ابن زهر، وتأكد منه، فكان من ذلك ما أشار به على المنصور من إقامة حصن الفرج في المنطقة. وقد

داب المترجم ـ إلى ذلك ـ على تحضير المركبات العلاجية المختلفة لمخدومه، ومن ذلك الترياق الخمسيني الذي كان من بين أشهر ما توصل إليه بهذا الشأن وتدل نصيحته بموقع حصن الفرج وتحضيره للمركبات كالترياق الذي ذكرنا، يدل ذلك على أنه كان يعنى في خطته التطبيبية بجانبي الوقاية والعلاج معا، والمظنون أنه كان له مذهب في ذلك، وإن كنا لا نستطيع أن نتبين تفاصيل مذهبه بالنظر لندرة ما كتبه، أو ما تخلف عنه مما قد يكون كتب.

وقد برز في حياة ابن زهر الحفيد بالمغرب، أخته وابنة أخته كذلك، ومجال بروزهما هنا كان أيضا مهنة التطبيب، وقد مارستاها في نفس الظروف ببلاط المنصور الموحدي، حيث كانتا تشتغلان في التوليد، ويذكر عنهما، أنهما قد نالتا في ميدانهما هذا حظوة كبيرة، حتى أن المنصور كان لا يقبل أن يتولى التوليد عند أهله، إلا هما، وبدرجة أساسية، ولا تعلم بالضبط ظروف قدوم الطبيبتين الأندلسيتين إلى المغرب، لكن الذي يبدو مقبولا أنهما صحبتا ابن زهر الوالد عند قدومه للخدمة في عهد المرابطين، أو أنه استقدمهما فيما بعد، عند تمكنه من احتلال المكانة الوطيدة التي صارت له على عهد الموحدين، أما منشأ براعتهما في التوليد، فلا شك أنه كان للأب أثر مهم في الأمر، ومن ذلك كله، كانت مقاليد التطبيب وما له صلة به في البلاط الموحدي خلال القرن السادس، بين أيدي بني زهر، سواء منهم الذكور أو الأناث.

كانت وفاة أبي بكر بن زهر الحفيد بمدينة مراكش أثناء سنة 596 وقد تركت وفاته في نفس المنصور اهتماما بالغا، يتجلى ذلك في أنه تولى الصلاة عليه بنفسه، قبل أن يوارى في التراب بمقابر الشيوخ، وكانت حينئذ لم تتعد الستين. إلا أن هناك من يذهب إلى أن المترجم له قد عاش أبعد من ذلك، حتى عاصر أبا عبد الله محمد الناصر الموحدي، ومات في أوائل دولته، وقد خلف الحفيد بعد وفاته ذرية محدودة العدد، بيد أن عقبه ـ كما يظهر ـ لم يبرز تبريزه في الطب والثقافة عموما، مع أن ذلك كان متسلسلا في بني زهر كما سلف. وظاهرة أخرى تتعلق بالرجل أيضا، وهي أنه لم يترك في ميدان تخصصه ـ وهو الطب ـ آثارا مكتوبة ذات بال إلا ما كان مما أوردته دائرة المعارف الإسلامية، من كونه وضع بحثا في طب العيون، ولعل له مثل هذا آثارا مكتوبة، غير أنها محدودة جدا، ويبرر محدوديتها ما يعرف من أن الحفيد كان معنيا بالتجربة والتطبيق، أكثر مما كان يهتم بالتدوين والتصنيف، ولا يجب أن يدرك من هذا، أن صاحبنا، كان غير ذي نزعة إلى الكتابة إطلاقا، إنما كانت له شؤون وشجون أخرى غير الطب، تستوعب وقته ـ إذ يكتب شيئا، وكان عمل الشعر المجال الأثير إليه، يؤلف فيه النماذج اللطيفة، وينشرها في مجتمعه، حتى دخلت أعماله الأدبية التي وضعها على شكل موشحات ـ ميدان الغناء، وذاعت شهرته بهذا أديبا فنانا، مثلما انتشرت شهرته طبيبا نطاسيا.

إن التطبيب ومعاناة الشعر، لم يصرفا أبا بكر مع ذلك ـ عن اتخاذ تلامذة يتلقون عنه مما أوتيه من علم، وخاصة علم الطب، ومن أشهر هؤلاء التلامذة أبو جعفر بن الغزال، ويلوح أن إقباله على تعليم غيره، كان قبل أن تنمو مسؤولياته التطبيبية في بلاط المنصور، ومع ذلك فيفهم من تلميح بعض الروايات، أنه كان على اتصال وثيق بأمر التعليم، وأنه كان له غير واحد من التلامذة تفرغ إليهم في المغرب، وتولى تعليمهم وتوجيههم الفكري أيضا. ومن مظاهر هذا في حياة المترجم له، ما حدث به أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد الإشبيلي، قال : كان إثنان من طلبة الطب يردان على الحفيد، وأتوا إليه يوما وفي يد أحدهما كتاب صغير في المنطق، فما عرف الأستاذ موضوع الكتاب الذي يحمله تلميذه، حتى ظهر الغيظ على وجهه ـ وزجر التلميذ على حمله كتابا مضلا، ثم رمى بالكتاب، وطرد التلميذين، وهما يعتذران له أنهما لم يشتريا الكتاب قصدا إنما وجداه مع أحد الصبيان في الطريق، وانتهى غيظ الأستاذ عند هذا الحد، وعاود سبيله العادي مع تلميذيه، ناصحا إياهما بالإقبال على حفظ القرآن والتعمق في التفسير والحديث والفقه. فلما بلغا من ذلك، ما تمتنت به ثقافتهما الدينية، أخرج لهما كتاب المنطق الذي صادره من

أحدهما ذات يوم، ثم أعاده إليهما قائلا : «الآن صلحتم لأن تقرأوا هذا الكتاب علي وأشغلهم فيه» وهذا ما يشير إلى أنه كان له حس بيداغوجي سليم، كما تفسر هذه القصة أيضا ثقة المنصور بديانة ابن زهر، رغم ما كان يرميه به النافسون عليه من ضعف في العقيدة، انطلاقا من الاتهام بأنه كان ينزع إلى النظر في كتب المنطق والفلسفة.

وهذه مع ابن زهر الحفيد ـ نماذج من شعره، وقد قدمنا أنه كان يعاني الشعر كثيرا، ويجيد فيه أحيانا، وخاصة في الموشحات :

☆ ☆ ☆

قال وقد نظر يوما في المرآة فرأى آثار المشيب، وقد زحف على شعره :

إني نظرت إلى المرآة إذ جليت

فـــأنكرت مقلتـــاي كـل مـــا رأتـــا

رأيت فيهـــا شيخـــا لست أعرفـــه

وكنت أعرف فيهـــا قبـــل ذاك فتى

فقلت أين الـــذي مثواه كـــان هنـــا

متى ترحـل عن هـــذا المكـــان متى ؟

فـــاستجهلتني وقـــالت لي ومـــا نطقت

قـد كـــان ذاك وهـــذا بعـد ذاك أتى !

هـون عليـــك فهـــذا لا بقـــاء لـــه !

أمـــا ترى العشب يفنى بعـد مـــا نبتـــا ؟

ومن موشحاته :

ليس لي صبر ولا لي جلـــــــــد

يـــا لقومي عـــذلـــوا واجتهـــدوا

انكروا شكواي مما أجد

مثـــل حـــالي حقـــه أن يشتكي

كمـــد اليـــأس وذل الطمـــع

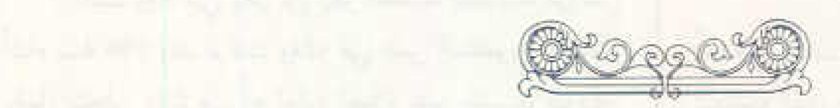
مـــا لعيني عشيت بـــالنظر

انكرت بعـــــدك ضـــوء القمر

وإذا ما شئت فاسمع خبري !

شفيت عينـــاي من طـــول البكـــا

وبكى بعض على بعض معي !





علم التجويد وواقعه بالمغرب!؟

الأستاذ علي العلوي

لقد اهتم المغاربة بعلوم القرآن بصفة عامة، وفسحوا مجالا واسعا لحفظ القرآن برواية ورش عن نافع، كما برز منهم حفاظ للروايات السبع، ومنهم العديد الذين كانوا يتفننون في الروايات العشر في المدن والبوادي، ويعتبر المغرب الأقصى في طليعة الافطار المحتوى على عدد هائل من حفاظ القرآن، ولم يخل المغرب في أي عصر من العصور، من كراسي الأساتذة البارزين في علم التجويد حيث خلدوا كتبا وأبحاثا وتعليقات ضافية، كما خلدوا ارجوزات شعرية هامة، تدل على طول الباع، والتفوق في علم التجويد، ونذكر في مقدمة ذلك رجز الإمام أبي الحسين علي بن بري المسمى بالدرر اللوامع. ويقول في ذلك :

في رجز مقرب مشطور
لأنه أحظى من المنثور
يكون للمبتدئين تبصرة
وللشيوخ المقرين تذكرة
سميته بالدرر اللوامع
في أصل مقرأ الإمام نافع
نظمته محتسبا لله
غير مفاخر ولا مباهي

ولقد صادفت هذه الأرجوزة استحسانا بالغا لدى علماء التجويد سواء منهم المغاربة أو غيرهم وممن تصدى إلى شرحها الإمام المرغيني المفتى المالكي بالديار التونسية، وقد سمى هذا الكتاب بالنجوم الطوالع، على الدرر اللوامع ويعتبر بحق مفخرة من المفاخر في هذا الباب وحسبما أعلم فإن تدريسه كان مقررا بجامعة الزيتونة.

والاقبال على هذه الأرجوزة كان عظيما قصد تلقينها للطلبة وتدريسها لهم، واشتغلوا بها إلى يومنا هذا، لأنهم وجدوا فيها الجم الوافر مما لم يظفروا به في المطولات، خاصة وأن صاحبها توجه إلى دراسة قراءة الإمام نافع رحمه الله أمام المدينة المنورة، القراءة التي كان يقرأ بها الإمام

مالك، والتي اعتبرها سنة دون بقية القراءات الأخرى.

والإمام ابن بري يسجل في أرجوزته العلمية الرائقة قراءة نافع طبقا لرواية ورش، وهي الرواية السائدة عندنا بالمغرب، كما يسجل رواية قالون السائدة بتونس، ولذلك فإن المغرب العربي أخذ القراءة عن نافع بروايتي تلميذيه، ورش، وقالون، ووجد علماء التجويد ضالتهم المنشودة في هذه الأرجوزة التي وفت كل التوفيه بما روى عن نافع بواسطة تلميذيه، وبينت بأنصع بيان ما رفع فيه الاتفاق بينهما، وما ظهر فيه الخلاق، فكانت بحق منهجا من المناهج التثقيفية الرشيدة للمحافظة على علم التجويد بهذه الأقطار، وخاصة بالمغرب الأقصى.

وأن التاريخ المغربي ليسجل بمداد الفخر والاعجاب ما حوته أرض سجلماسة من علماء بارزين في علم التجويد حتى أن جميع القارئين كانوا يتلون تلاوة مجودة تبعا لمآخذهم السليمة، وتطبيقهم لقواعدهم الواردة عن معرفة لها ودرايه، فكانوا يحسنون الأداء، حتى وإن كان البعض منهم لا يعرف القواعد العلمية، والأمر بالعكس من ذلك في نواحي المغرب الأخرى، فالحفاظ لا يطبقون قواعد علم التجويد إلا النادر وإن كان الكثير يعرفها ويتقنها اتقانا بالغا، ولكن الأداء شاط عن التطبيق الصحيح، لأن علم التجويد لا يمكن أخذه إلا من أستاذ يحسن الأداء.

ومع الأسف الشديد فإن الكثير من الناس يعتقدون أن صاحب الصوت الجميل يعرف علم التجويد، فقد دابوا على أن من حسن صوته وحلا نغمه أصبح رجل تجويد مدمج في صفوف العارفين بهذا العلم الشريف، مع أن القراءة بالألحان، وما على شاكلة ذلك من تطريب نهى عنه العلماء، وقد قال الإمام مالك رحمه الله... لا تعجبني القراءة بالألحان ولا أحبها في رمضان ولا في غيره لأنه يشبه الغناء. إلا أن الإمام الشافعي رحمه الله قال لابأس بها ما لم تخرج القراءة عن حد القرآن وإلا فتكون القراءة بالألحان مراما ـ وعلى هذا الأساس فإن القارئ لا يمكنه أن يعرف القراءة الصحيحة إلا إذا كان متلقيا ذلك عن أرباب هذا الفن، وإلا فقراءته معدودة في صف الخارجين عن الحدود العلمية، ومخالفة لما ورد من النصوص قال الله تعالى : ﴿**ورتل القرآن ترتيلا**﴾ وقالت عائشة رضي الله عنها كان الرسول عليه السلام يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يرتلون القرآن ويحسنون أصواتهم بالقراءة كما جاء في الحديث زينوا القرآن بأصواتكم ومن ذلك قوله عليه السلام ليس منا من لم يتغن بالقرآن وقال عليه السلام لقد أوتي هذا مزمارا من مزامير داوود، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه لا تنثروه نثر الرمل، ولا تهذوه من الشعر.

وأمام هذه النصوص القرآنية والحديثية يجب أن نتساءل عن قراءة الرسول عليه السلام وقراءة الصحابة، والجواب على ذلك واضح فليس إلا اتباع قواعد علم التجويد، وبطبيعة الحال فإن الإشارة إلى القراء وخاصة منهم الذين يتصدرون للقراءة، وللتعليم وللتحكيم وأما غيرهم فإن التشديد عليهم سيدفعهم إلى عدم القراءة وهذا ما لا يرغب فيه أحد، ولقد قال الرسول الأكرم عليه السلام : «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام والذي يقرأ القرآن يتتحتع فيه وهو عليه شاق فله أجران» والله سبحانه يقول : ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر**﴾.

ومما يستغرب منه أن عددا من القارئين المتصدرين للقراءة يدعون معرفة علم التجويد وأدائه، ومعرفة ذلك طبقا لما ورد عن الرسول عليه السلام والصحابة الأخيار، محصن بما أثبته العلماء من قواعد وقوانين هؤلاء المتصدرون ليس لهم من نصيب في هذا المجال إلا الادعاء الصراح وهل في الامكان أن يصبح المرء حيسوبيا دون قواعد علم الحساب وتطبيقاته أو فرضيا أو فلكيا دون ممارسة العلم وأخذه عن أربابه، وكذلك بالنسبة إلى علم التجويد وقواعده وتطبيقه فإنه لا يمكن بل يستحيل أن يصل إليه الإنسان دون أخذه من المصادر الصحيحة المعروفة بكفاءتها في هذا الميدان.

ـ إن تاريخنا المعاصر قد سجل التفاتات هامة في هذا المجال منها الأمر الملكي السامي من جلالة المغفور له محمد الخامس لتدريس علم التجويد بالقرويين، ولقد أسند

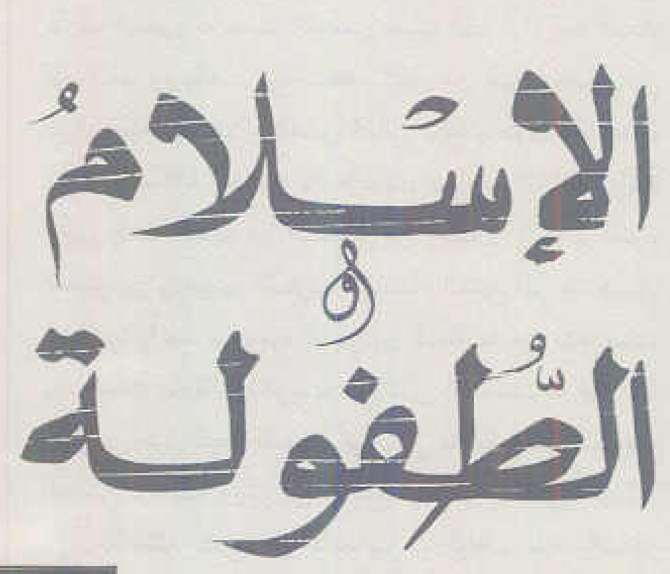
تدريس هذه المادة إلى المرحوم الأستاذ سيدي الحاج قاضي الأحكام بمدينة صفرو، وهو ابن الأستاذ الشيخ محمد بن عرفة قاضي الأحكام بسجلماسة، وقد عرفه المغرب إماما لا يضاهي في علم التجويد وهذا الأمر السامي فتح العيون للاشتغال بعلم التجويد وحضور درس الأستاذ الأسبوعي لا فرق في ذلك بين الأساتذة والطلبة لمعرفه هذا الفن، وأذكر أنه في ذلك التاريخ جرت مسابقة بكلية القرويين وبرئاسة شيخ الجماعة آنذاك مولاي عبد الله الفضيلي لاختيار مقرئين مجودين حيث برز فيها من لهم قدم السبق وطول الباع في علم التجويد وحسن الأداء ومن دون شك فإنها أول مسابقة جرت في هذا الباب.

- أما في وقتنا الحاضر فإن هذا الفن عرف منعطفا هاما بما يسديه جلالة الحسن الثاني لهذا العلم من رعاية وعناية، حيث تقوم وزارة الأوقاف بإسعاف رجال هذا الفن، والأخذ بيدهم لتدريسه في عدد من النقط المغربية وتشجيعهم بالمنح المادية، وإقامة المسابقات وإرسال البعثات للمشاركة في مؤتمرات المجودين في سائر أنحاء العالم، ويعتبر المرحوم الأستاذ مولاي الشريف العلوي القدوة المثلى في هذا المجال حيث نذر لله سبحانه أن يعلي من شأن هذا الفن حيث كان يتنقل بين البيضاء والرباط والخميسات ومكناس وفاس أسبوعيا يلقي فيها دروسه التجويدية ويتجمع حوله حفاظ القرآن والتالون له والمقتبطون بهذا الفن وقد استفاد منه الجم الغفير من الطلبة الذين أصبحوا على المنهاج القويم دراية بالقواعد، وتمكنا من الأداء السليم، ومجادلة أرباب الفن وحذاقه والمهرة فيه في المؤتمرات الخاصة بعلم التجويد وعرض قراءته على جهابذة هذا الفن في العالم الإسلام حيث يتبوأ المغرب مكانة مرموقة من بين المساهمين حفظا، وتجويدا وجمال صوت.

وإنها بحق الانطلاقة موفقة وهامة بالنسبة إلى أرض المغرب، والتعريف بماضيه وحاضره، وتشبثه المتين بعلوم القرآن، وفي مقدمتها علم التجويد، ولقد حان الحين وحل الأوان للسير على المنهاج الذي خطه ملوك الدولة العلوية قديما كما هو ثابت في الوثائق بالنسبة إلى الرباطات القرآنية والعلمية في شتى أنحاء المغرب، وكما هو صادر من طرف المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه بما أسداه لهذا العلم ورجاله... وما نشاهده اليوم من غيرة وحماس من طرف صاحب الجلالة الحسن الثاني لرفع مستوى هذا العلم، وإبلاغه المكانة الجديرة به، فأيادي صاحب الجلالة وافرة وجزيلة جلت عن الذكر من إجلال وتكريم للقراء المجودين ودعوتهم للمغرب وإسداء المنح لهم وتسجيل قراءاتهم، وأيضا ما يوفره المجودون المغاربة من تشجيعات ومساعدات مادية، وتكريمهم في شتى المناسبات فوق ما ظهر من طبع للمصاحف القرآنية وفي مقدمة ذلك المصحف الحسني برواية ورش عن نافع، وبخط مغربي أصيل، وزخرفة فائقة تنتزع كل الإعجاب من الواقف عليه والناظر بين سطوره وما بين دفتيه وأيضا ما يحظى به القراء المغاربة من تسجيلات إذاعية وأخرى خاصة.

إنها جهود متواصلة، ونفحات فائقة تعطر هذه البلاد وتزهى حاضرها، وتشد سلسلة المحامد الحاضرة بالجلائل الماضية وأملي أن تضاعف الجهود في هذا المجال، وتقرن بما قرنت به الخدمات لإرساء المذهب المالكي سيرا مع ما خلده قادتنا السابقون وعلماؤنا الساهرون، لأن التشبث بقراءة ورش عن نافع ودراسة التجويد المنغلق بها يعتبر توحيدا للأمة في قراتها، بل أن مشايخنا تجاوزوا ذلك إلى اتخاذ وقف خاص ينسب إلى الشيخ ابن عبد الله محمد الهبطي لتنظيم القراءة في البداية والنهاية وهذا الوقف هو الذي نجده في مصاحفنا المغربية المشار إليه بهذه العلامة - ص - ورغم ما يقال عن هذا الوقف فقد قال عنه العلماء الأفذاذ أن جله أوقاف حسنة وتامة وكافية، وجائزة ولازمة وبيانية، وأيضا أملي أن يقدم الاكفاء العارفون بعلم التجويد لتقديم التوجيهات السليمة، والطرق العلمية الواردة والدروب المثلى الكفيلة بإحياء هذا الفن وخلوده، ولما في ذلك من عناية بحل الله المتين، المعروفة في هذه الديار، وملوكها الأبرار، وعلمائها العاملين المخلصين وصدق الله العظيم ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾.

علي بن الشريف العلوي



الدكتور يوسف الكتاني

ليس هناك دين من الأديان ولا نظام من الانظمة أو مذهب من المذاهب اعتنى بالإنسان وكرمه وفضله على سائر الموجودات في الحياة كما فعل الإسلام مصداقا لقوله تعالى :

﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾.

فقد عنى الدين الإسلامي بالإنسان وكرمه واحترم إنسانيته وأحاطه بالعناية والرعاية منذ أن ينشأ جنينا في البطن ثم يولد رضيعا فطفلا فشابا وهكذا طوال مراحل حياته.

واعتبر الأطفال بهجة للحياة ومتعة لها ونعمة من أجل نعمها وزينة في الدنيا لأنهم أساس المجتمع وركيزة الأسرة.

وهو من أجل ذلك شرع للاطفال من الحقوق ووضع لهم من الوصايا والتوجيهات ما يكفل لهم التنشئة الصالحة والتربية الكاملة والعناية الفائقة والرعاية الشاملة مما يحقق لهم طفولة سعيدة وحياة كريمة.

ولذلك كان من الطبيعي أن تبدأ رعاية الإسلام للطفل وهو ما يزال جنينا حيث صان حقه في الحياة وحرم إجهاضه وضمن له حق التملك والوراثة.

ولم يكد يولد المولود حتى يرسم له الإسلام طريقه في الحياة وينظم تربيته وسلوكه ويأمر والديه وأولياءه بحسن الرعاية وكمال التربية ليصبح الطفل عضوا صالحا في المجتمع وعنصرا للخير والبر في الحياة وفي ذلك يقول الله تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا﴾** أي علموا أنفسكم وأهليكم الخير بتعلم الدين وما لا يستغنى عنه من العلم والآداب.

وأوجب على الوالدين تربية أولادهم ورعايتهم وإرضاعهم وحضانتهم والإنفاق عليهم فحبب إلى الأم إرضاع طفلها وحضانته لأنها أحن عليه وأرحم له وفرض على الوالد الانفاق عليه وتعليمه وحمايته وجعل ذلك حقا للأطفال على آبائهم، للصغير حتى يبلغ ويستطيع الكسب، وللصغيرة حتى تتزوج أو تعمل «والوالدات يرضعن أولادهن حولين

كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك».

كما جعل مسؤولية تربية الأطفال مشتركة بين الأسرة والمجتمع بين الآباء والأولياء وجعل من حق الولد على والده أن يحسن تسميته وبيئته وتأديبه وهو مصداق قول النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو داود عنه : «من حق الوالد على ولده أن يحسن اسمه ويحسن موضعه ويحسن أدبه».

وما رواه أبو داود أيضا عن الرسول عليه الصلاة والسلام قوله : رحم الله والدا أعان ولده على بره».

وقد أكد هذه المسؤولية نحو الأطفال ابن خلدون في مقدمته بقوله :

«أعلم أن تعليم الولد أن للقرآن شعار من شعائر الدين، أخذ به أهل الملة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الحديث وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات وسبب ذلك أن تعليم الصغار أشد رسوخا وهو أصل لما بعده، لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ما ينبني عليه».

وامتازت نظرة الإسلام إلى الطفولة بشموليتها اعتبارا لطبيعتها وبراءتها غير ملتفت إلى أية ناحية أخرى ولذلك اهتم بالطفل اليتيم واللقيط وأوصى بهما خيرا وضمن لهما حقوقهما.

فقد وجه الإسلام عنايته للطفل اليتيم الذي فقد أباه وهو صغير ضعيف يحتاج إلى من يرعاه ويكفله ولذلك أوجب العناية باليتيم ورعايته وضمان معيشته وتربيته وعدم قهره والغض من شأنه وقد جاء في القرآن.

﴿أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم﴾.

وقال : **﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾.**

كما أمر بالمحافظة على أموال اليتامى إلا بالتي هي أحسن واعتبر آكلها كمن يأكل النار.

فقال : **﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾.**

وقال : **﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا﴾.**

وعن البر باليتيم ورحمته روى الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال : «من وضع يده على رأس يتيم رحمة كتب الله له بكل شعرة على يده حسنة».

كما اهتم الإسلام بالأطفال اللقطاء، واللقيط هو المولود الذي لا يعرف له أب ولا أم، وينبغي لمن وجده أن يلتقطه لما فيه من السعي لا حياء النفس وإغاثة الإنسان.

ولم يراع الإسلام في اللقيط ـ إن كان ولد من زنى ـ جريمة أمه وخطيئتها لعدم مسؤوليته واعتبر كفالته وتربيته ورعايته من واجب الدولة ومسؤوليتها فقد جاء رجل بلقيط إلى عمر فقال له : «نفقته علينا وهو حر».

ولم يميز الإسلام في المعاملة بين الأطفال اللقطاء وبين غيرهم مراعاة لنفسيتهم وشعورهم، فكما جعل من واجبات الدولة الانفاق عليهم ورعايتهم وهم صغار، اعطاهم كامل الحقوق في المجتمع عندما يكبرون فلهم الحق في الانخراط في مجتمعهم وتحمل مسؤوليتهم عن تصرفاتهم وأعمالهم.

وقد بلغت رعاية الإسلام بالأطفال حدا منع الآباء من أن يوصوا من أموالهم بأكثر من الثلث حتى لا يتركوا أولادهم عالة بعدهم على غيرهم فقال ﷺ لسعد بن أبي وقاص عندما أراد أن يوصي بكل ماله للفقراء فيما رواه الإمام مسلم : «إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس».

كما حمى الأطفال من شبح آبائهم وبخلهم والحرمان من النفقة حالة غيبتهم، كما بين النبي ﷺ لهند زوجة أبي سفيان عندما اشتكت إليه، أن تأخذ من مال زوجها وفي غيبته ما يكفيها ويكفي أولادها، فقال فيما رواه النسائي عن عائشة رضي الله عنها : «خذي ما يكفيك وولدك

بالمعروف».

كما أوصى الآباء بالا يرهقوا أطفالهم ولا يضربوهم وأن يحسنوا معاملتهم. فقال لعلى : «أوصيك بريحانتي خيرا».

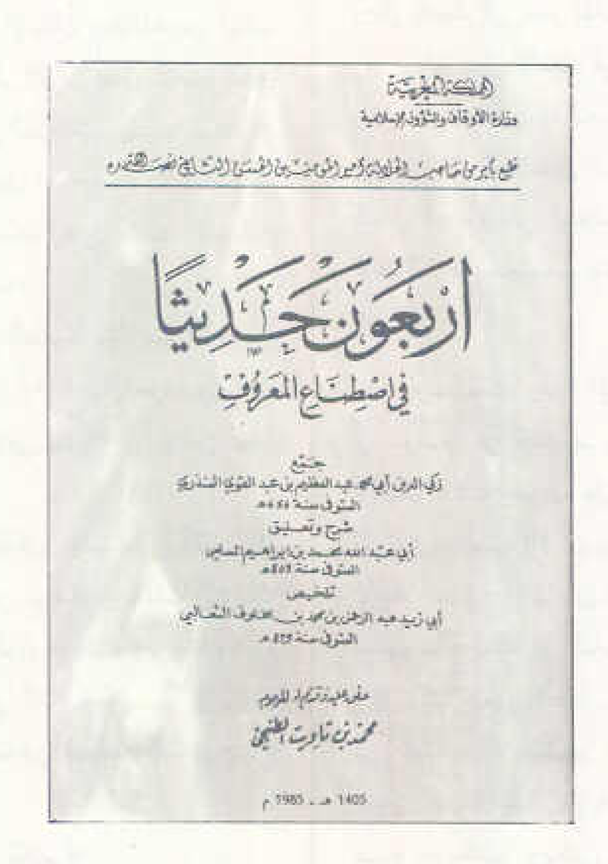
وفي حياة الرسول وسيرته وهديه وفي تاريخ المسلمين من بعده منهج رائع وصور حية لمدى العناية والرعاية التي كفلها ديننا الحنيف للطفولة والمنهج القويم الذي خطه الإسلام لتنشئتها وتربيتها.

فقد كان الرسول الكريم يرعى الأطفال ويحبهم ويحنو عليهم ويرحمهم ومصداق ذلك ما رواه الإمام البخاري عن انس أن النبي ﷺ أخذ إبراهيم فقبله وشمه.

كما روى البخاري أيضا عن أبي هريرة قال : «قبل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسا فقال الأقرع : «إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال : «من لا يرحم لا يرحم».

كما كان يلاعبهم ويلاطفهم فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما كان رسول الله ﷺ يأخذني فيقعدني على فخذه ويقعد الحسن على فخذه الأخرى ثم يضمهما ثم يقول : «اللهم أرحمهما فاني أرحمهما».

وروى الإمام البخاري عن أبي قتادة قال : خرج علينا النبي ﷺ وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه فصلى فإذا ركع وضع وإذا رفع رفعها وجرى بالمسلمين اليوم بصفة خاصة وبالعالم أجمع وهو يحتفل بالسنة الدولية للطفولة أن يقتدى بهذا السلوك النبوي الكريم وأن يتمسك هذا النهج العظيم الذي رعى الطفولة حق رعاية وصانها أعظم صيانة وكفل بها السعادة والطمأنينة في الحال والمآل.



من أعلام الريف الشرقي في القرن الحادي عشر الهجري

3 الأستاذ حسن الفكيكي

عيسى بن محمّد الراسي البطوئي

على الرغم من أن عيسى البطوئي لم يشعر بأية ضرورة لتقديم شخصياته وفق ترتيب يراعي مكانتها في درجة الصلاح، فإن هذا لا يعني أن الترتيب كان غائبا عنه. لأننا لمسنا فيما سجله في الباب السادس أنه كان واعياً بالمسألة. وهذا هو ما دفعنا إلى إعادة تصنيف التراجم حسب منهج الباب المذكور، إلى فئات ثلاث.

والخاصية الأساسية لتلك الفئات أنها كانت تعمل كخلية اجتماعية متكاملة الوظائف. هدفها الحفاظ على مستوى معين من الثقافة الدينية بالبوادي الريفية. وهي تنتظم على شكل هرمي يبرز على قمته شيوخ التربية الصوفية وهم يمثلون أسمى النماذج في الفضل والصلاح. ويليهم في الدرجة شيوخ التعليم بصفتهم أطر الدعوة والتوعية لابتغاء الترقي في دروب الصلاح. بينما يشغل قاعدة الهرم العريضة جماعات من طلبة العلم والمريدين والراغبين عموماً في نهج سبيل أهل الفضل.

1) شيوخ التربية الصوفية

يبادر صاحب مطلب الفوز والفلاح، قبل الدخول في استعراض من لقي من أهل الفضل والصلاح إلى إبعاد الالتباس عمن يستحق في نظره أن يطلق عليه اسم «الصوفي»، جاعلا من اكتساب المعرفة قاعدة أساسية يلجأ إليها كل من يطمح في نيل تلك الحظوة العليا. وكل وسيلة يقع الاختيار عليها مغايرة، تستند إلى تجاهل المعرفة، تصبح بدون أي جدال محض ادعاء.

وانطلاقا من هذا التصور العام لمفهوم التصوف، فإن عيسى الراسي يرى أن المتصوف المثالي، ليس سوى ذلك الذي يدبر الأحوال التي تمر به بالعلم والمعرفة «يضع الأشياء كلها في مواضعها بحضور عقل وصحة توحيد وكمال معرفة ورعاية صدق وإخلاص (1)».

وزاد البطوئي هذا المفهوم تعميقاً حينما حاول ربط اكتساب المعرفة بما يظهر على المرء من سلوك واقعي، وهو يعني بذلك أن يحرص المتصوف على استتار ما يجب أن يستتر من أفعاله وأحواله وأن يظهر منها ما هو جائز منه أن يظهر للعامة من الناس. ولن يتأتى هذا إلا بإتيان الأفعال في مواضعها حسبما يتفق والشريعة الإسلامية.

بصياغة هذا التعريف وبتلك الحدود والأبعاد، يضرب

1) الباب السابع، الفصل التاسع.

عيسى البطوئي صفحاً عن مسعى جميع أولئك الذين يحاولون انتحال مذهب التصوف، سواء كان ذلك ناتجاً عن الجهل بقواعده وأصوله، أو لأغراض منحرفة تبعد صاحبها عن النهج القويم.

وهذا هو السبب الذي دفع المؤلف إلى تنظيم حملة عنيفة ضد من سماهم بالملامتية والقلندرية (2). ونفهم من إشارة نده فيها بانتشار الجهل بقواعد الإسلام، أن بعض أفراد تلك الجماعة كان موجوداً بالريف الشرقي على عهده.

وفي زعم عيسى البطوئي أن ليس لدى متزعمي هذا الاتجاه الصوفي أي مبرر مقبول يسمح لهم بالانتساب إلى التصوف الحق. وأنهم إن حاولوا فإنما يلجأون إلى ذلك توقياً تارة ودعوى أخرى. واضطر أن يكشف عنهم ستار ما يدعونه ويرميهم بالزندقة والإلحاد والغرور. والحجة لديه ما كانوا ينتهجونه من مناهج الإباحة. وفي الأخير تبرأ مما كانوا يزعمونه حين أعلنوا أن ضمائرهم قد خلصت لله تعالى (3).

وبإبعاد الملامتية والقلندرية من ساحة المتصوفة، تبدد كل غموض لمعرفة من يستحق أن يُرتب في أعلى مراتب التربية الصوفية. وهؤلاء هم وحدهم الذين أطلق عليهم البطوئي الأولياء والصالحين والمربين السالكين والعابدين الزاهدين. وجمع أوصافهم فيما عبر عنه بـ «الإمام القدوة».

ولمنزلتهم عند البطوئي خص للحديث عنهم كل صفحات الفصل الثاني من الباب السادس، مهتماً بالتعريف بحقيقة أولياء الله تعالى، ووجوب الإيمان بوجودهم وبكراماتهم. وما يهمنا فقط مما ذكر أن نقف على الشروط التي من شأنها أن تصبغ صفة الولاية على نخبة من رجال التصوف. فمن تلك الشروط :

1) أن يكون الولي عارفاً بأصول الدين معرفة كافية للتمييز بين العبد وخالقه من جهة، وبين النبي والدعي من جهة ثانية.

2) الملامتية هم جماعة من الأفراد السالكين مسالك الزهاد، يتظاهرون بأفعال تستحق اللوم من طرف عموم الناس. وفي اعتقاد هؤلاء أنهم بتقبلهم الملامة وبتحملهم لإذايتها ينالون الثواب من الله. ولا حدود لهذه الأفعال التي قد تتجاوز المألوف وتتنافى مع العرف والشريعة.

3) الباب السابع، الفصل التاسع.

2) أن يكون الولي عارفا بأحكام الشريعة الإسلامية نقلا وفهماً. والغاية أن يكتفي بنظره عن التقليد في الأحكام، مثلما اكتفى عن ذلك في أصول التوحيد.

3) أن يلازمه الخوف أبداً، وألا يجد لطمأنينية النفس سبيلا، تجنبا للوقوع في المخالفات. هذا السلوك الروحي هو المعبر عنه بالورع.

4) أن يتمسك الولي بالأخلاق الحميدة، مما يدل عليه الشرع كالورع عن ارتكاب المحرمات، والحرص على امتثال جميع المأمورات، ومما يدل عليه العقل من ثمرات العلم بأصول الدين. وتتمثل معاني هذه الأخلاق في ضرورة ابتعاد شيخ التربية عن التعلق بشيء من ماديات الدنيا، سواء كان ذلك خوفا أو طمعاً. وهذا السلوك هو المعبر عنه بالزهد، الشعار الدائم للمتصوف، وهو العالم بالوحدانية، الإخلاص لله تعالى في سائر أعماله (4).

بناء على هذه الدلالة التي تبناها عيسى البطوئي في مشروعه عن التصوف والمتصوفين، قدم لنا اثنين من شيوخ التربية، ممن استحق اختياره داخل الإطار الجغرافي الذي يمثله الريف الشرقي. الأول منهما من مواليد وردان، كان متزعما لمذهب التصوف على الأقل في بداية القرن العاشر الهجري. أما الثاني فهو ممن عرج من الغرباء على بني سعيد في أواخر نفس القرن.

● الحاج يحيى بن أحمد الورداني

جاء ذكر هذه الشخصية في قسم التراجم عرضاً، أثناء سياق الحديث عن شيوخ التعليم وبعض المعاصرين من الطلبة، باعتبار أنها لم تكن مدمجة في مسطرة العمل التي أعدها المؤلف لكتابه. والعلة في ذلك أن الحاج يحيى كان من أحياء النصف الأول من القرن العاشر الهجري، بناء على تقديراتنا التي استخلصناها من التعرف على أحد طلبته (5).

4) اقتبس البطوئي هذه الشروط من «شرح الإرشاد» لصاحبه ابن دهاق وممن سماه فقط بالأستاذ.

5) هو أحمد بن عبد الله المديني. سندرج ترجمة له ضمن شيوخ التعليم.

ينتمي الحاج يحيى إلى وردان. والمكان في الوقت الراهن بقبيلـــة بني أوليشـــك، واقـع على واد ينبـع من مرتفعات أولاد عبد السلام، غير أن هذا الإسم كان خلال القرن العاشر علماً جغرافيا يطلق على مساحة القبيلة كلها، حسب الحدود التي عينها لها الحسن الوزان (6). وتعود أهمية وردان إلى الدور الذي قام به الحاج يحيى الورداني في المجال الديني وتنظيم شؤون القبيلة.

نجهل متى استقر جد هذه الأسرة الأول بوردان، لأننا نعلم أنه من ذوي النسب الحسني، وربما كان واحد من أفراد الأسرة، المسمى الحـاج يحيى بن علي بن موسى بن أبي بكر الصحراوي الفججي، المشـار إليـه من طرف صاحب «التشوف في رجال السادات أهل التصوف» (7). على أن المـؤلف لم يـزد على قـولـه، حين أراد التعريف بموطن الحاج يحيى : «بساحل البحر من بلاد بطوية» (8).

وكيفما كان الحال، فإننا نجد التطابق بين ما أعلنه الحسن الوزان في بداية القرن العاشر عن عالم وردان، وبين ما أدلى به عيسى البطوئي في بداية القرن الموالي عن الحاج يحيى، نقلا عن طلبة أحمد المديني.

فحسب الحسن الوزان أن عالم وردان وخطيبها لعب دوراً رئيسياً لا في تصدر الشؤون الدينية بقبيلته فحسب، بل لأنه تزعم مقاليد القيادة بها أيضا. والحدث الهام الذي أفضى بوضع زمام الأمر بيده، هو الفوز الباهر الذي حققه على إمارة بادس الوطاسية (9). حين انتزع منها استقلال القبيلة ليرتبط ارتباطا مباشرا بالسلطة المركزية التي كان يمثلها محمد البرتغالي بن محمد الشيخ على أغلب التقدير.

ولا يمكن أن نعين لهذا الحدث إلا سنوات ما قبل 922 هـ (1516 م) وهي السنة التي نعتقد أن أخبار المنطقة كانت قد انقطعت عن الوزان، حينما كان مستعداً لمغادرة المغرب الشرقي في اتجاه تونس. وداخل هذا التقدير الزمني سنتراجع إلى بداية القرن العاشر، لنبرز حدث تسرب الوجود الإسباني إلى صخرة بادس سنة 914 هـ (1508 م) الواقعة على بعد ميلين فقط من المدينة، لنشير إلى نقطة بداية تضعضع قوة الإمارة البادسية، مما ساعد الحاج يحيى على تنفيذ خطته. وهذا بالطبع في دائرة الاحتمال فقط.

ومن جهة أخرى فإن الزعيم الورداني الذي نتصوره من خلال البيانات المأخوذة من وصف افريقيا، نعتقد أنه لا يمكن أن يتعلق الأمر إلا بالحاج يحيى، واعتمادنا فيما نذهب إليه على إشارة عيسى البطوئي التي تؤكد أن الشيخ المربي الورداني كان سيد قبيلته في الشؤون الدينية قبل 919 هـ (1513 م)، مما يتفق اتفاقاً كلياً مع ما سبق أن أدلى به الوزان.

ويعود تكوين الحاج يحيى إلى دراسته بالغرب الجزائري وبمدينة تلمسان خاصة. حيث أخذ التصوف على عثمان بن زيان المديوني. وحينما عاد إلى بلدته وردان تزعم المركز الديني الذي غدا نقطة التقاء الطلبة والمريدين، ساعده الأيمن في هذه المهمة تلميذه أحمد بن عبد الله المديني البطوئي الذي تخرج عنه عدد من شيوخ التعليم والمدرسين بمسجد تيزي عدنيت.

وتبرز كتابات البطوئي عن الحاج يحيى بأن تضلعه في التربية الصوفية أدى به إلى وضع أسس لطريقة صوفية ذاع صيتها بيطوية كلها، مرتكزة على الزهد البسيط الخـالي من التعقيـدات والمستنـد إلى الاستغراق في العبادات. وهي الطريقة التي ستستمر على يد خلفه أحمد المديني. ولا نستبعد أن تكون نفس الطريقة لقيت إقبالاً من طرف الراسيين قبل أن يظهر بينهم الشيخ الفلالي.

• أحمد الفلالي

غير بعيد عن مركز وردان، ظهر متصوف آخر بمركز تيزي عدنيت، غريب عن المنطقة، لا ندري ما هي عوامل الجذب التي دفعته إلى الاستقرار بالمسجد لكننا نعلم أنه

6) في وصف افريقيا ص. 269 ـ الرباط 1980.
7) مؤلفه عبد الرحمن التادلي. من احياء القرن التاسع الهجري. مخطوط بالخزانة العامة، قسم الوثائق. بالرباط.
8) المصدر السابق ص 81.
9) تشكلت الإمارة الوطاسية منذ بداية العهد الوطاسي لتستقل بجباية الريف. وقد قام بمثل انتفاضة وردان قائد «أمجاد» أيضا في نفس الفترة.

سرعان ما لقي ترحابا من طرف أسرة عيسى البطوئي، وذلك قبل 996 هـ. وظل بالمكان حتى بعد بداية القرن الموالي، علما من أعلام التربية إلى أن علمنا بانتقاله إلى بني بوزرة بغمارة، أثناء غياب البطوئي ما بين 1002 هـ. و1027 هـ.

وعلى أية حال فإن حلول الفلالي ببني سعيد كان من أقوى عوامل ظهور المركز التعليمي هناك، ويعكس هذا عدد الطلبة الذين لازموا مجلسه، إلى أن عد بالمنطقة مربياً سالكاً وزاهداً متبصراً فريداً في عصره، كسبت طريقته في التربية وسنده في تلقين الأذكار شهرة لدى الخاص والعام، كما أشار إلى ذلك البطوئي نفسه.

ويبدو أن الشيخ ترك تقاييد في الزهد نقل منها تلميذه الأبيات التالية في ذم الدنيا :

تبّاً لطالب دنيا لا بقاء لها
كأنها في تصرفاتها حلم
صفاؤها كدر وسرها كدر
أمانها غدر أنوارها ظلم
شبابها هرم صحتها سقم
لذاتها ندم وجدانها عدم
لا يستفيد من الانكاد صاحبها
ولو تملك ما قد جمعت إرم
تخل عنها ولا تركن لزهرتها
فإنها نعم بباطنها نقم
واعمل لدار النعيم لا نفاذ لها
ولا يخاف لها موت ولا هرم

التف حول المتصوف الفلالي عدد من الطلبة منهم بعض من درس على أحمد المديني، فاستكملوا تكوينهم بما أخذوه من التربية، مثل أحمد بن ابراهيم الراسي، وعلي بن سالم الراسي وأحمد بن يحيى الراسي، ومن غير الراسيين أحد الغرباء من شيوخ التعليم المسمى أحمد بن جعفر السوسي (10)، ومحمد بن صالح البقيوي، وعلي بن قاسم الجريري التوزاني، وعمر بن الغازي التوزاني وهؤلاء ممن نال اختيار عيسى البطوئي ليدرجوا في أهل الفضل والصلاح. وقد تربع عدد منهم على كرسي التدريس بمركز بني سعيد.

(يتبع)

10) عد إلى ما قلناه عنه في عدد يوليوز 1985 ص. 38.



علاقات الإنتاج بالمغرب من خلال نوازل الفقهاء

نموذج الفلاحة

الأستاذ كرم إدريس

مدخل :

يقول الأستاذ محمد المنوني : «فإذا كانت المصادر التاريخية الموضوعية إنما تهتم باتجاه محدد، فإن المصادر الأخرى تفتح أمام الباحثين آفاقا قد تكون فسيحة في الكشف عن ألوان من التاريخ الحضاري، وأحيانا عن حياة الشعوب» (1).

ومن هذه المصادر : النوازل التي كانت تصدر عن الفقهاء باعتبارهم العارفين بمقاصد الشريعة، والمطلعين على اجتهاد من سبقهم، وذلك من أجل تثبيت ما هو شفوي، وبالتالي احتواء الشرع للعرف وإخضاعه لأحكام الشريعة (2).

ورغم أن هذه النوازل قد تكون متخيلة تهدف إلى نوع من الاختيار لمعلومات الفقيه من طرف فقيه آخر، أو مجموعة من الفقهاء (3) إلا أن الافتاء لا يخلو من شواهد معاصرة تبرز نمط التفكير، وطرق الاستدلال، ونوع اللغة، بالإضافة إلى أنها تبرز مجالات الاهتمام ومواقف مكوني المجتمع وعلاقاتهم، وهذا ما سنحاول استنتاجه من خلال الفتاوي التي جمعها الفقيه أبو رحال في كتابه القيم الذي سماه «رفع الالتباس عن شركة الخماس» (4) والموضوع حوالي 1127 هـ / 1713م.

وسنحاول قراءة الكتاب على الشكل التالي :

1) الأوضاع العامة في البلاد وقت تأليف الكتاب.
2) سبب تأليف الكتاب.
3) أوضاع الخماس.
4) مواقف الفقهاء من عمل الخماس.

---

1) محمد المنوني : المصادر العربية لتاريخ المغرب د 1 / 1983. منشورات كلية الآداب بالرباط ص : 2.

2) رحمة بورقية : العرف والعلماء والسلفة في القرن 19 (المغرب) قراءة في بعض نصوص النوازل. المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع، د 7 / 1984 ص 166.

3) كمثال على المتخيل من النوازل نورد هذه النازلة التي يستفاد منها وجوب تواضع الفقيه والتي تقول :
كان أحد الفقهاء راكبا زورقا في بحر، فارتفع الموج وبدأ المركب يتأرجح فقال الفقيه مخاطبا البحر : اسكن يا بحر فإن عليك بحرين بحر من الولاية وبحر من العلم، فما اتمها حتى خرجت له سمكة وألقت عليه هذا السؤال : ما قولك في عدة من مسخ زوجها ؟ فبهت الفقيه ولم يجد جوابا فقالت له : هل تتخذني شيخا وأجيب عن المسألة فقال بلى : قالت إن مسخ حجرا تعتد عدة المتوفى عنها، وان مسخ حيوانا تعتد عدة المطلقة.

4) مطبوع بالمطبعة الحجرية والنسخة التي أقدمها موجودة بالخزانة الصبيحية بسلا، وهناك نسخة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم د. 1862. وأشير إلى أن الكتاب مرقم من 1 إلى 8 ثم يعاد الترقيم مما يصعب معه ضبط الإحالة.

5) موقف المؤلف من تلك المواقف.
6) موقف المؤلف من عمل الخماس.
7) أهمية الكتاب.

1) الأوضاع العامة في البلاد وقت تأليف الكتاب.

يتسم زمان المؤلف بارتفاع الضرائب التي يعبر عنها بالمضارب، هذه الضرائب اللا شرعية والتي لا تزداد إلا استفحالا وتأبيدا لوصفها بالجذام عوض الحمى، كما أن الفتن منتشرة، مما يعرض البنيات الاجتماعية والاقتصادية إلى الاهتزال، وأن الملجأ هو الهداية الربانية، مما يفيد بأن البنية الدينية متينة، وأنها المعول عليها في ردع المعتدين، وحماية المظلومين، وفي ذلك يقول «ويغرمون المغارم الكثيرة التي ابتلي بها الناس ولزمتهم لزوم الجذام للمجذوم، لا لزوم الحمى للمحموم (....) لا سيما في زماننا الذي هو في حدود سبعة وعشرين بعدمائة وألف، الذي ظهر فيه الجهل غاية، وانتشرت الفتن للنهاية (5) حتى استوى فيه العالم والجاهل، والخامل والفاضل، وشارك فيه الأصيل الحسيب والدني المريب، واختلطت الحقائق بالبواطل، والظلم فيه على الدوام هاطل، من غير إنكار ولا تغيير، بل طلب من الناس له التغيير، وكثرت فيه الخيانات، ورفعت منه الأمانات، وعدمت فيه الشفقة على الضعيف والمسكين، وتنوسي فيه الحق المبين، وإنما بقي فيه ذئاب (6) في ثياب يتجاذبون هذا الحطام، كان من حلال أو حرام، بل انقضى الحلال وصار وجوده كالمحال، بل صار الحرام يتقرب به عند الماهر النبيه، فلولا أن الله تعالى برحماته وكراماته وهباته من على ضعفاء العباد، إذ هو الكريم الجواد، بأن جعل لهم من يردهم عن الانتهاب، لنزل بالضعيف أليم العذاب، بلا شك ولا ريب، لكثرة الفساد في الناس والعيب، فلو أطلق الناس وما أرادوه من الأمور، لامتلأت القلوب والصدور من الذي يظهرونه من الفساد في ضعفاء العباد» (7).

2) سبب تأليف الكتاب :

تنبيها للفقيه أن كثيرا من الفقهاء، يضيقون على الناس في أمور العلاقة بين الخماس وصاحب الخروج (8) مما يعرض كليهما للافلاس، وذلك بأن يصبح الأول عاجزا عن إيجاد ما به يؤدي ثمن عمل الخماس حالا، والثاني يتعرض للبطالة وفي ذلك يقول الفقيه : «وكثير من الفقهاء يصرحون أن شركة الخماس حرام، وذلك جهل منهم وتشويش في الكلية على المساكين» (9)ب ويدعو الفقهاء إلى عدم التشدد في الأحكام، خاصة في هذا الميدان الذي يعتمد عليه الناس في حياتهم «ولا تضيق فإن الأمور أوسع، ولا نجد عالما على الحقيقة إلا وهو يوسع على الناس، ويضيق على نفسه، واختلاف الايمة رحمة، والناس لم تقصد الحرام، وإنما تقصد المعاش، والله المعين والموفق، والضروة متأكدة غاية في الحراثة، والضرورات تتفاوت، وكذلك المصالح والمفاسد» (10).

فسبب تأليف الكتاب إذ أن هو تبيان أن القول بحرمة شركة الخماس باطل، وإنها جائزة لكون الخماس الشريك احرص من الخماس الأجير على عملية الإنتاج خاصة إذا ما عرفنا وضعيته وطبيعة عمله «لا نا نقول من مازج الحراثين وعاين شدائد الحرث، علم أن هذا السؤال ساقط غاية، وبيان ذلك أن أفعال الزرع ومشاقه كثيرة غاية» (11).

ولعل تلك المشاق هي التي دفعت إلى تحريم الشركة، وتعويضها بالأجر حتى لا يقع هناك غبن للشريك العاجز.

ذلك أن هناك من يتخذ من الخماس خادما في أمور لم يتفق عليها، ولذلك ألح الفقهاء على توضيح الشروط

---

5) هذا وردت في النص، ولعل حتى أوالي سقطت الواحية بين الفتن والنهاية سقطت.
6) هكذا بدون همزة.
7) رفع الالتباس عن شركة الخماس. ص : 2.
8) الخروج : المقصود به ثوران يجران المحراث.
9) رفع للالتباس ص : 7.
10) رفع الالتباس ص : 3.
11) رفع للالتباس ص : 6.

ونحن هنا سنحاول استخراج الأعمال التي كان الخماس يقوم بها، والشروط التي كان يشترط على رب الخروج :

3) أوضاع الخماس وشروطه :

- الخماس لا يأخذ التبن أورده ابن عرفة على أنه من عادة إفريقيا.

- الخماس يشترط الجلابية والمكالة (12)، فأفتى القباب بالمنع وافتى العبدوسي بالجواز.

- الخماس بتونس يشترط الثوب والطعام، أجازها الشبيبي لضرورة الزمان.

- قال الهنتاتي : وأما فساد الخماسة بتونس فسمعت أنهم يشترطون على الخماس أن لا يأخذ نصيبه من التبن، وأنه يخدم شريكه في ماله، وحطبه واستقائه وغير ذلك، وهو لا ينحرج جوازه (....) إلا أن يكون ما يشترط على الخماس يسيرا، فأجازه بعض الفقهاء (....) وكان شيخنا الفقيه ينكر ذلك (....) وأما ما يقع من شرط السلف في أصل العقد فلا خلاف في منعه. قال بعض الشيوخ : وظيفة الخماس يحرث وينقي، ويرفع الاغمارة (1) ويدرس، وينقل السنبل الاندر (14) وأن شرط عليه غير ذلك فلا يجوز، وجرت العادة اليوم في البادية بأن يشترط عليه القيام بالبقر والاحتشاش وعمل الحطب واستقاء الماء ان احتيج إليه، وهذا يفسدها، وأن شرط هو مع ذلك عولته (15) عليهم فهي شركة واجارة خارجة عن الشركة (....) وما ذكره الموثقون من اشتراط الخماس على رب الأرض الكبش أقامه بعض الشيوخ من كتاب الشركة من المدونة، وقاس عليه الشيوخ اشتراط الخماس على رب الأرض الجلابية والسلهام.

- وسمعنا في بعض المجالس أنه (....) لا يكون على الخماس من الحصاد إلا الخمس ولا يجوز له أن يتخذ اللقاط عند الحصاد (16).

- أن الخماس لا تبن له أصلا وإنما هو مسكوت عليه عندهم ولكن الخماس لا دواب عنده والتبن عندهم لا يباع أصلا وإنما هو بمنزلة المباحات كالحطب (....) وما هذا شأنه لا تفسد به الفقود أصلا (....) لأن المقصود الأعظم عند الخماس هو الزرع.

مما سبق يتبين أن شروط الخماس تنحصر في اللباس والأضحية والانفاق عليه، ويشترط عليه أحيانا أن يقوم بأعمال منزلية كالاحتطاب والسقي، زيادة على الاهتمام بدوام الحرث، وهذه الشروط يتفاوت الفقهاء في أمر جوازها أو عدمه قياسا على الاعراف المتبعة بما هو وارد حول عمل الخماس نفسه هو شريك أم أجير، بيد ان ما يجب الإشارة إليه هو أن هذه العلاقة كانت ما تزال إلى حدود الخمسينات حيث بدأت تتغير بدخول الآلات ونمط الإنتاج الجديد.

وإذا كان بعض الفقهاء قد رفض شروط الخماس وقرن عمله في غير الزراعة بأنه يفسد الشركة فإنهم قد أفتوا بحرمة شركة الخماس وذلك كالتالي :

مواقف الفقهاء من عمل الخماس.

«ابن يونس : أراهم أنهم جعلوا إذا لم يخرج العامل إلا عمل يده فقط أنه أجير، وأن كفى عمله ما أخرجه صاحبه، وان أخرج العامل شيئا من المال إما بقرا أو بعض الزريعة وكفى ذلك، وعمل يديه ما خرجه الآخر فهما شريكان.

أجبه عرفة في حقيقة الشركة عدم انفراد أحدهما بإخراج المال والآخر بإخراج العمل والاجارة فعكس ذلك.

نصح الهنتاتي الهكورمي حين سئل عن مسألة الخماس في الزرع بجزء معين هل يجوز أم لا ؟ وهل ينهض عذرا في اباحته لتعذر من يدخل على غير هذا

12) لعله يقصد الماكلة (الأكل).

13) الأغمار : مفردها غمرة وهي حزمة من السنابل على قد حمل اليد الواحدة، والمفردة مازالت مستعملة إلى اليوم.

14) الاندر : مفردها نادر وهو مكان تكويم المحصود من المنتوج الفلاحي ويطلق على كوم التبن المبني وما يزال المصطلح مستعملا.

15) عولته : إطعامه والانفاق عليه.

16) اللقاط أن تنزل روجة الخماسي وأولاده إلى الحقل لكي يلتقطوا السنابل الساقطة أثناء الحصاد.

فأجاب بأنها اجارة فاسدة وليست شركة، لأن الشركة تستدعي الاشتراك في الأصول التي هي مستند الأرباح.

- كان الشيخ الخطيب المفتي أبو عبد الله بن وضاح يفتي بأنه عذر يبيح الشركة على الوجه المذكور، وتبعه مفتينا في ذلك شيخنا وبركتنا أبو عبد الله الشبيبي وكلاهما من القرويين نفعنا الله ببركتهما.

وفيما قيد عن الجزولي : واختلف في الخماس فقيل هو شريك فعقدته جائزة وهو مذهب سحنون، وقيل هو أجير فعقدته فاسدة.

هكذا نرى تدخل العرف في مسألة جواز أو عدم جواز القول بالشركة أو الاجارة، لدرجة أن هناك من قال باللجوء

إلى القوة لإبطال البدعة «نقل عن ابن المناصف : البدعة إذا اشتهرت لا يقطعها الأرهبة الملوك وتعرضهم لها أو كما قال».

بيد أن الفقيه صاحب الكتاب رأى في موقف القائلين بحرمة شركة الخماس نوعا من التشدد، وعدم معرفة بالأحوال المعاشية للناس.

موقف المؤلف من تلك المواقف :

يتساءل المؤلف في استغراب عن سبب جواز شركة الخماس مع أن العلماء أجازوا غيرها للترخيص على الناس وتسهيل علاقاتهم، كأمر بيع النجاسة، والعلوفة، وسك النقود، وإعطاء جباح النحل، وتذكير جنان التين إلى غير ذلك من الفتاوي الخاصة بمسائل العمل الذي يدخل صاحبه شريكا بقوة عمله، «حيث لا تتوفر - شروط الجواز فكيف بالحراثة التي هي سبب بقاء هذا النسل الأدمي الذي قال فيها مولانا سبحانه : ﴿**وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا، منه**﴾، الحبوب فيها الروح والحياة، وهي البقاء والذات مع ما في مباشرة الحراثة من المشاق التي لا تكاد تطاق، وهي في البوادي والحواضر تقوم مقام جميع المتاجر، بل جميع الخلق هي اكتسابهم وبها حياة دوابهم وأنعامهم، حتى تجد أهل البادية يأكلون منها ويكتسبون ويغرمون المغارم الكثيرة التي ابتلي بها الناس

(....) فكيف يأثم شيخ كبير له زوج وأرض لا يقدر على مباشرة الحرث ولا معاناته، يعطي زوجه لمن يخدمه بجزء يخرج، لا والله إنما يقول هذا من لم يراقب مولاه، إذ العلماء جوزوا الضرورات وهذه من أكبر الضرورات، وأنى يقدر هذا المسكين الضعيف القليل الجاه والمال يستوفي شروط جواز الحرث على الوجه المتفق عليه، لا سيما في زماننا الذي هو في حدود سبعة وعشرين بعد مائة وألف (....) فكيف يأتي قاض إلى ضعيف دخل مع ضعيف بالخمس في زرعه وقد قاسى برد الليالي وقاسى شديد السماع ويفسخ عقدته ويحرمه من زرعه».

فالضرورة إذن هي ما يعتمد عليه المؤلف كما أنه يراعي جانب توفير الشروط الأمثل للحصول على أفضل مردود، هذا المردود الذي سيعود على صاحب الأرض والبقر والعامل الذي هو الخماس، إذ بثبوت شركته في عائد الإنتاج سيزداد تمسكه بالعمل والحفاظ على أدوات الإنتاج وهو ما سيتطرق له المؤلف في :

موقف المؤلف من عمل الخماس.

«وإذا تبين الجواز في مسألة الخماس فلا إشكال أن المسامحة لأجل ضرورات الناس، فيسامح فيها ما هي عليه (....) فما يشترطه الخماس ويشترط عليه لا يمنع الترخيص وما ذكره بعضهم من (17) الخماس إذا اشترط عليه رعاية الثورين، أن ذلك مانع لا يسلم، لأن ذلك من إصلاح الحرث، لأن الخماس قد يشاركه صاحب الثيران الأعوام ولا الثيران يدرس عليها الزرع، وإن كان الذي يرعيه الخماس فرسا والزرع يحمل عليها وربما يحمل عليه زرع الخماس ويركب عليها في مصالح الزرع كثيرا، فهو كالعامل في المساقاة يشترط عليه العمل القليل لما يرجع للمساقاة عليه، وإذا ما اشترط عليه عمل خارج عن المزارعة فهذا من جملة عمله، ولكنه لا يرجع للمزارعة، ولم يكن هذا عند كل الناس وإنما هذا يكون هذا عند بعضهم إذا

(17) لعل أن سقطت.

كان الخماس غير متزوج يرعى البقر مثلا ويسوق له دواب مثلا للربيع ويأكل ويشرب عند رب الخروج فعمله في مقابل مؤونته، فإن لم يشترط فلا إشكال في جواز لأنه في المختصر جائز وهو قوله وإن كان مشترطا يخرج عن اجتماع الشركة والاجارة، وفي ذلك خلاف (....) بل الصواب هو ما الناس عليه لأن ضرورتهم أباحت لهم ما ارتكبوه والحكم لله اللطيف بعباده الرءوف بخلقه، وقد ظهر والحمد لله الجواز والسلامة من الإثم في شركة الخماس، وبهذا كله يستدل شركة العدول التي قدمنا عليها الكلام في شركة الأعمال فافهم هذا منصفا، ولا تضيق فإن الأمور أوسع (....) فالضرورة المبيحة لأكل الميتة ليست هي كالضرورة لأكل السفاتج (18) مع أن فيها سلفا جر نفعا فيكون تسليف الخماس كذلك وهو بالشروط بلا ريب (....) وضرورة الناس للحرث أعظم من هذا كله، لا يقال لا ضرورة تدعو للخماس، فإن صاحب الزوج يكتري من يحرث له ويستأجر من يحصد له وغير ذلك بالدراهم والدنانير، لأنا نقول من مازج الحراثين وعاين شدائد الحرث علم أن هذا السؤال ساقط غاية، وبيان ذلك أن أفعال الزرع ومشاقه كثيرة غاية، فإن الزرع يحتاج لمباشرة الحرث وليس كل الناس يحسن الحرث، والحرث نفسه فيه أمور فإنه يحتاج لربط الثورين بعد سوقهما لمحل الحرث وحفظ الآلة التي يكون بها الحرث، وهي كثيرة غير يسيرة ويرفع البذر لمحله ويبذره بعد تمطير الأرض (19)، ويحتاج من يرجع بالثورين لمحل مبيتهما وتقديم العلف لهما والتبن وسقيهما وإقامة نحو نوالة (20) ليبيتان فيها وإتيان تبن لهما، وربما يحتاج للمبيت معهما حين تكون السرقة إلى غير ذلك ثم إذا نبت الزرع احتاج إلى السقي إن لم يكن مطر في أرض السقي، ثم إذا كبر احتاج إلى دفع الطير عنه المبيد له، فإنه إذا تسلط على الفدان (21) الكبير يفني جميعه في ساعة من ساعات النهار أو أقل من ذلك، فإن طاب الزرع احتاج إلى الحصاد وفيه كلف (22) وإلى جمعه المطا (23) ثم نقله إلى الاندر، ثم إلى الدراس، وهذه أمور فيها مشاق عظيمة، وإلى جزر (24) الزرع وهو مط أو في الاندر قبل درسه وبعده ويدرونه ويجمعون تبنه إلى غير ذلك، فما هو معروف بالضرورة عند الناس. وحاصل ارتكاب هذه المشاق كلها هو الربح الذي جعله الله تعالى بفضله ورحمته، وهو الزرع الذي يخرج فإن أراد السائل أن رب الخروج يستأجر على هذه الأفصال كلها كل واحد يستأجر عليه وحده فهذا من الكلف العظيمة فإنه قد يجد الإنسان من يستأجر، ولا يناسب ما يريد، مع أنه لا يجد من يستأجره على كل ما يليق أصلا، مع أن الاستيجار على الوجه المذكور فيه مشقة عظيمة ولو وجد من يليق فيذهب يومه وهو يتفق مع هذا ويختلف معه، وبعد الاتفاق يحتاج من يقف مع الأجير ومن يذهب معه ليوقفه على ما يفعله وفي هذا من الكلف ما يعلمه سبحانه مع قلة أمانة الخدامين، وإن أراد السائل أن يستأجر على الجميع فالأجير يطلب تقديم الأجرة، لأن الكثير من الاجراء إنما يواجر نفسه لمعاشه حاضرا عاجلا، وإذا قدم الأجرة فربما يفر الأجير لأنه لا شيء له في الزرع يحبسه على الفرار، مع أن هذه الاجارة فيها جهل فإن الأرض تصعب وتسهل والزرع تارة إذا أصلحه الله غاية يحتاج إلى كلفة كثيرة باعتبار حصاده وجمعه ونقله وإن لم يكن غاية فمؤونته أقل.

قيمة الكتاب :

رغم أن الكتاب لا تتعدى عدد صفحاته 22 صفحة من الحجم الصغير، ورغم أن أكثر من نصفه عبارة عن نقول

---

18) هكذا وردت.

19) تمطير أي تحديد البقعة التي ستحرث في ذلك اليوم وتسمى أمطيرة أو أنطيرة وما زالت الكلمة مستعملة.

20) نوالة عرفة مصنوعة من القطب وسيقان الحبوب (السقف) تكون على شكل هرم دائري.

21) الفدان : قطعة أرض.

22) كلف، ج كلفة وهي الاجهاد والتعب.

23) المطا : تكويم لغمار على شكل صوامع سنابله إلى الداخل حتى لا يتعرض للتلف والكلمة ما زالت مستعملة.

24) لعلها حرس.

لفتاوي قيلت في الموضوع إلا أنه لا يخلو من فائدة حتى في تلك النقول التي رغم تعارضها أحيانا وانتقالها من قياس إلى آخر إلا أنها تبقى مرجعا كما أشار ذلك الأستاذ المنوني غنيا للباحث في التاريخ الاجتماعي، إذ بفضلها عرفنا أن النجاسة تباع في أيام الجوع، وأن النحل يربى ويعطى لمن يتعهده بالصيانة مقابل أجر معلوم، وأن القطن كان يزرع بالمغرب، والعامل فيه ليس كأي عامل، وإن عمل بالأرض السقوية يختلف أجره عن العمل بالأرض البورية.

بالإضافة إلى أن الخماس كان يشترط على صاحب الخروج المأكل والملبس والأضحية، وأنه كان أحيانا يخدم هذا الأخير حتى فيما لا يتعلق بالزراعة خاصة إذا كان أعزب.

كما أننا لا نهمل الوصف الجيد لعملية الحراثة من أولها إلى متمها مما يعتبر مفيدا لمن يريد المقارنة بين علاقات الإنتاج وأدواته في القرن 18 والعشرين ببلادنا.

زيادة على معرفة مواقف المفتين وعلاقاتها بالسلطة الحاكمة خاصة إذا عرفنا أن المؤلف كان قاضيا (27).

وإن جاء ناقصا غاية فربما تكون كلفته تخالف هتين الكلفتين باعتبار مخالفة تامة، وربما تكون الاجارة أكثر من الزرع كله، مع أن الاجارة على الزرع كله كان يحاول على جمع جميع الزرع حتى أن الخماس إذا سقطت السنبلة الواحدة رفعها لأن له فيها الخمس والإنسان مجبول على حب المال، حبا جما، ولا كذلك الأجير أو المقاطع (25) لأن مقصوده تحصيل أجرته لا غير ولذلك كثير من الناس الذين يعرفون حق الزرع يكره حصاد الشوال (26) والمقاطع ويهرب من التويزة وهي حصاد الناس بلا أجرة ولا شركة على عوائدهم المعروفة (....) ومن مازج الفلاحين عرف هذا كله فإن الخماس يحافظ على الزرع أكثر من رب الخروج لكثرة احتياجه إلى الزرع ولذلك انكب الناس على الخماس وتركوا الأجير هنا ولو كانوا عصاة أو كفارا (....) والناس أعرف بمعاشهم (....) وكثير من الفقهاء يصرحون أن شركة الخماس حرام وذلك جهل منهم وتشويش في الكلية على المساكين وهذا تأليف سميناه «رفع الالتباس عن شركة الخماس».

هكذا ترى أن المؤلف انطلق من معاينته لأوضاع الفلاحين ليقيم الحجة على أن ما افتى به غيره من الفقهاء في غير محله لعدم معرفتهم بالأوضاع الاجتماعية، وإذا كان قد استند إلى فتاوي غيره فلكي يربط ما بين ما سيفتي به وبين الأصول المعتمدة عادة في مثل هذا النوع الرأي، وهي ضرورة الإسناد والرواية.

بالإضافة إلى أنه وضف الاختلاف لصالح أطروحته فمادام هناك خلاف فالرأي للمصلحة ولمعاش الناس.

كرم إدريس

---

25) المقاطع : أجير لكن يؤدى له بالحبوب ويتفق مع على أن يعمل مع الخماس في جمع المحصول حتى الانتهاء.

26) لعلها الشوال بالشيق ويعني الحصاد المتجول، والمصطلح متداول.

27) انظر ترجمة المؤلف الحسن بن رحال بن أحمد التدلاوي ثم المعداني أبو علي المتوفي سنة 1728م في : شخصيات مغربية لمصطفى الشليح دعوة الحق : عدد 241 / أكتوبر 1984 الرباط ص : 77، وقد أورد المراجع التي تحدثت عنه.

ملاحظة : حاولت الا اتدخل في الكتاب أكثر مما فعلت كما أني أوردت أكثر ما يمكن من النصوص التي أرى أنه يمكن أن تفيد الباحثين السوسيولوجين والمتمشية مع العناوين المقترحة إذ الكتاب بدون عناوين وكلام الكتاب سواء كان للمؤلف أو لغيره وضعته بين قوسين أما الاحالات على الصفحات فغير مجدية لتكرر الأرقام.



زرت رفيقا قديما، وصديقا حميما، بعد طول غيبة، وسلامة أوبة، فألقيته مستغرقا في أحلامه وتأملاته، مستعرضا بعض ذكرياته ومغامراته، فما رآني حتى هش وبش وهب نشيطا قائما، بعد أن كان في بحر الذكريات عائما، وفي سماء الأحلام حائما.

قلت : فيم كان حلمك وتفكيرك ؟ ثم ما هو تفسيرك وتعبيرك ؟ قال : أحلامي حقائق ثابتة لا يعوزها تعبير، ولا تفتقر إلى تفسير، قلت : هلا أسمعتني ؟ وبقصها أمتعتني ؟ قال : ذلك عندي أدنى طلاب، يصدر من أعز الصحاب، قلت له : هيا، واستعد وتهيا، فشرع يقص في ذلاقة لسان وسحر بيان، وفي فصاحة أزرت بفصاحة (سحبان) :

☆ ☆ ☆

بعد رحيلي عن موطني، وتجشمي مشقة السفر المضني، أحسست عوالج الغربة، وآلمني فراق الأهل والأحبة. ورغم محاولات أسرتي، للحيلولة دون هجرتي، لأني كنت أكبر أنجالها، ومحط أمانيها ومعقد آمالها، فإن حلم انخراطي في البعثة العلمية الجديدة، واكتراع العلم من ينابيعه الثرة الصافية المفيدة، ثم اتخاذ الأصدقاء الجدد الأصفياء، والأخلاء الأوفياء، كل ذلك جعلني أصم على السفر، غير عابئ بما يحمله في طياته من مشقة أو خطر، وأضرب عرض الحائط بمحاولات الأسرة وتحوطاتها، و«بتعازيمها» وتمائمها وتوسلاتها.

وفي مقري الجديد، بـ (بيت المغرب) في القاهرة، وفي فصول الدرس المفيد، وساحات (الكلية) العامرة، اتخذت أصدقاء جددا، ونعمت بصحبتهم مددا، تعرفت على صديق من آل حمود، ملوك الفردوس المفقود، قال إنه إدريسي، يلتقي نسبه مع نسبي، فقلت : مرحبا بأنيسي، إنك وفق مطلبي، وتوطدت الوشائج بيننا وتبادلنا الزيارات،واشتغلنا سويا في مذاكرة الدروس وتكملة المحاضرات، كما كنا في أوقات الفراغ نخرج للفسحة تارة، ولارتياد المسارح ودور السينما تارة، ونخف لحضور المحاضرات والمناظرات المفيدة، التي تنظمها الجمعيات الثقافية العديدة.

كان الصديق عضو بعثة علمية، مغتربا مثلي بالقاهرة المعزية. عرفته على طائفة من رفاقي المغتربين، وعرفني

على أصدقائه من طلبة وفنانين ومطربين، وهكذا زرنا دار (الأطرش) بشارع الملك العادل، فشعرنا كأن الفن شخص أمامنا ماثل : وارتدنا كازينو صديقه (يوسف) ففتح لنا المجال، ووجدناه في وسطه الفني واسطة اللآلئ، تحوطه نخبة من الفنانين والفنانات، بل مجموعة من النجوم الزاهرات والكواكب النيرات، حتى إذا حان موعد «نمرته»، وغير من هندامه وشارته، اندفع باسما مسرورا، يسر محياه الناظرين ويشع نورا، فاعتلى خشبة المسرح النظيفة، ليردد «منولوجاته» الخفيفة، وانتقاداته الحصيفة، وليرضي جمهوره بحركاته اللطيفة، وغمزاته ولمزاته الظريفة.

ولا تستغرب اهتمامنا بمعالم الأدب والفن، فذلك شيء أردناه وتوخيناه، ولا تحسب أننا نمقت العلم أو تظن، أننا غير أدبي الاتجاه، بل هجيرانا الفن والأدب، وديدننا فيهما تحقيق الأرب، فهما بضاعة بلدنا المزجاة، وآمالها المترجاة، وتجارتها به نافقة سائدة، بينما تجارة العلوم به تكاد تكون بائرة كاسدة، لأن الكليات العلمية غير موجودة، وهيئة التدريس معدومة مفقودة، ولأن الدولة الحامية لا ترغب في تأسيس مبانيها، ولا تسمح في الدراسة والتدريس بها إلا لبنيها. تلك سنتها المتبعة، وطريقتها المبتدعة، فخير للجاهل في نظرها أن يبقى جاهلا، كيلا يثقل بمطالبه منها كاهلا.

وكان صاحبي يقرض الشعر، ويسمعني كل أسبوع قصيدة، فكنت أزجي له الشكر، وأشيد بقريحته وأطري نشيده، ثم لما أكمل الديوان طبعه، وكتب عميد الكلية مقدمته وشجعه، وتفضل فأهداني نسخة بإمضاء يده، مشفوعا بكلمة رقيقة تنم عن كرم محتده، ولكن عشرته لم تطل حتى ينال (دبلومه) العالي، بل سرعان ما عاد إلى وطنه الغالي، فترك قلب المودة الشجي، خليا أو شبيها بالخلي.

☆ ☆ ☆

وذات يوم جاءني (عبده) الذي كان يهتم بخدمتي عند زيارات الصديق، فجرى بيني وبينه هذا الحوار الرقيق الدقيق :

ـ أريد أن أقترح عليك صديقا جديدا، تمتد صداقته أمدا بعيدا، لأنه ليسكن هنا، في حي (الدقي) قريبا منا.

ـ الصداقة عملية تمارس وتجرب، وليست فكرة تقترح أو توهب.

ـ بإذن الله ستمارس إذ تقترح، وستبتهج بها وتفرح، إني أعرف شابا أنيقا عمرك عمره، صريحا واضحا عينه مخبره، ذا مكانة مرموقة مكرمة، ومن عائلة متوسطة الحال محترمة، كنت خادما عندهم، وبلوت حلوهم ومرهم، سأعرفك به قريبا، فتجده لبيبا أريبا.

كنت خادما عندهم وخرجت ! ولم فعلت وهم عندك بالصفة التي ذكرت ؟

ـ لذلك حكاية سأحيكها، وبعد التعارف ستدريها، حينئذ تعرف مكانتي، وتدرك أمانتي، على أني لم أخرج لغلطة شنيعة، أو جريرة فظيعة، فلو كان حدث شيء من هذا لما تذكرتهم، ولما سعيت في تعريفك بفرد منهم، على كل حال كن مطمئنا واثقا، من أن سلوكي كان ـ وما يزال ـ رائقا.

ـ إني مطمئن من ناحيتك وسيرتك، مؤمل دائما حسن تصرفك وجميل خدمتك، فهذه المدة التي قضيتها معنا، وأمضيتها عندنا، برهنت على صدقك في القول، وإخلاصك في العمل، والصدق والإخلاص أهم ما يرغب، وأعز ما يطلب.

ـ أشكرك كثيرا على إطرائك، وآمل البقاء دوما في مستوى إرضائك.

ـ آه لقد علمت ! والآن فقط فهمت ! لقد عاودك الحنين إلى الأسرة وسكنها، كما يعاود الناقة حنينها إلى عطنها، فأردت أن تقطع حبل الفصل، وتجعلني واسطة الوصل، أليس الأمر كذلك ؟ أم أن سرا آخر هنالك ؟

كلا لا حنين الآن يعاودني، ولا حاجة إليهم تقودني، كل ما في الأمر أني لا حظت الفراغ الذي تركه صديقك القديم، فأردت إسعافك بآخر مثله قويم، فلعله يكون محل ثقتك، ومنال رضاك ومقتك، حينئذ فقط أشعر بالفرح

والسرور، وأنعم بهدوء البال وراحة الضمير.

☆ ☆ ☆

وذات مساء كنت على الشاطئ أتمشى، فتراءى لي (عبده) وهو يخطر في الممشى، كان برفقته شاب في مقتبل العمر، فقلت : لاشك أنه الصديق المنتظر، شاب معتدل القوام، نظيف الهندام، مبيض البشرة محمرها، لابس نظارات طبية تعرفها عن بعد ولا تنكرها. سلم (عبده) وقدم الصديق الموعود، فرددت التحية وقلت : أهلا بالرفيق الودود !

تم التعارف وتوالى اللقاء، وزارني في البيت فعرفته ببعض الرفقاء، وزرته في منزله فازددت معرفة بمنزلته، وزاد فعرفني بكل أفراد أسرته، وأدركت أن التعرف خفف وقع الغربة، وأمدني بصديق المحبة، وشعرت كأني أعيش بين أهلي وعشيرتي، فشكرت لـ (عبده) سعيه لإيناس وحدتي، خصوصا بعد ما تلطفت والدة الصديق فزارتني مع أولادها غير البنات، أو عندما رافقتهم لحديقة (الأورمان) أو لحديقة الحيوانات، بغية الفرجة والتنفيس عن النفس. ثم الجلوس في المقهى لأخذ قسط من الراحة والأنس، كانت الأم تسألني عن بلادي، فكنت أنبئها عن طريفي وتلادي، وكنت وابنها الكبير نرطن بالإنكليزية تارة، وبالدارجة والعربية الفصحى تارة، ومرة كنا نتحدث في العلوم والآداب، ومرة نخوض في شؤون الشباب، بينما كان ولداها الصغيران يستأذنان لمشاهدة الفيل، وهو يرفع مروضه بخرطومه كأي شيء ضئيل، تحية لمن تبرع بقرش أو «بقشيش»، وأملا في بذل فول سوداني أو قبضة حشيش.

ربطتني بالصاحب وشائج المودة والموادعة، فلم تكن تفصلني عنه غير أوقات الدرس والمراجعة، لأننا وإن تقاربنا من حيث العمر الزمني، تباعدنا من حيث العمر العلمي والفني، كان ما يزال في مرحلة التعليم العام، بينما كنت في مرحلة التخصص الهام. على أني في آخر سنتي التخصص، كنت في البيت كالمتلصص، أسرق الوقت قبل أن يسرقني، وأهتبل الفرص قبل أن تفوتني، أدرس وأراجع وحيدا كالمعتاد، وحسبت الصديق يفعل ذات الشيء ويستعد نفس الاستعداد، فلم أشأ أن أمنحه للزيارة أو الفسحة ميعادا، تهربا من مسؤولية الرسوب وابتعادا، ولكني اكتشفت خطأ تخميني، في أول زيارة منه تأتيني، لقد فاجأني بزيارته، ليحرجني في الوقت ذاته، رحبت به مبتدرا، وقلت له معتذرا :

- لم أزرك شخصيا، ولا حدثتك هاتفيا، لأني - كما ترى - عاكف على الدرس والتحصيل، منكب على المذاكرة والشرح والتأويل، فهذه - كما تعرف - سنة التخرج ونيل الشهادة، وأريد النجاح بتفوق ودون تحرج أو إعادة.

- لم أجئ لأسمع منك الاعتذار، فإني أعرف فيك الجد والاجتهاد والاقتدار، إنما جئت عارضا عليك زيارتنا، لكي تشرف غدا بيتنا.

- هل يمكن أن أتساءل : ماذا جرى ؟ هل سيكتبون كتابك يا ترى ؟

- ياليت ! إنما جئت أعرض عليك أمرا مهما، لا أحسبك بتفاصيله ملما.

- مهم بالنسبة إلي أم بالنسبة إليك، قل الحق ولا عليك !

- مهم بالنسبة إلينا نحن الاثنين ! ألسنا صديقين حميمين ؟ ألسنا روحا واحدة في جسمين ؟

- ما دمنا من الوحدة بهذه الصفة، فلم هذه الكلفة ؟ البيت بيتي ! والوقت وقتي !

- يكتسي الأمر هذه المرة شيئا من الخطورة، لذا جئت أدعوك وأشرح لك ما دعت إليه الضرورة.

- زدني إفصاحا، زادك الله صلاحا، فإني لم أفهم شيئا صراحا، لم تدعوني لأزور بيتكم ؟ وبأية مناسبة سأكون ضيفكم ؟

- حدث أن تغيبت عن بيتنا العيد أو الشقي، فظنت الوالدة أن السبب لا أخلاقي، واتفقت مع أخي الكبير ليزورنا مساء غد (الجمعة)، على أن تتفضل أنت فتتقابل معه، لتجلية الغامض، وتحلية الحامض.

- وماذا تريدون مني في الأخير، وأنا منكم لا في العير ولا في النفير !

ـ أنت لنا الخير والبركة، في السكون والحركة، فأرجو أن تحضر معهم في الوقت، وتفهمهم بأني كنت معك في البيت.

ـ لكني لم أرك منذ مدة، لتغيبك عني أياما عدة، كنت أحسبك فيها عاكفا مثلي على الاستذكار، منكبا على الاستيعاب والاستحضار، وظننتك تستعد للامتحان، الذي يعز فيه المرء أو يهان.

ـ أجل، إني أستذكر وأستعد للامتحان، ولكن حدث أن تغيبت عن المنزل بعض الأحيان، فلاحظت أمي غيابي، وارتابت في سلوكي ففقدت صوابي.

ـ قلب أمك خبير، وحقها عليك كبير، لِمَ لَمْ تخبرها بالحقيقة فتريح بالها ؟ أو تعتذر وتستغفرها فتسبل عليك من المغفرة سر بالها ؟

ـ اعتذرت بأني كنت معك، وتغيبت عندك، فأمل أن تصادق على قولتي، وتعمل على تحقيق أمنيتي.

ـ لِمَ اخترتني أنا بالذات ؟ ولم تقل إنك كنت مع زميل لك تستعدان للامتحانات ؟

ـ لَمْ تخطر لي هذه الفكرة على بال، وقد «سبق السيف العذل» على كل حال، فقلت ما قلت، لا عن كراهية لك أو عقت، فالوالدة تثق بك وتصدق كلامك، وأملي أن تريني شهامتك وإقدامك.

ـ ليس هذا رجاء منك ترجوه، بل هو فرض علي تفرضه !

ـ هل يمكن أن تشرح الجملة شرحا، وتزيدها بيانا وتوضيحا ؟

ـ إنك ترجو مني الإقدام أمام أخيك وأمك، وتفرض علي أن أكذب أمام الله وأمام نفسك، هذا مطلب عسير، ومسلك خطير. لم أعتد في حياتي الكذب، لا عن رغب ولا رهب : ثم إن أخاك لا أكاد أعرفه، فكيف أجرؤ في أول جلسة فأكذب عليه وأبهته ؟ أعفني يا أخي من هذه المهمة، بل المصيبة الملمة، والفتنة المدلهمة.

ـ كيف أعفيك ؟ وقد سبق أن وضعت كل آمالي فيك !

ـ لست مسؤولا عن آمالك، ولا دخل لي في أقوالك وأفعالك.

ـ الأمر خطير بالنسبة إلي، ووالدتي غاضبة علي، فأرجو موافقتك، وإلا اعتبرت نفسي ضحيتك.

ـ والدتك قد تصدقني وتثق بكلامي، ولكن أخاك الضابط رجل عسكري نظامي، ونحن طلبة علم أو مجرد مراهقين، فكيف أضمن ألا ينظمنا في سلك المارقين ؟

ـ هذا مطلبي الوحيد، ولن أطالبك بعده بشيء جديد.

ـ قد أستجيب لمطلبك، وأتصرف وفق مشربك، لكني أشترط شرطين... فلا ترتبك !

ـ عال...!... عال...! سأنفذ شرطيك في الحال.

ـ شرطي الأول : أن تذكر لي الحقيقة، كل الحقيقة، ولا شيء على الحقيقة.

وشرطي الثاني : ألا تغيب ـ بعد هذا ـ عن البيت، وتعتذر لي بكيت وزيت.

ـ أولا : الحقيقة تكمن في الجملة المعروفة، لدى الفرنسيين عندما تحزبهم مشكلة مخوفة : فتش عن المرأة Cherche la Femme، و(مدام ريجي) هي المراد هذه المرة !

ـ حقيقة جديدة لم تفه بها إلا الآن، وهي فعلا من الخطورة بمكان ! ثم من هي (مدام ريجي) وأين وجدتها ؟ ومتى وكيف عرفتها ؟ ولم تركت لها الحبل على الغارب، حتى ألهتك عن كل واجب ؟ بل كيف سمحت لنفسك أن تصنع ما صنعت، لتطلب مني التستر على ما اقترفت ؟ ثم أين زوجها هذا الذي تخونه، ولا ترعى حقه ولا تصونه ؟

ـ إنه ضابط في جيش (فرنسا الحرة)، غاب عن المنزل مرة ومرة، وبقيت المرأة مستوحشة حزينة، فتعرفت عليها ووجدتها فريسة ثمينة، ولا أخفي عنك أنها خلبت لبي، وغزت بل أحرقت قلبي، ولم أشعر إلا وقد استحوذت علي، فغرقت ـ كما ترى ـ في هذا البحر اللجي، أفلا تنقذ الغريق ؟ أفلا تطفئ الحريق ؟ إن الوالدة بك واثقة، ولسلوكك وامقة، ولإجابتك الشافية تائقة.

ـ قد يكون ما تقول حقا، وقد لا يكون صدقا، فإذا

كان فلم أراك الآن، تسعى لهدم تلك الثقة، ومحو هذه المقة ؟

- لا تخش محوا ولا هدما، ولا تخف ظلما ولا هضما... وثانيا : أعدك الآن بعدم الأوبة، إلى ارتكاب مثل هذه الغيبة.

- الآن يمكن أن أكون طوع أمرك، ورهن تصرفك، لكنني مع ذلك مازلت أود لو تركتني وشأني، فأني أكره التدخل فيما لا يعني !

- ألا يعنيك الوقوف معي في أحرج الأوقات ؟ ألا يحلو لك انتشالي من شر الأزمات، فتؤدي لصداقتنا أجل الخدمات ؟

- على كل حال دعني أفكر وأقدر، وأزن الأمور وأدبر.

- أتركك ولا أنساك يا عزيزي الألمعي، وغدا سأجيء قبل الميعاد لأخذك معي.

☆ ☆ ☆

وفي الغد جاءني الصديق، لمرافقتي في الطريق، فوجدني متأهبا للموعد، مستعدا أو شبه مستعد، وتوجهت معه للمنزل، غير هياب ولا وجل، ولقرب المسافة وصلنا بعد برهة، فدخلت ودخل معي إلى الردهة، فوجدنا الأم والأخ جالسين، ولوصولنا منتظرين، سلمنا وجلسنا، وساد الهدوء فصمتنا. وصرنا جميعا ننتظر الدخول في الموضوع، على أن كل واحد يأمل أن يكون السامع لا المسموع، وحملقت العيون وتنقلت في أجواء الغرفة، وهفت القلوب في شيء من اللهفة، ولا حظت أن معظم الأنظار مصوبة إلي، فكأن المسؤولية كلها ملقاة علي، أو كأنني أنا المقصود، وأمثل - وحدي - بيت القصيد.

وحملقت بدوري فاستشففت في نظرات صاحبي أملا وتوسلا، وفي نظرات والدته تدبرا وتأملا، أما نظرات أخيه الضابط، فكانت قلقة لا يكاد يضبطها ضابط، فهي تارة ترمي بالشرر، وتومئ بالضرر، وتارة توحي بالأمل، وبخير العمل... وأخيرا رأيته يتحرك في مجلسه، ويستجمع شتات نفسه، فكأنه قد كون فكرة مسبقة، أو بيت رأيا يريد أن يطبقه.

وبدأت الوالدة الحديث وهو ذو شجون، وله - كما للجنون - فنون، فأصغت آذاننا لقولها، وصغت قلوبنا لقيلها، وبعدها مباشرة تحدث الأخ الأكبر، ليفسح المجال بعده لدوري الأخطر... وخطر لي أن أستوحى ما وقع في فترة سابقة لفترة (المدام)، فقلت كلاما لا يستوجب أي ملام :

- خرجنا ذات ليلة وتفسحنا، وشاهدنا مسرحية أمير الكوميديا نجيب الريحاني فتأخرنا، كان عنوان المسرحية «الدنيا على كف عفريت»، فرأى ابنكم - وقد تأخر - ألا يزعجكم في المبيت، مشى معي إلى البيت ففضل البقاء، وتفضل فتناول معي طعام العشاء، ثم حان موعد النوع فنام في سرير فارغ، وهذا فيما أعتقد تصرف معقول سائغ، فلا داعي للقلق على ابنكم، فهو عندي إن لم يكن عندكم، إنه لي أعز صديق، بل أراه بمثابة أخ شقيق !

تململ الضابط في مقعده كمن يستعد للنضال، أو يتهيأ للإدلاء بفصل المقال، فهل فكرة الوساطة، ستؤدي مهمتها ببساطة ؟ وهل الحقيقة التي ذكرتها، ستبدد كل شبهة تخيلتها ؟ وهل في مقدور هذا الاجتماع، أن يفض ما نشب من نزاع ؟

وتحدث الضابط بعد قليل، فأعرب عن رأي يشفي الغليل :

- كنا نظن القضية أخطر مما ذكرت، وأدهى مما صورت، لكنها - والحمد لله - بدت بسيطة عادية، فلا خوف على أخينا من هذه الناحية.

- لقد قلت ما اعتقدته ورأيته رأي العين، دون زيادة أو نقص أو مين.

- إني الآن مرتاح لما بينكما من علاقة، ومطمئن لوشائج الأخوة والصداقة.

ورميت ببصري نحو من حضر، لألحظ ما ارتسم على الأوجه من أثر، فوجدت الكل مبتهجا منشرحا، وبالنتيجة مقتنعا فرحا. واعتقدت أن الاجتماع أسفر عن فوز، وأن معرفة الرجال كنز... ثم تذكرت من كانت السبب في كل

ما جرى، وأحدثت من الفتنة والريبة ماطرا، وأعني (مدام ريجي) التي لمتها، ومن كل قلبي كرهتها، رغم أني لا أعرف رسمها، ولم أسمع إلا اسمها، فتذكرت قول الشاعر الأعمى بشار بن برد : والأذن تعشق قبل العين أحيانا، فقلت أنا من بعد : والأذن تكره قبل القلب أزمانا.

مر الوقت وحان موعد الفراق، فسادت جو القاعة أصوات التوديع والعناق. ثم أممت أنا الباب وخرجت، ولـ (بيت المغرب) رجعت، فوجدت الكتب والمذكرات تنتظرني، والامتحانات على الأبواب ترقبني، وما حل موعدها حتى تقدمت، وبالله استعنت وعليه توكلت ولما أعلنت النتائج الناجحة، كانت نتيجتي من بينها طيبة رابحة، فحمدت الله على هذه الجدوى، وشكرته في العلن والنجوى.

☆ ☆ ☆

ولما أحسست من رفيقي القديم، وصديقي الحميم، أن قصه أشرف على التمام، وأنه يميل إلى ختم الكلام، والارتماء في أحضان الراحة والمنام، حينئذ ودعته وانسحبت في انتظام، وأودعته في أمن من الله وأمان وسلام.

تطوان : د. عبد الله العمراني



القاهرة

الدكتور
محمد كمال
شبانة

لاشك أن مصر من الأقطار الإسلامية التي رحبت بالفتح العربي، وأن تأثير العرب فيها كان أشد عمقا وأكثر تأثيرا من أي قطر دخله الإسلام، بالرغم من أنها قاومت قبل ذلك نفوذ دول أخرى حاولت فرض سيطرتها عليها، ولا سيما الاغريق والرومان، ولكن المصريين سرعان ما اعتنقوا دين العرب وتحدثوا اللغة العربية، فصاروا عربا خلصا، وبذا نلحظ أن حضارة الإسلام قد أزالت من طريقها حضارة الفراعنة وما تلاها من حضارات إغريقية أو رومانية. - وإن الدارس للآثار العربية - التي مازالت ماثلة للعيان حتى وقتنا الحاضر - ليشهد بأن العرب لم يقتبسوا شيئا من فن المعمار الذي سبقهم في شتى أنحاء الديار المصرية.

ولعل السر في تقبل المصريين للدين الإسلامي في سهولة ويسر، وسرعة تجاوبهم مع الظروف الجديدة... ما سبق أن عانت منه البلاد من جراء الغزاة الذين توالوا عليها من قبل، والذين عاثوا في مصر فسادا، وتسلط حكامهم على أهلها بالقهر والجبروت، لذلك حقد سادة البلاد وأعيانهم على هؤلاء الحكام، وتطلعوا إلى ساعة الخلاص،

وفي الوقت نفسه كان المصريون قد تسامعوا بما تضمنه الدين الإسلامي من المبادئ السامية، وفي طليعتها المساواة، والعدالة المطلقة، والمثل الصالح من الحاكم، وذلك في الوقت الذي كانت فيه الجيوش العربية قد اكتسحت مناطق الشام، ويممت وجهها شطر الغرب نحو القارة الإفريقية، وكانت مصر في مستهل الطريق إليها.

لقد تم فتح الديار المصرية على يد القائد عمرو بن العاص في السنة الثامنة عشرة من الهجرة (639م) في عهد الخليفة عمرو بن الخطاب، وقد كان عمرو من أولئك القادة المهرة الأذكياء، فلم يتعرض لديانة أهل البلاد ولا إلى عاداتهم ولا إلى تقاليدهم، وإنما فرض جزية رمزية على من لم يسلم لقاء الحماية وتوفير الأمن للجميع، ومع جسامة الخسارة التي لحقت بالجيش الإسلامي في إخضاع

الاسكندرية، إلا أن عمرو بن العاص كان مثالا في السماحة والذكاء، إذ تعهد لأهل الثغر - بعد تسليم المدينة - بأن يصلح بها ما أفسدته الحرب في كافة النواحي والمرافقم ولم يعبأ بحجم الأموال الطائلة التي تم إنفاقها في هذا السبيل، فاكتسب بذلك القلوب، ومالت إليه النفوس.

وتحط رحال الجيش الإسلامي في بقعة داخل مصر بين المقطم والنيل، حيث نصب فسطاط القائد، وأقيمت حوله الأكواخ البسيطة التي صارت فيما بعد سكنا للجنود ومنازل - للقواد، وسميت المنطقة حيث نزلوا بالفسطاط، والذي أعجب عمرو بموقعه، فحصنه بالأسوار، وأنشأ به مقره، وأضحى المكان عاصمة لمصر منذ ذلك الحين.

ولقد حالف التوفيق عمرو بن العاص في اختياره «الفسطاط» حاضرة، لإشرافه على الوجهين الشمالي والجنوبي من الديار المصرية، ولقرب الطريق إلى بلاد العرب.

وقد اختلف المؤرخون حول تسمية حاضرة الإسلام الأولى في مصر «بالفسطاط»، فقال بعضهم : إن عمرو بن العاص لما أراد المسير إلى الأسكندرية أمر بفسطاطه أن يرفع، فإذا بيمامة قد باضت في أعلاه، فقال : لقد تحرمت بجوارنا، أقروا «الفسطاط» حتى يطير فراخها، فأقر في موضعه، فبذلك سميت الفسطاط، وذكر ابن قتيبة أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط، أما «بطلر» فيقول : إن مدينة الفسطاط مأخوذة من لفظ Fassatum ومعناه «مدينة حصينة»، أخذه العرب عن الروم أثناء حربهم في الشام، وربما كان هذا أرجح الأقوال» (1).

وقد دامت «الفسطاط» كمقر للإمارة وحاضرة لمصر الإسلامية حتى أنشئت «مدينة العسكر» عام 132 هـ، حيث سكنها أمراء مصر واستقروا بها.

جامع عمرو بن العاص :

لقد كانت الضرورة تلح على المسلمين - وقد زاد عدد النصارى المصريين الذين أسلموا - أن يقيموا مسجدا، خاصة وأنه لم يكن بمصر قبل الفتح العربي مساجد تذكر، فأسس القائد عمرو بن العاص المسجد الذي اقترن باسمه سنة إحدى وعشرين من الهجرة، وكانت إقامته إلى الشمال من حصن بابليون، وكان طوله خمسين ذراعا وعرضه ثلاثين، وهو بهذا كان في بداية أمره محدود المساحة جدا بخلاف ما هو عليه حاليا من الاتساع، كما لم يكن به محراب مجوف كالمعتاد في المساجد الكبرى، فقام والي مصر من قبل الوليد بن عبد الملك (86 - 96 هـ) ببناء محراب مناسب.

وقد كان للمسجد بابان قبالة دار عمرو، بالإضافة إلى بابين شمالا وبابين غربا، وكان سقفه منخفضا كثيرا، علاوة على أنه لم يكن يتوفر على فناء في وسطه أو خارجه على ما هو معهود في معظم عمارة المساجد الإسلامية، ومازال المسجد قائما حتى الوقت الحاضر، بعد أن تناولته أيدي الخلفاء والأمراء بعدئذ بالإضافات والترميمات، حتى غدا في صورته الحالية، مكتسبا أهمية تاريخية بالغة، من حيث كونه أقدم مسجد إسلامي أقيم بالديار المصرية، وفي نفس البقعة التي حط فيها القائد العربي الفاتح عمرو بن العاص رحله.

ويطلق على هذا المسجد أيضا المسجد العتيق، وتاج الجوامع، والمسجد الجامع (2). وتجدر الإشارة إلى أن الخلفاء الفاطميين كانوا يصلون الجمعة الثانية من شهر رمضان في الجامع الأزهر، والثالثة في الجامع الأنور المعروف بجامع الحاكم (ومقره بمصر القديمة)، والرابعة في جامع عمرو بالفسطاط، أما الجمعة الأولى فكانت راحة. وظل تقليد صلاة ولي الأمر الجمعة الأخيرة من رمضان في جامع عمرو معمولا بها في مصر حتى ثورة 1952م (3).

لقد كان جامع عمرو بمصر هو المسجد الجامع الوحيد الذي اشتملت عليه مدينة الفسطاط في عهد الخلفاء الراشدين الأربعة، بل وفي زمن الدولة الأموية، ثم اتخذت عمارته نموذجا لفترة طويلة للمساجد التي أقيمت بعده، فقد كان رسم المساجد الإسلامية الأولى بسيطا، فمن يمعن النظر في أحدها يميزها كلها لأول وهله، فيتألف كل واحد

1) تاريخ الإسلام السياسي، للدكتور حسن إبراهيم، جـ 1 ص 520.

2) ابن دقماق، جـ 4 ص 59.

3) مجلة الأزهر، جـ 3، السنة 50 (رجب 1398 هـ / يونيو 1978م) ص 653 - 654.

من تلك المساجد من ساحة مستطيلة محاطة بأورقة واسعة، ذات سقوف مستندة إلى صفوف كثيرة من الأعمدة، ويخصص أكبر تلك الأروقة الأربعة مكانا للعبادة، ويقع في وسط تلك الساحة بركة للوضوء، ويقوم على أركان المسجد أبراج مرتفعة تسمى مآذن.

«وتتقدم أكثر المساجد القديمة ساحة محاطة بمساكن للغرباء، واسطبلات للخيل والجمال وحمامات للعامة، ومناهل للشرب، فليست المساجد الأولى أماكن للعبادة وحدها، بل هي منازل للمسافرين أيضا» (4).

وتقوم الحكومة المصرية حاليا بمجهودات ضخمة في سبيل إحياء هذا الترات العظيم، وذلك بالإصلاحات والترميمات اللازمة للمسجد، بعد أن قررت جعله نواة لجامعة إسلامية، تدرس فيها العلوم العربية والدينية خاصة، وأطلق على هذه الجامعة «جامعة عمرو بن العاص»، اعترافا بفضل هذا الفاتح العربي على هذه الديار...

وقد تلا إقامة مسجد عمرو هذا إنشاء العديد من المساجد الإسلامية التي وسعتها مدينة القاهرة على مر العصور الإسلامية التي تلت عصر الفتح الأول، ولعل أبرز هذه المآثر من المساجد، جامع أحمد بن طولون (243 هـ - 866م)، ومسجد السلطان قلاوون - (863 هـ - 1283م)، وجامع السلطان حسن (757 هـ - 1356م)، وجامع برقوق (784 هـ - 1384م)، وجامع المؤيد (818 هـ - 1415م)، وجامع قايتباي (862 هـ - 1368م) وغيرها من المساجد الأولى التي أقيمت يومئذ حتى نهاية القرن الخامس عشر، أما المساجد التي أنشئت بعد ذلك في العصر التركي فقد كانت دون ما ذكرنا بكثير من حيث فن العمارة التي امتازت بها تلك المساجد، فقد انفرد كل منها بسابقة معمارية، الأمر الذي نفتقده في فن المساجد التركية بمصر، وكذا الأمر فيما تلا تلك الفترة، ومع هذا فقد حق القول لبعض المؤرخين أن يطلق على القاهرة «مدينة الألف مئذنة»، تفسيرا لذلك الانتشار السريع في بناء المساجد على مر العصور بحاضرة الديار المصرية.

على أن أبر تلك الآثار الإسلامية في القاهرة هو

4) حضارة العرب، لجوستاف لوبون ص 284.

مسجد «الجامع الأزهر» (359 هـ - 970م)، من حيث التاريخ والظروف التي صاحبت إنشاءه، وأثره البالغ في العالم الإسلامي منذ إنشائه وحتى اليوم، وسنتحدث عنه بإسهاب عقب الحديث عن «مدينة القاهرة» التاريخية.

الفاطميون وتأسيسهم مدينة القاهرة :

من المعلوم أن مصر خضعت للخلافة المشرقية (639م - 870م)، ثم استقل ولاتها حيث أسوا الدولة الطولونية (870م - 915م)، ثم استرد العباسيون حكمهم لها لفترة محدودة (905م - 934م)، ثم أنشئت بها الدولة الأخشيدية التي لم تدم طويلا، (934م - 972م)، ثم استولى عليها الفاطميون القادمون من الغرب (972 - 1121م)، ودامت سلطتهم عليها تلك الفترة التي بلغت مصر فيها شأوا عظيما، رقيا ورخاء في جوانب شتى من الحياة المصرية.

ولتوضيح ذلك، نذكر أنه ما أن تم لجوهر الصقلي فتح مصر عام 359 هـ عدل عن اتخاذ كل من الفسطاط والعسكر حاضرة للفاطميين، وأخذ على عاتقة إنشاء حاضرة بديلة لتكون مقرا للدولة ومركزا لنشر الدعوة الشيعية، ولكتون حصنا حصينا ضد غارات القرامطة الذين ما فتئوا يهددون الحدود الشمالية للديار المصرية، الأمر الذي حدا بهؤلاء الفاطميين إلى تأسيس القاهرة (17 شعبان سنة 359 هـ).

وكان التخطيط للمدينة يقتضى إنشاء قصر للمعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين بمصر، ثم قامت كل قبيلة من البربر بإنشاء خطة تنسب إليها حول القصر، كما قام الروم بتأسيس خطتين لهما، إحداهما في حارة الروم الخارجية، والأخرى في حارة الروم الجوانية قريبا من باب - النصر، ومازالت بعض هذه الخطط قائمة حتى اليوم، بل وتحمل المنطقة نفس الإسم وهو «حارة الروم».

ويروى أن جوهر بعد أن أكمل بناء المدينة - أحاطها بسور عظيم، وسماها «المنصورية» نسبة إلى المنصور ابن المعز، وقد بقيت هذه التسمية قائمة حتى وصل المعز إلى مصر، فأبدل التسمية بـ «القاهرة المعزية».

ويذكران موقع المدينة كان شمالي الفسطاط، ممتدة من منارة جامع الحاكم حتى باب - زويلة، أما حدودها

الغربية فتشمل باب السعادة، وباب الفتوح وباب الخوخة، من جهة الشمال تحد بباب النصر، ومن الجنوب بباب زويلة، ومن الشرق بباب البرقية والباب المحروق، فكانت القاهرة يومئذ عبارة عن أحياء جامع الأزهر، والجمالية، وباب الشعرية، والموسكي، والغورية، وباب الخلق (5).

وتمتاز عمارة القاهرة المعزية ـ علاوة على أسوارها التي وضعت الخطط السكانية ـ بأبوابها الفريدة، فمن أشهرها : بال الفتوح، وباب زويلة، وباب النصر، وباب العبيد، وقد أعيد بناء الأسوار وكذلك الأبواب علي يد أمير الجيوش بدر الجمالي عندما تولى الوزارة عام 465 هـ، فقد «أعاد بناء السور والأبواب بالحجر قريبا من مواضعها أولا، وكانت مبنية باللبن، فنقل باب النصر الذي بناه جوهر إلى المكان الذي به الآن، كما بنى باب الفتوح حيث يبدأ شارع المعز لدين الله الفاطمي بجوار جامع الحاكم، ونقل باب زويلة (نسبة إلى قبيلة زويلة المغربية) إلى حيث موضعه الآن، وهو المعروف عند العامة بـ «بوابة المتولى» (نسبة إلى متولى الحسبة)، وكان باب زويلة يتكون من بابين متجاويرين عند سبيل العقادين الآن، ونقل باب النصر ـ وكان على مقربة من مدرسة القاصر ـ إلى موضعه الحالي، وكانت هذه الأبواب الثلاثة ـ التي جدد بناءها بد الجمالي ـ من عمل ثلاثة إخوة من مدينة الرها (6)».

وقد وصف المؤرخ المصري على باشا مبارك مدينة القاهرة في عهد الخليفة المعز، فقال : «شكل مدينة القاهرة ـ في أيام القائد جوهر كان مربعا تقريبا، ضلعه ألف ومائة متر، ومساحة الأرض المحصورة فيه ثلثمائة وأربعون فدانا : منها سبعون فدانا بنى فيها القصر الكبير، وخمسة وثلاثون فدانا للبستان الكافوري، ومثلها للميادين، فيكون الباقي مائتي فدان هو الذي توزع على الفرق العسكرية، في نحو عشرين حارة بجانبي قصبة القاهرة، وكان سور المدينة الغربي بعيدا عن الخليج بنحو ثلاثين مترا، وفي سنة ست وثمان وأربعمائة ـ إبان وزارة بدر الجمالي وخلافة المستنصر بالله الفاطمي ـ هدم هذا السور، وبنيت الأبواب من الحجر» (7).

هذا، ويروى أن القاهرة كانت تضم الفسطاط القديمة وأجزاء مجاورة لها، ولم تعد الفسطاط اليوم الاضاحية منها (قصر المدينة)، وقد تم إنشاء القاهرة بعد وضع حجر أساسها بنحو ثلاث سنين، وقد أنفق الخلفاء الفاطميون قدرا هاما من ميزانية الدولة في سبيل رقيها وتجميلها، وتبارى الخلفاء الذين توالوا عليها ـ متنافسين في ازدهارها وتطويرها، بل وسار المماليك ـ عبد الفاطميين ـ على نفس المنوال نحوها، إلا أن حركة العمر أن بالقاهرة قد توقفت أو كادت فترة تولى الأتراك حكمها، بالإضافة إلى إهمالهم مبانيها التاريخية.

وتجدر الإشارة ـ في نهاية الحديث عن تأسيس القاهرة أن المعز لدين الله الفاطمي دخلها عام 362 هـ (973م) بعد أن استكمل البناء تقريبا، وتم إنشاء الجامع الأزهر مقر الدعوة الفاطمية ونشر المذهب الشيعي.

الجامع الأزهر :

يعرف بـ «جامع القاهرة» كما يعرف بـ «جامع المعز» وقد كان من عادة معظم الفاتحين العرب أن يتتبعوا إنشاء المدن بإنشاء مسجد جامع للمدينة الجديدة، وهكذا أنشئ الجامع الأزهر مع إنشاء القاهرة الفاطمية، بحيث بدئ في بنائه بعد بضعة شهور من بداية بناء القاهرة، وافتتحه القائد جوهر الصقلي لصلاة الجمعة يوم 7 رمضان عام 361 هـ 21 إبريل 972م). وقد اختير اسم الأزهر زمن الفاطميين، ليسير على نفس نمط تسمية مساجد ـ أخرى سبقته، وقاموا بإنشائها كالأقمر والأفخر والأنور. ويرى بعض المؤرخين بالإضافة إلى هذا الاستنتاج أن اختيار إسم «الأزهر» يرجع إلى لقب السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ، والدة الإمامين الحسن والحسين، وإلى الإمام الحسين ينتسب ـ الفاطميون، فجدهم إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق، والأخير هو الإمام السادس عند الشيعة الإمامية والإسماعيلية، فتكون تسمية «الأزهر» على هذا تيمنا بالزهراء، وإحياء لذكراها.

5) الخطط، للمقريزي، جـ 1 ص 283.

6) تاريخ الإسلام، جـ 1 ص 412.

7) الخطط التوفيقية، جـ 1 ص 81.

وضع أساس الجامع الأزهر في 14 من رمضان عام 359 هـ (970م)، وقد استغرق البناء حوالي سنتين، وإن الداخل لهذا المسجد ليلاحظ أنه عبارة عن قسمين متصلين، فقسم مسقوف يسمى بالمقصورة وهو خاص بالصلاة، والقسم الآخر وهو غير مسقوف ويعرف بصحن الأزهر، وهذا بخلاف الإضافات التي تلحق بالمساجد عادة، مثل الميضأة والمنارات وغيرها من الغرف، فأما المقصورة الأساسية فهي التي بناها جوهر الصقلي، وترتكز على ستة وسبعين عمودا من الرخام الأبيض اللون في صفوف متوازية، ثم أقام الأمير عبد الرحمن كتخدا مقصورة أخرى ذات خمسين عمودا من الرخام أيضا، وهكذا أضحى للمسجد مقصورتان بهما مائة وستة وعشرون عمودا، ويلاحظ أن المقصورة الإضافية ترتفع بنحو ذراع عن المقصورة الأساسية، وهما متلاصقتان، وأن سقفهما قد صنع من الخشب بإتقان، كما أن لكل مقصورة نوافذ تسمح بدخول الهواء والضوء.

أما صحن الجامع فهو مكان منبسط فسيح، تحيط به أقواس ترتكز على ثلاثمائة وثمانين عمودا من الرخام السماقي والمرمر والجرانيت، وربما اتخذت تيجان تلك الأعمدة من أبنية قديمة، وقد زينت الحيطان من حول الصحن بالآيات القرآنية المزخرفة بالخط الكوفي.

فإذا اتجهنا... إلى المحراب فنجد أن «القبلة القديمة» كان قد أنشأها جوهر في بداية الأمر، وهذا هو المحراب الأصلي، حيث أنه قد أقيمت بعدئذ تسعة محاريب أخرى، بيد أنه لم يبق منها الآن سوى ستة فقط، أشهرها إثنان، أحدهما يعرف بالمقصورة القديمة، والآخر بالمقصورة الجديدة، ولكل منها إمام ذو مذهب يخالف مذهب الآخر، وقد زين كلا المحرابين بالنقوش الجميلة.

ويبدو أنه لم يتخذ للمسجد على مر العصور الإسلامية سوى منبر واحد، وهو القائم حاليا، وشكله مخروطي قد صنع من الخشب في دقة واتقان، فبدا غاية في الروعة والجمال، مع ملاحظة أن المنبر الأصلي - الذي أقيم عند البناء - نقل إلى جامع الحاكم بأمر الله.

أما المنارات فقد أنشئ منها عند التأسيس واحدة، ثم صارت له خمس منارات بعدئذ، «وكانوا يعرفون أوقات الصلاة عن طريق الميقاتي، ومهنته التنبيه على أوقات الصلوات، وكان يعرف الأقوات بالنظر في «المزولة» التي لا تزال قائمة إلى اليوم على أحد جدران صحن الأزهر، وكانت مساجد القاهرة تتبع أصوات المؤذنين في الأزهر في الأذان».

ولقد أولى كثير من الخلفاء والسلاطين - الذين توالوا على حكم مصر - الأزهر عناية ورعاية، فقد زادوا في بناياته ولا سيما من الخارج، حيث أقاموا مساكن للطلاب تحيط به من الجهات الأربع، وسميت هذه المساكن بـ «الأورقة» فهذا رواق المغاربة، وذاك رواق - الصعايدة، وهكذا... قد أفرد لكل مجموعة وافدة أو غير وافدة رواق خاص يحمل إسمها، ومازالت هذه الأروقة بمسمياتها باقية حتى اليوم، وقد أوقف الخلفاء على الأزهر وطلابه الأحباس، وقدموا إليه الهبات والعطايا في مناسبات شتى، وقد اشتهر من بين هؤلاء العزيز بالله الخليفة الفاطمي، الذي يعزى إليه بناء دار خاصة - بجوار الأزهر - بجماعة من الفقهاء بلغت عدتهم خمسة وثلاثين، وقد أجرى عليهم الأرزاق، وقد عرف عن هؤلاء الفقهاء يومئذ أنهم كانوا يجتمعون بعد صلاة الجمعة بحيث يتلون القرآن الكريم حتى تحين صلاة العصر، إلى جانب تدارسهم للعلم، وتبصير الناس بشئون دينهم.

هذا، وإن مسجد الأزهر قد أقيم أساسا كغيره من المساجد - لأداء الصلوات المفروضةم ولكن مع ملاحظة أن إقدام الفاطميين على إنشائه لينفرد بنشر مذهبهم الشيعي، وبذلك لا يلحقون ضيقا للمذهب السني في المساجد الأخرى، والذي كان هو السائد في الديار المصرية قبيل قدوم الفاطميين، وقد تطورت رسالة الأزهر يوما بعد يوم، «ولم يلبث أن - أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحدث مختلف العلوم والفنون، ففي سنة 378 هـ أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز بتحويل الأزهر إلى جامع تدرس فيه العلوم الدينية والعقلية، وسرعان ما أصبح الأزهر مثابة علمية، وقد عمل الخليفة العزيز ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين على جذب طلاب العلم إليه من كافة أرجاء البلاد الإسلامية، بما كانوا يقدمونه إليهم من المأكل والمسكن، وما يوفر لهم

من وسائل المعيشة وأسباب الراحة من غير أجرة (8).

هكذا يحتل الأزهر مكانة مرموقة بالنسبة للدور الذي اضطلع به منذ أكثر من ألف سنة، بحفاظه على العلوم الدينية والدراسات الإسلامية، ونشره للغة العربية على مستوى العالم الإسلامي، بحيث ينفرد بكونه أول جامعة تتكفل فيها الدولة بالانفاق على أساتذتها ومساعدة طلابها، بالإضافة إلى العلوم المختلفة التي كانت تدرس في الأزهر، والتي لم تكن قاصرة على العلوم الدينية والأدبية، بل كانتدرس فيه كذلك العلوم العملية كالرياضة والفلك والطب والهندسة وغيرها، ولعل موقع مصر - كقلب للعالم الإسلامي ومكانتها بينه - لما يجعل الأزهر قبلة للطلاب، ومقصدا لرواد الثقافة، وقد شهد كثيرون منالمؤرخين العرب وغيرهم بذلك، ونذكر من بين المستشرقين - على سبيل المثال - شهادة «جوستاف لوبون» الذي يقول :

«ويتمتع الجامع الأزهر - الذي بدئ بعمله منذ سنة 375 هـ - بشهرة واسعة بين المساجد الإسلامية، وللجامع الأزهر الآن تأثير كبير في بلاد الإسلام، والطلاب يقصدونه أفرادا وإرسالا من أنحاء العالم الإسلامي، وكيف لا وهو الملجأ الأخير لعلوم العرب في الشرق، وفي الجامع الأزهر أساتذة يقبضون رواتبهم من دخله (الأوقاف المحبسة). ويدرسون فيه العلوم والآداب والتوحيد والفقه والطب والفلك والرياضيات والتاريخ، وكان عدد طلابه إثنى عشر ألفا فيما مضى، ولا يقل الآن عن ذلك العدد كثيرا، ويقوم بنفقات طلابه الفقراء».

وفي العصور المتأخرة نرى أن الدراسة بالأزهر قد تفرعت إلى قسمين :

القسم العام : وهو عبارة عن الحلقات التي كانت تعقد بالمسجد نفسه، وكل أستاذ يتخصص في نوع من العلوم الدينية أو اللغوية، ويتلقى الطلاب هذه الدروس - بأنواعها فترة من الوقت تطول أو تقصر طبقا لاستيعابهم مقررات معينة، بعدها يحصلون على إجازة من أساتذتهم تخول لهم حق التدريس، حيث يرحل الوافدون منهم - بصفة خاصة - إلى أقطارهم، لينشروا ما قد درسوه بالأزهر نفسه أو ببلادهم، وفقا لظروفهم وأحوالهم.

وقد تطور هذا النظام في السنوات الأخيرة طبقا لقرارات معينة صدرت في شأن تنظيم - الدراسة، ولعل من ثمرتها أن إدارة الجامع الأزهر أصبحت تمنح الطلاب من هذا القسم بعد فترة معينة من الدراسة المختلفة - الشهادة الأهلية، وهي تؤهل حاملها لتقلد بعض الوظائف الدينية كالإمامة والخطابة، وحق مباشرة إجراءات الزواج والطلاق وما إليها، وهو المعروف بـ «المأذون».

القسم الخاص : وتنضوي تحته ثلاث كليات هي :

كلية الشريعة : وتقوم الدراسة بها على مناهج تتصل اتصالا مباشرا بمواد الشريعة الإسلامية، من فقة، وتفسير، وحديث، وما يتفرع عن هذه المواد من دراسات، ومدة الدراسة بهذه الكلية اربع سنوات فقط، يمنح الطالب بعد نجاحه في نهايتها الشهادة العالية في الشريعة الإسلامية.

كلية أصول الدين : وتدرس بها - على الخصوص - العقيدة والفلسفة الإسلامية، إلى جانب علوم القرآن الكريم والحديث، وبعض المواد الأخرى المتصلة بهذه الدراسات كالتاريخ الإسلامي والاجتماع، ومدة الدراسة بهذه الكلية أربع سنوات أيضا، ينال الطالب في نهايتها الشهادة العالية في أصول الدعوة الإسلامية.

كلية اللغة العربية : وتقوم بتدريس المواد المتصلة باللغة العربية بكافة فروعها، من نحو وصرف وأدب وبلاغة وفقة لغة وغيرها، الى جانب بعض المواد ذات الصلة بهذه الدراسات، كالاجتماع والتاريخ والخطابة والمنطق وما إلى ذلك. ومدة الدراسة بالكلية أربع سنوات كذلك، يحرز خريجها على الشهادة العالية في اللغة العربية وآدابها.

وقد ظل معمولا بهذا النظام في الأزهر حتى قامت ثورة يوليو سنة 1952، حيث جرى - تعديل قوانين الأزهر في معظمها، وأضيفت الكليات الحديثة الأخرى إليه، بعد أن صار الجامع الأزهر إلى الجامعة (1965)، وهكذا افتتحت به كليات للطب والهندسة والاقتصاد والعلوم والصيدلة، كما أضيفت اللغات الأجنبية إلى مناهج الكليات التقليدية الثلاث آنفة الذكر، والتي عدلت مناهجها هي

8) نفس المصدر.

الأخرى بالإضافة في الغالب، مثل كلية الشريعة التي شملت مناهجها المواد القانونية المعمول بمقتضاها في دواوين الدولة والمحاكم على اختلاف أنواعها ودرجاتها، حتى يقف خريجو هذه الكلية على قدم المساواة مع خريجي كليات الحقوق فن الجامعات المصرية الأخرى، وذلك في كافة الحقوق التي يتمتع بها هؤلاء عقب تخرجهم، وعليه فقد عدل في تسمية هذه الكلية الأزهرية بما يناسب هذا الوضع الجديد، فسميت بـ «كلية الشريعة والقانون».

وقد حدث مثل ذلك تقريبا في الكليتين الأخريين، من حيث التطوير والتعديل، بما يقارب الكليات المناظرة في الجامعات الأخرى، مسايرة لروح العصر، وتحقيقا لمبدأ تكافؤ الفرص.

وتجدر الإشارة أخيرا إلى أن هذه الكليات التقليدية والكليات الحديثة تتبعها المعاهد الابتدائية والثانوية الدينية، والتي هي روافد ومصادر لتلك الكليات بإمدادها بالطلاب المؤهلين في دراساتهم اللغوية والدينية بما يتناسب والمستوى الدراسي في الشريعة أو الأصول أو اللغة، وكذا بقية المواد التي تدرس عادة في المدارس العادية والتي تؤهلهم كذلك لولوج الكليات الحديثة، إذا ما سمحت مجاميع درجاتهم، حيث يخضع كافة الناجحين في نهاية الدراسة الثانوية للجان المختصة، والتي تقوم بتنسيق درجات الطلاب، تمهيدا لتوزيعهم على الكليات التي تناسبهم، وهو ما يسمى بـ «مكتب التنسيق». لوضع الطالب المناسب في المكان المناسب.

«يتبع»

القاهرة : د. محمد كمال شبانه



الوجود البرتغالي في المغرب

الجزء الأخير

من القرن 15 إلى القرن 18

الأستاذ أحمد مدينة

1463 - الأمير انريكي يبعث بابن أخته إلى طنجة على رأس جيش قوامه أكثر من **عشرين ألف مقاتل.**

1464 - أفونشو الخامس ينتهز ضعف الدولة المرينية التي أشرفت على نهايتها، ويقود حملة إلى مرتفعات قبيلة بني غرفط بناحية العرائش، **انتهت بالفشل.**

1468 - فرناندو بن منويل الأول يدمر أنفا بأسطوله ويستولي عليها بدون مقاومة لخلوها من السكان، وينهي مهمته بإحراقها بعد أن كانت الحياة فيها **مزدهرة.**

1471 - أغار أفونشو الخامس وابنه جواو على أصيلا بـ 400 مركب وثلاثين ألف جندي، بالإضافة إلى ما استقدم من سبتة من معدات ورجال انتهت بأسر 5000 نفس علاوة على الغنائم من الأموال، وقد أعقبت هذه الغارة مفاوضات أدت إلى الاعتراف بالسيطرة المفروضة على سبتة وطنجة والقصر الصغير وأصيلا وعقد هدنة لمدة عشرين سنة.

1472 - أفونشوالخامس يهب مدينة أنفا لجواو، الدوق الثاني لمدينتي فيزيو وباجة البرتغاليتين. بعد أن دمرت كما سبق سنة 1468.

1473 - يهب مدينة العرائش لدوق غيمارايش.

1477 - يهب مدينة تطوان لألفارو تيشيرا، وكانت قد دمرت عام 1437.

1485 - إنشاء حصن غراشيوسة على ضفاف لكوس لصد هجمات المغاربة، وتعيين بدرو كوريادا كونيا، أول قائد له، والتخلي عنه بعد أربع سنوات (1489).

1486 - فرض جواو الثاني على أزمور أداء الإتاوة بعد أن

خلف أباه أفونشو الخامس.

1488 ـ تصل إلى سبتة نجدة من البرتغال.

1506 ـ هجوم على آسفي في 21 أكتوبر وإنشاء حصنين بأكادير والصويرة.

1508 ـ حصار المسلمين لأصيلا. فكت حصارها عمارة الكوندي دي تاروكا وأسطول قشتالي تحت إمرة كوندي دي نفارو.

سقوط أزمور بدون إراقة الدماء على يد الكوندي دي تاروكا على رأس 2000 جندي و51 سفينة، ثم تلاها سقوط آسفي. ينتزع من المواطنين الضرائب ويعين أبا بكر زكريا يحيى بن تعفغت عاملا على المسلمين والنصارى في آسفي.

1513 ـ في شهر سبتمبر من هذه السنة يقود جايم دوق دي براكانزا حملة على أزمور، دعما للبقاء فيها، مؤلفة من 500 سفينة و13.000 من المشاة و3000 من الفرسان.

وصف داميـاو دى كويش مدينة أزمور والحقول التي تقع بينها وبين الصويرة بالغنى في إنتاج الحبوب وصيد السمك، مما كان يدر على البرتغاليين أموالا كثيرة.

1514 ـ شيد حصن الجديدة (مازيغين).

1515 ـ تقهقر البرتغاليين عند محاولتهم التقدم نحو مراكش بقيادة نونوفرناندز دي أتايدي، قادمين من آسفي، ويدروا دى سوسا من أزمور، وكانت هذه الهزيمة منذرة بانتهاء محاولتهم الاستمرار في السيطرة على المواقع في البلاد، وقد سبق لهم أن فشلوا في تشييد حصن على نهر سبو لشدة مقاومة السكان لهم.

1517 ـ عصيان حاكم سبتة الكوندي دى الكوتين ساعد على فشل حملة بقيادة لويش دي سكيرا كان هدفها الاستيلاء على ميناء ترغة بسبعين سفينة.

1518 ـ اغتيال يحيى بن تعفغت.

1519 ـ يأسر البرتغاليون الوزان الفاسي (ليون الإفريقي)، ويكتب أثناء أسره كتاب «وصف إفريقية» الذي ترجم إلى الإيطالية والفرنسية.

1520 ـ الكوندي دى ردوندو ينشيء سوقا تجارية في أصيلا.

1532 ـ جواو الثالث يفكر في الجلاء عن القصر الصغير وأزمور وآسفي، إلا أن الجلاء تأخر 18 سنة (1550) بسبب معارضة البابوية له.

1534 ـ حصار المسلمين لآسفي.

1538 ـ في 8 من مايو عقد صلح مع الوطاسيين.

1541 ـ الجلاء عن أزمور وآسفي وتحويل الجديدة إلى قلعة عسكرية منيعة. ورد في رسالة مؤرخة بـ 8 يوليو موجهة من رودريكو دي كاستر وحاكم آسفي إلى جواو الثالث، أنه فاجأ معسكرين للمسلمين بجنده فقتل أربعمائة منهم أغلبهم من النساء والأطفال وأسروا ثمانين.

في هذه السنة فقد المحتلون أكادير.

1548 ـ مجلس العرش يناقش الأوضاع الصعبة في مراكز البرتغيز في المغرب والضائقة المالية التي يعانونها من جراء نقصان موارد الهند.

1550 ـ الجلاء عن القصر الصغير.

1557 ـ وفاة جواو الثالث ويخلفه الفتى سباستيان تحت رعاية الوصيين الكاردينال انريكي ووالدته كاتارينا أخت فليبي الثاني ملك اسبانيا.

1562 ـ (969 هـ) الأمير محمد، قتيل وادي المخازن، يحاصر الجديدة بأمر والده السلطان الغالب بالله، ويرفعه عنها في 7 يونيو، وكان عمره يومئذ 20 سنة، ويقدر أن المسلمين فقدوا 20 ألف مقاتل في ذلك الحصار الذي دام ستة شهور.

1564 ـ قوات اسبانية وبرتغالية مشتركة ومؤلفة من 1500 جندي من المشاة و300 من الفرسان ونجدة من طنجة قوامها 200 جندي تستولي على حجرة بادس بعد مقاومة استمرت أسبوعا.

1575 ـ بيعة عبد الملك في فاس بعد دخوله إليها.

1576 - اجتماع في غوادا لوبي (قرية بمقاطعة كاسيريس باسبانيا) عقد بين فليبي الثاني وابن أخته سباستيان لإقناع خاله بتأييد مطامعه في المغرب، وكان فليبي غير راض عن سياسته.

1577 - سباستيان يحتل من جديد أصيلا ويدبر مع حاكمها محمد أمر الحرب لانتزاع الحكم من عمه عبد الملك.

1578 - في 31 يناير يأذن البابا كريركوريو الثالث عشر لسباستيان بإعلان حرب صليبية لمدة سنتين في إفريقيا. وفي شهر مارس يأمر بحجز المراكب الأجنبية الراسية بالموانئ البرتغالية لاستخدامها في حملته ضد المغرب، إلا أن أغلبها يتمكن من اختراق نطاق الحجز ويهرب.

4 أغسطس، وقعة وادي المخازن التي شارك فيها من جانب الصليبيين 3000 إسباني و900 إيطالي و3000 ألماني و500 من أتباع محمد المطالب بالعرش، وقد فقد منهم 25 ألفا بما فيهم الملك سباستيان.

1580 - بعد أن اعتلى العرش عم الملك القتيل الكاردينال انريكي بسنتين مات، وخلفه فليبي الثاني ملك إسبانيا حاملا لقب فليبي الأول ملك البرتغال.

ثار عليه القس أنطونيو فهزمه في معركة القنطرة بتاريخ 25 أغسطس.

1589 - أعيدت أصيلا إلى أحمد المنصور تجنبا لأن يقترض منه القس أنطونيو الثائر 200.000 دوقية لمواصلة ثورته ضد المحتلين الإسبانيين.

1640 - انتقلت السيطرة على سبتة إلى التاج الإسباني.

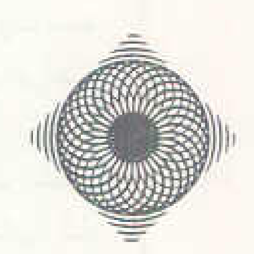
1661 - 1662 - في 23 يوليو وهبت لويزة دى قزمان، الوصية على عرش ولدها الفونشو السادس مدينة طنجة 6 من جملة ما وهبت، مهرا لكاترينا دى براكانزا بعد زواجها بشارل الثاني ملك انكلترا، في سنة 1662 أصبحت طنجة تحت حكم الانكليز.

1725 - هجوم مستمر من قبل المجاهدين على الجديدة مدة ثلاث سنوات ثم أعيدت الكرة عليها سنة 1738.

1750 - شكوى الغزاة من تكاليف الاحتفاظ بالجديدة.

1769 - حررت الجديدة ولم يترك البرتغاليون بالمغرب بعدها غير الأسوار والقلاع.

للأستاذ أحمد مدينة



منهج تربية الشباب
من المنظور الإسلامي

للأستاذ علال البوزيدي

☆ **في الإسلام يوجد الحل لكل إشكاليات الشباب**

☆ **على الشباب أن يفهم فهما عميقا بأن الضمائر الحية تصنع ولا تستورد وتبدع ولا تقلد.**

☆ **﴿ومن يطع الله ورسوله، ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾** سورة النور.

عندما يتحدث المحدث عن الشاب يجول به الفكر في متاهات بعيدة يتخذ الموضوع من خلالها وجهة لا أقول صعبة، ولكن أقول عميقة من حيث الدلالات والتشعب ذلك لأن الحديث عن الشباب يكتسي أكثر من مغزى وأبعد من أبعاد فكرية وحضارية، وبالتالي فهو يعالج حالة دقيقة تحتاج إلى الإلمام بأدق مشكلات الشباب ومعاناته وظروفه وانطلاقا من هذه الرؤى ينبغي ربط حاضر الشباب بماضيه ثم تحديد التوجهات المستقبلية على ضوء ذلك، ولعل هذه هي بواعث التناقض التي كثيرا ما تلاحظ في عالم الشباب، وكلما حاول محاول طرح قضايا الشباب طرحا موضوعيا الا واختلط عليه الأمر واستعصى الحل والعلاج، رغم توفر عملية العرض على كل العناصر المتداخلة في القضية سلبا أو إيجابا وبذلك يتضح بأن القضية ذات اختصاص مناقض لما قد يذهب إليه المعالج الذي ينتمي لتخصيص أو فهم معاكس لواقع وطموحات الشباب، فالذي يقول بأن الشباب هو الطاقة المحركة لعجلة التنمية الاجتماعية والاقتصادية قد ينسى أو يتناسى بأن هذه الطاقة تكون معطلة أحيانا نتيجة سبب من الأسباب أو مرض من الأمراض أو ظاهرة من الظواهر، وما أكثرها في هذا العصر، خصوصا وأن مجتمع الشباب تجتاحه في هذه الحقبة من التاريخ، موجات عاتية وتيارات جارفة بدرجة كبيرة للشباب المسلم، بغية إقحامه في دوامة الحيرة والتشكيك، فلا هو متمسك بالأصالة ولا هو مرتاح للمعاصرة التي جابت له الهوس والصداع، وهذا منظور حديث ونظرة إطارية للمشكل، كما هو في واقعه، أما النظر إلى المسألة من زاوية المعطيات التي أفرزتها تطورات العصر فحدث ولا حرج عن ذلك، إذ الشباب أصبح يشكل سلاحا قويا في عصر العلوم والتكنولوجيا عصر الالة التي تديرها سواعد الشباب بالموهبة والتكوين والاعداد ووفق التوجيه والبرمجة والتخطيط ولم يكن ذلك بالأمر الغريب ما دام الشباب بمفهوم آخر يعتبر القلب النابض للأمم والشعوب وهذه المفاهيم جميعها استقطبها الفكر الإسلامي وحددها القرآن الكريم باعتباره دستور الأمة الإسلامية، والمستند

الأساسي لأخلاقيات المسلم، كما أبرزتها عناية الرسول عليه الصلاة والسلام بالشباب، واستمدادا من نصوص الكتاب والسنة تواترت الأحاديث والمواعظ حول الشباب من طرف علماء الإسلام، وأجمع غير واحد من جهابذة الإعلام بأن الإسلام في نشأته الأولى تصدر الطليعة فيه الشباب حتى قيل عنه بأنه حركة شباب وبذلك انتشر في الأقطار والأمصار لأن همم الشباب تتحدى المصاعب وتواجه الشدائد والملمات وتقتحم المخاطر يوم تدلهم الخطوب.

وتلافيا للتطويل الممل، تتأمل وضعية الشباب على ضوء ما جاء في القرآن الكريم وهذا يغنينا عن كل ما سواه ويلهمنا إلى الاستزادة من النهل والغوص في نصوص الشريعة الإسلامية الخالدة.

الشباب في ضوء القرآن :

عالج القرآن مسألة تربية واعداد الشباب بما يلزم من التوجيهات والمواعظ وحث الأباء والأولياء على مضاعفة الاهتمام والاعتناء بالأبناء منذ مراحل حياتهم الأولى «النشأة والطفولة والشباب» وذلك على أساس تماسك الأسرة وحمايتها من كل انحراف وترشيد التربية بالتي هي أحسن وبالقدوة والأخلاق استرشادا بالآية الكريمة ﴿**وقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة**﴾ «سورة الأحزاب» ثم الاعداد وهو ما تتطلبه مرحلة الشباب من وعظ وإرشاد وتوجيه وتستمد ذلك من خلال وصايا لقمان لابنه : «وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم». «يا بني إنها ان تك مثقال حبة من خردل، فتكن في صخرة، أو في السماوات أو في الأرض يات بها الله إن الله لطيف خبير».

يا بني اقم الصلاة وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور.

ولا تصاعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور.

واقصد في مشيك، واغضض من صوتك، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير».

هذه الوصايا الخالدة الجامعة تؤكد عناية الأباء بالأبناء ورعاية الشيوخ للشباب خاصة وقد جاءت في القرآن الكريم وعلى لسان لقمان الحكيم، ولذلك فهي نموذج للاهتمام الفعلي بالشباب ينبغي الأخذ بها في برامج التعليم والتكوين ذلك لأن رعاية الشباب والاهتمام به تعتبر أمرا واجبا على الأباء وأولياء أمورهم وتتجسد هذه الرعاية في التوجيه والاعداد والإرشاد.

إذ فمن مسؤولية الأباء والأولياء تنبيه الغافلين من الشباب إلى ضرورة التمسك بالعقيدة وتقوية الإيمان والقيام بالصلاة والسير في الصراط السوي ونهج الطريق المستقيم واشعار الشباب بواجباته الدينية ومسؤولياته المدرسية والوظيفية والمهنية والاجتماعية، والوطنية، وهذه التوجيهات نص عليها القرآن وعالجها بكيفية لا تدع مجالا للشك، وأن أي انحراف تسرب للشباب إنما جاء نتيجة تسلل الأفكار الاباحية والنشاط الالحادي الهدام الذي يتجسد بعضه في التصادم الحضاري والتحجر الفكري والإعلام الغير الملتزم، ولم تكن هذه الالمحة جد مختصرة عن مكانة الشباب في القرآن، في حين أن ما تضمنه كتاب الله الكريم بهذا الخصوص كفيل بعلاج قضايا الشباب التي تطرح نتيجة التطور المواكب للحياة الإنسانية، وحتى تكون الفائدة أعم وأشمل ينبغي تأمل وضعية الشباب على ضوء اهتمامات الإسلام التي برزت من خلال...

عناية الرسول بالشباب :

ومما جاء على لسان المعلم الأول للإنسانية رسول الرحمة والهداية والنور قوله ﷺ : «أوصيكم بالشبان خيرا فإنهم أرق أفئدة، إن الله بعثني بالحنيفية السمحة، خالفني الشباب وخالفني الشيوخ، وعندما قال ﷺ هذه القولة قرأ قوله تعالى : ﴿**فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وكثير منهم فاسقون**﴾.

وكم هي كثيرة المواعظ والتوجيهات التي جاءت في الأدب النبوي والعبر والدروس البليغة التي خلدتها السيرة المحمدية ومن نبعها الفياض نقتطف هذه الأحاديث التي نجعلها أفكارا أساسية للموضوع :

اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك، وتلك هي حقيقة الحقائق إذا اقتنع الإنسان عن إيمان بأن تواجده في هذا العالم الفاني مجرد سياحة.

وأكد ﷺ بأن ما يسأل عنه العبد يوم القيامة أنه يسأل عن شبابه فيما أبلاه، وتأكيدا لذلك جاء أيضا أن الشباب الذي ينشأ في طاعة ربه وعبادته يعتبر واحدا من السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله، وتيسيرا للشباب ومساعدة له على النشأة في طاعة الله حث الرسول ﷺ الشباب على الزواج المبكر باعتباره أغض للصبر واحفظ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم.

وفي مجال التوجيه والاعداد التربوي للشباب جاء في الاثر : إن الشباب أرق أفئدة، لم تتراكم على قلوبهم غشاوات العادات والأخلاق الفاسدة التي كانت تطغى على طبائع وسلوك الشيوخ في الانطلاقة الأولى للدعوة الإسلامية التي قام بها سيد المرسلين ﷺ ذلك لأن الشباب كان أسرع إلى الاستجابة للدعوة الإسلامية ومؤازرة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام.

وهذه الصفات والمميزات ينبغي اعتبارها في بناء شخصية الشباب من طرف الأسرة والأباء وكانت بالفعل تشغل بال السلف وتاج اهتماماتهم لأنهم كانوا يقتدون بما جاء في الكتاب والسنة.

ويهتدون في تربية واعداد أبنائهم بهدي القرآن وهدي من بعثه الله رحمة للعالمين : فكانت الأسرة تقوم برسالتها التربوية على أكمل وجه وحسب التعاليم التي شرعها الإسلام من أجل حماية الشباب من الانحراف وحفزهم على الجد والمثابرة في الدراسة وتحصيل العلوم والتطلع في دنيا المعرفة.

الشباب كما يراه علماء الإسلام :

أخذت مرحلة الشباب من اهتمامات السلف ما تستحق من العناية والاعتبار ونستخلص بعض الصور من اهتمامات الأوائل كتلك التي رسمها ابن شهاب الزهري عندما قال : «لا تحتقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم فإن عمر ابن الخطاب كان إذا نزل به الأمر واستعصى عليه الحل دعا الشباب واستشارهم يبتغي حدة عقلهم، ولعل هذا القول جاء في مخاطبة معشر الشباب في أحد المواقف التي لها تاريخ.

وثمة أقوال عديدة تشيد بأهمية مرحلة الشباب وأذكر بعضها في هذا السياق على حد ما تسعفني به الذاكرة.

قال بن الجوزي : إن الشباب أمانة عند آبائهم، وإن قلوبهم كجوهرة قابلة لكل نقش فان عودوهم أباءهم الخير نشأوا عليه، وان عودوهم الشر نشأوا عليه، ولذلك وجبت رعاية الشباب رعاية شمولية لأنهم، كما تقول الحكمة التعلم في الصغر كالنقش على الحجر، وما ينبغي أن ينقش على صفحات قلوب الأجيال الصاعدة هو مكارم الأخلاق لأن بقاء الأمم واستمرارية أمجادها كما قال شوقي قولته الشعرية الشهيرة :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وعلى أساس الأخلاق عني الرسول ﷺ عناية كبيرة بالشباب وجاء عنه عليه الصلاة والسلام إن حركة الإسلام الأولى كانت حركة الشباب وتبين لنا السيرة النبوية ذلك بوضوح من خلال الاستجابة الشبابية للدعوة المحمدية والإقبال على اعتناق الإسلام في أول عهده ويذكر التاريخ الإسلامي كذلك بأن أصغر الشباب الذين أقبلوا على الإسلام وأعلنوا إسلامهم : علي ابن أبي طالب، الزبير بن العوام، الأرقم بن أبي الأرقم، سعد بن أبي وقاص، جعفر بن أبي طالب، صهيب الرومي، زيد بن حارثة، مصعب بن عمير، عثمان بن عفان، عمر بن الخطاب أبو عبيدة بن الجراح، ومن بين الشباب الذين ناهز سنهم الثلاثين فما فوق بلال بن رباح، عبد الرحمان بن عوف، أبو بكر الصديق صاحب رسول الله ورفيق وحدته في غار حيرة، وغير هؤلاء كثير من شباب الإسلام الذي عزز الحركة الإسلامية ابان انبثاق فجرها المنير الذي أضاء الدنيا بعد أن كان الظلام يخيم على الأصقاع والإنسانية تعيش في جهالة جهلاء إلى أن جاء النور وجاءت دعوة الإسلام على لسان محمد الأمين

دعوة عدل ومحبة وسلام، وبعد هذه التلميحات إلى مكانة الشباب في الإسلام الموضوع يقتضي في تصوري المتواضع إلقاء نظرة مقتضبة على وضعية الشباب المعاصر ومحاولة مقارنة سلوكه تجاه تحديات العصر من جهة وما ينبغي أن يكون عليه من الاستقامة والتحلي بالأخلاق الحميدة والسير على اثر السلف الصالح وباختصار وضع قضايا الشباب في إطار من العرض والعلاج إذ فاقتران العرض بالعلاج شيء يؤدي إلى انتقاء الحلول الملائمة للإشكاليات المطروحة بحدة وفي الإسلام وحده توجد هذه الحلول.

الشباب في حاجة إلى عملية إنقاذ :

إن الشباب الذي هو الطاقة الخلاقة والسلاح الذي تستعمله الأمم في معاركها ضد كل غزو مادي أو معنوي أو فكري، إنما هو بمثابة الجهاز الدقيق الصنع الذي يتهدده الخلل كلما وقع سوء فهم في استعماله، أنه كالهيدروجين إذا لم يوجه لأغراض السلم والمصالح العليا للإنسانية انقلب إلى عامل تخريب ودمار والشعوب التي لم تعتن بشبابها إنما تتجه بنفسها نحو الشيخوخة المبكرة وعندها انحطاط واسفاف ثم خراب وإفلاس، فالشباب يحتاج إلى التوجيه الصحيح وإلى التخطيط المحكم وإلى المناخ المعتدل سياسيا واجتماعيا وفكريا، قدر حاجته إلى الانفتاح على التكوين والتعليم، فترك الثغرات في طريقه وفسح المجال للتيارات تتجاذبه وتعصف به، فذلك شيء من الخطورة بمكان بالنسبة للشباب في كل جهة من جهات الدنيا فالوضوح هو ما ينبغي أن يواكب الشباب في مسيرته حديثا مثلما كان وذلك قبلته قديما أما أن تستعمل هذه الطاقة الجبارة فيما لا طائل تحته أو أن تستعمل وسيلة للضغط في أيدي الوصوليين لتحقيق أغراضهم وأحلامهم على حساب الشباب باستغلال مكشوف للفطرة والسذاجة اللتين تتحلى بهما مرحلة الشباب للتغرير بهذه الفئة أو التأثير بها على ولاة الأمر، وهي حالة أصبحت مشاعة بكثرة في العصر الحاضر بل أصبحت شعلتها تتوقد من حين لآخر هنا وتخبو هناك، وليس عاصفة الشباب الهوجاء التي اجتاحت فرنسا في الستينات إلا نوعا من العوارض البشرية التي تجتاح الأمم والشعوب ويحركها الشباب في العمق والأساس.

أزمة الشباب المزدوجة :

إن الشباب له مزاج ميال إلى التغيير، ولكن ليس التغيير فيما لا يستحق التغيير كالأصالة مثلا فهذه القيم التي تقتضي التمسك بها والمحافظة عليها خلفا عن سلف إلا أننا ومع شديد الأسف بدأنا نلاحظ بأن الشباب أصبح ينفر من أصالته وهذا النفور يقحم الشباب في أزمة قيم وضمير، ناهيك بما يجره عليه ذلك من ملاحقات تحط من مكانته في المجتمع وما يمكن أن ينعت به من نعوت ويوصف به من أوصاف الانحلال والاستهتار، وغير ذلك من المساوئ والرذائل التي تتكالب عليه فتبعده عن الفضائل التي كان يمتاز بها سلفه الشباب المسلم في العهد النبوي وفي مراحل عديدة من تاريخ الأمة الإسلامية، وأمام ذلك فإن الضرورة تقتضي إنقاذ الشباب من هذه الوضعية الشاذة التي يتردى فيها، وانتشاله من هذه الوهدة التي انزلق إليها وبالتالي إنقاذه من هذه الأزمة المزدوجة التي يعاني منها.

الشباب وحاجته إلى غسل دماغه :

كما تزداد حاجة الشباب ماسا إلى عملية إنقاذ مستعجلة بقدر ما تزداد حاجته إلى عملية غسل دماغه، ذلك أن الشباب ينبغي له أن يعرف وهذا بالضرورة الملحة بأنه من مصلحته أن يغتنم صحته قبل سقمه وشغله قبل فراغه، وشبابه قبل هرمه ولذلك فإن عليه أن يعرف بأن الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك كما قال الحكماء، وعليه كذلك أن يغتنم ما يتاح له من الفرص ويفسح له من المجالات تحسبا لاحتمالات المستقبل وإلا اغتنمها الآخرون على حسابه كما على الشباب أن يتحرى الصدق والإخلاص والاجتهاد في حياته الخاصة والعامة فإن من شأن ذلك أن يجمله بالفضائل ويقربه إلى قلوب الناس ونيل رضاهم، والحظوة بعطفهم عليه وتقديرهم له وبالتالي

عليه من قبل ومن بعد بالتخلق بالخلق الحسن وبالتمسك بالدين، فإن أحب إلى الله الشباب الذي نشأ في عبادته سبحانه وتعالى، ولا يمكنه أن يسموا إلى هذه المكانة إلا إذا تجنب رفقة السوء مسترشدا بالحكمة التي تقول : إياك ورفيق السوء فإنك به تعرف.

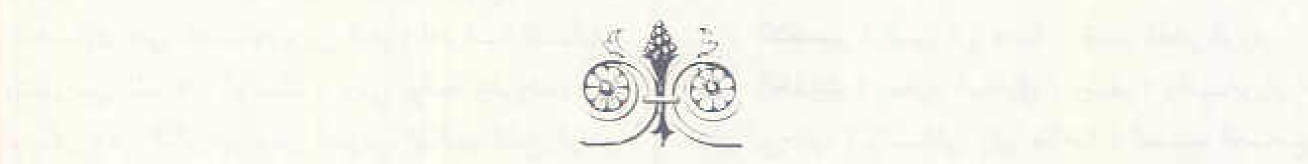
واعرض عن قراءة أدب الانحلال وفكر وثقافة وأفلام الخلاعة والتبرج والاستهتار وكل الكتابات والقراءات والمشاهدات وكل الأشياء التي تهيء للشباب في عالم الخيال حياة لن يحققها في الواقع وعندما ينقاد وراء الأوهام الخيالية يواجه الواقع ويعتقد بأن الجميع ينهج منهجه والكل يسلك سلوكه وأن الدنيا في نظره كلها هكذا والعكس بالعكس.

الشباب ومسؤوليته الدينية :

وبهذه المفاهيم المنطوية على الالتباسات اختلط الأمر على الشباب مما جعله يفتقد تدريجيا الوازع الروحي وبذلك أخذ يتجاهل لغة الاتصال بالقلوب والأفئدة، ولعله بتجاهله لهذه اللغة أحرج بعض الوعاظ والدعاة وجعلهم يضاعفون اجتهاداتهم بكل ما لديهم من وسائل داعين ومذكرين للقيام بالواجب وحاثين على الشعور بالمسؤولية الدينية ومحاولين تنشيط الوازع الروحي وإيقاظ الضمير الديني لدى الناس بصفة عامة ولدى الشباب بصفة خاصة هادفين إلى تنمية الايمان وترسيخ العقيدة في النفوس إلا أن كل هذه الجهود تصطدم بعقول مغلقة وقلوب متحجرة ونفوس مريضة بضعف الإيمان وهذه حالة مرضية من أكثر أمراض الشباب في هذا العصر علاجها الوحيد هو العودة إلى الدين واليقين والشعور أكثر ما يمكن بالمسؤولية الدينية والتمسك بتعاليم الإسلام الحنيف.

وبدون ذلك يعيش الشباب غريبا عن أهله ومجتمعه، بل يعيش حياة هامشية لأن عدم استقامته وطاعته لربه تؤدي به إلى موت الضمير وبذلك يحكم على نفسه بالدخول في مجتمع المنحرفين وفي هذه الحال ينحط قدره ويحيا حياة التهور والتيه بلا هدف وبلا عقيدة وبلا إيمان، وهذه القيم المعنوية والروحية تجعل الإنسان المتجرد منها جسدا بدون روح وقلبا فارغا من الإيمان. فليتعظ الشباب وليستقم وليتقي الله، فإن خير الزاد التقوى.

سلا :   علال البوزيدي



أبو سالم العياشي

الأستاذ
عبد الله
بنصر
علوي

ثقافة العياشي :

إن ثقافة العياشي تستجيب للواقع الفكري ولأنماطه خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري حيث يبدو الاهتمام بالعلوم الإسلامية وفي طليعتها الحديث والفقه والتصوف مما ولع به العياشي. وقد وجد في الرحلات التي قام بها مجالا لتنمية مداركه والاطلاع على ما كان يفتقر إليه. ورغم شمولية العلوم الإسلامية وفرص الأخذ والتلقين لم يستطع أبو سالم أن يكتفي بمجدر الرواية أو الدراية لأنه يحرص حرصا كبيرا على الإجازات. فكانت الثقافة المجازة والمجيزة من المغاربة والمشارقة قد مكنته من تواصل فكري ولو في حدود ضيقة، استجابت لتوزع اهتمامات العصر بين مقارعة الفتن في الداخل والنصارى على الحدود وبين التفرغ لحركة التأليف والتدريس. لقد كان أبو سالم ذا وعي بواقعه وظروفه، وإن لم يكن وعي الثائر فهو وعي الصوفي الهادئ الطبع الراضي بالمقدور.

لذلك كانت ثقافته تعتني - في أغلبها - بعلوم الرواية، كما سادت الواقع الفكري في العالم الإسلامي. وقد قام أبو سالم في آخر فهرسته اقتفاء الأثر بعرض للكتب والمؤلفات التي درسها على شيوخه في المغرب والمشرق. سأقتصر على ذكر بعضها الذي أثر في التكوين الثقافي لأبي سالم :

النحو واللغة : التسهيل لابن مالك / مصنفات ابن الحاجب / ابن هشام / القاموس.

البلاغة والأدب : تلخيص المفتاح / مصنفات عبد القاهر الجرجاني / ديوان ابن الفارض /...

التفسير : تفسير ابن عطية / تفسير الفخر الرازي.

الحديث : صحيح البخاري / ومسلم / والنيسابوري / سنن أبي داود / والنسائي وابن ماجة / المسند الجامع للترمذي / الموطأ برواية الليثي / ثلاثية البخاري / وابن ماجة / عشاريات ابن حجر / والسيوطي / ثنائيات الموطأ / مستدرك الشافعي / وأبي حنيفة / وابن حنبل / مسلسلات ابن الجوزي / الحديث المسلسل بالأولية / الأربعين النووية /.

الفقه : مختصر الشيخ خليل / رسالة بن أبي زيد /.
الأصول : جمع الجوامع.
السيرة : الشفا للقاضي عياض / السيرة الشامية / سيرة اليعمري / كتب الشمائل / **التصوف :** دعاء التوبة للشاذلي / وظيفة الشيخ زروق / الحكم لابن عطاء الله /...

منهجه :

يحرص أبو سالم في إجازاته ومروياته على منهج الرواية لاهتمام عصره بها اهتماما بالغا، فلم يخل علم من العلوم من سلسلة سند تربط المتقدم باللاحق. وكان الاعتماد على السند تأكيدا للثقة بالعلم وتوثيق المتن وسلامة المعارف، فقد قيل : «لو لا الإسناد لقال من شاء ما شاء» (1). وتشبث العلماء بعلو السند إلى المؤلف نفسه أو صاحب الرأي، «فالإسناد العالي سنة محبوبة والقرب من رسول الله رتبة مطلوبة» (2)، وهو «قربة إلى الله ورسوله» (3) فلا يقبل علم إلا إذا كان له سند عال وأسانيد فرعية متعددة، لذلك نجد أن الإجازات مهتمة بذكر العلوم المجيزة وأسانيدها، وهو أهم ما يتضمنه متنها.

ويهتم أبو سالم بالإسناد العالي (4)، ولا يقنع بسند واحد، فأغلب علومه ذات أسانيد متعددة، لتعدد الشيوخ في المغرب والمشرق. كما يحرص على السماع من شيوخه مباشرة لأن «السماع لا تعادله الإجازة وإن تعددت». (5) بل يترصد زمن السماع حفاظا على الرواية (6).
ولا يغفل أبو سالم جانب الدراية في منهجه، فقد

1) لابن المبارك. انظر الثغر ص 5.
2) للسيوطي. انظر فهرس الفهارس ص 95/2.
3) لابن بقي. انظر الثغر ص 5.
4) يصل أحيانا إلى شمهروش قاضي الجان في رواية الفاتحة بسند مالك. سمعها عن الأبار والاجهوري. انظر الاقتفاء ص 31 و33.
5) الرحلة ص 102/2.
6) «وكنت ترصدت مجيئ يوم العيد لسماع الحديث بالسماع في يوم عيد...» راجع الرحلة ص 101/2 ـ 102.

كان يرومه في كثير من الأحيان في علوم كثيرة (7). غير أن فضل الرواية يتقصده. يقول : «فمن أمكنني الأخذ عنه تفقها ودراية لم أعدل (عن) ذلك، إذ هو الغاية، فإن ضاق الوقت عن ذلك عدلت إلى الأخذ سماعا ورواية لما وقر في سمعي من فضائلها الوارثة في الرحلة الأولى والثانية عن مشايخ مصر والحجاز من مسموع ومجاز» (8) لذا نجد في فهرسته عبارة «سماعا لبعضه وإجازة لباقيه» تتكرر في معظم إجازاته. ومن ثم كان الحرص على الإجازات تزكية لهذا المنهج لطبيعة ظاهرة العصر الفكرية.

شخصيته :

لقد كونت هذه الثقافة شخصية أبي سالم العلمية، فاسهمت في الحركة الفكرية بكل ما أتاحت لها ظروف تعثرها وتمزقها، ومن ثم اتسمت شخصيته بإطلاعها الوافر على علوم الحقيقة والشريعة والأدب فاهتمت في علوم الحقيقة بالطرق الصوفية والمرويات المسلسلة في إطار الأوراد والتبرك. واهتمت في علوم الشريعة بالعقائد والمعاملات في إطار المذهب المالكي والعقيدة الاشعرية. واهتمت في الأدب بشعر المديح النبوي وبجوانب التعبير عن الذات والمناسبات وببعض الآراء النقدية. وهذه المجالات الثلاثة تبلور شخصية أبي سالم في إطار موحد لا انفصال في تكوينها ولا في رؤيتها، لأنها تصدر في الكل عن طابع عصرها والعوامل المؤثرة فيه.

الشخصية الصوفية :

سلك أبو سالم ـ بطبيعة تربيته في الزاوية العياشية، ومميزات واقعه الفكري ـ طريق الزهد والتصرف. فلم يأل جهدا في سلوك هذا الطريق الذي يؤمن له سعادته ورضى ربه. وإن كانت هذه الطريقة اشاذلية الاتجاه فإنه قد ألم باتجاهات صوفية عديدة حرص على الانتماء إليها. وأخذ

7) كتحقيقه في سند دعاء ادريس : الرحلة ص 382/1 ومناقشة أشعرية ابن تومرت : الرحلة ص 66/2 وتعهد الفكر بالمناقشة والتحليل كما في قضية الكسب : الرحلة ص 360/1 ويجتهد في بعض الآراء الفقهية كأكل المالكية من نبات الحرم : الرحلة ص 259/1....
8) اتحاف الإخلاص 1.

أورادها وتقاليدها.

وهي - رغم كثرتها - ترجع في أغلبها إلى القادرية، فإن أبا مدين الغوث أخذ عن الشيخ عبد القادر الجيلالي، وأن أبا الحسن الشاذلي أخذ عن أصحاب أبي مدين (9). وتنص رسالة الشيخ أبي بكر بن سالم شيخان على إجازة أبي سالم بكل الطرق الصوفية الأربعين التي سادت عصره (10) وهي : المحمدية، والأويسية، والقلندرية. والصديقية، والملامتية، والكبروية، والهمدانية، والركينية، والنورية، والخلوتية، والمولوية، والجهرية، والبرهانية، والأحمدية، والسهروردية، والخفيفية، والشاذلية، والوفائية، والزروقية، والبكرية، والجزولية، والخواطرية، والعيدروسية، والمشارعية، والحاتمية، والقادرية، والعرابية، والمدينية، والقشيرية، والرفاعية، والخرازية، والجشتية، والمدارية، والشطارية، والعشقية، والنقشبندية، والغوثية، والحلاجية، والجنيدية، والسهلية.

ولما كانت أكثر هذه الطرق غريبة بالمغرب ما عدا الشاذلية وشعبها، فإن أبا سالم حريص على الانتماء إليها، ولو إجازة، ليستكمل ثقافته الصوفية وانتماءه الصوفي، ولو لم يحتذ تعاليمها أو يحضر مجالسها. ومن ثم كان اتجاه أبي سالم في التصوف ذا بعدين : مغربي ومشرقي، فالمغربي حيث كانت الشاذلية اتجاهه الصوفي واقتدى بأكبر أعلامها الجزولي وزروق. عبد القادر شخصية صوفية بالمغرب أثرت في أبي سالم الشيخ عبد القادر الفاسي الذي نعم بصحبته زمانا وحقق معه الكثير من استشكالات أهل التصوف ولقنه أذكار الشاذلي ووظيفة زروق ودليل الخيرات للجزولي وصلاة عبد السلام بن مشيش (11) أما المشرقي فقد كانت النقشبندية (12) أبرز اتجاهاته التي عرفها أبو سالم نظرا لاتصاله بشيوخ النقشبندية : جمال الدين النقشبندي وابراهيم الكوراني وعيسى الثعالبي وبدر الدين الهندي. فانتمى إلى هذه الطريقة بعد أن تحقق من أسانيدها وتمعن في أصولها. ولعل دافعه إليها كما يقول أبو سالم : أبها «قلما توجد في أرض المغرب، بل لا يعرفها أهله حتى بالاسم لبعد بلاد مشايخها فلم تصل تآليفهم إليها، ولا دخل هذه البلاد أحد من أهلها فيما نعلم (13). ويدرك أبو سالم تشبث المغرب بالشاذلية، فيستدرك قائلا : «مع اكتفاء أهل المغرب عنها وعن غيرها من الطرق بالطريق التي بان رشدها واتضح أمرها وأمنت غائلتها واستقامت أصولها وجرت مع ظواهر الكتاب والسنة فصولها طريق القطب الجامع وشمس المحافل والمجامع أبي الحسن الشاذلي واتباعه أئمة الهدى والحق وأصحاب الإخلاص والصدق (14). غير أن إعجاب أبي سالم بالنقشبندية ما جعله يسعى إلى المقارنة بينها وبين الشاذلية. فيجزم بتوحيد أصولها وتشابه أورادها، فيقول : «ولعمري - وما عمري علي بهين - ما طريق ساداتنا النقشبندية منها (أي الشاذلية) ببعيد وما أصولها إلا كأصولها عند كل موفق سعيد... ومن تأمل رشحات النقشبندية وحكم الشاذلية. لم يجد بينهما اختلافا إلا في بعض الاصطلاحات الراجعة إلى الأعمال الظاهرة، وأما الأعمال القلبية والمنازلات العرفانية فلا فرق أصلا» (15). وكأني بأبي سالم يحاول أن يجد تبريرا لانتمائه إلى النقشبندية المشرقية وهو الشاذلي المغربي، لأن التصرف في واقع أمره يهتم بالحقيقة ومدى وصول القلوب إليها في كل الطرق الصوفية شرقيها وغربيها، مهما اختلف تلقين الاذكار واحتذاء العادات والتماس. بركة الأشياء.

ولا يقف أبو سالم عند الطريقة النقشبندية، بل يتصل بالطريقة الوفائية والباعلوية والبكرية والقادرية... مادامت غايته الاتصال بشيوخ التصوف والتماس الدعاء وأخذ العهود

---

9) اقتفاء الأثر ص 52.

10) الرحلة العياشية ص 217/2. وراجع الرحلة ص 217/2 - 220 للتعريف بهذه الطرق الصوفية.

11) اقتفاء الأثر ص 41.

12) النقشبندية نسبة لمؤسسها بهاء الدين نقشبند البخاري (717 - 791). وهي طريقة فارسية تنبني في أساسها الصوفي على حبس النفس ومراعاة العدد الوتر أثناء الذكر، وعلى ترديد عبارات ورموز فارسية ولها رشحات كثيرة (حكم ووصايا) راجع الرحلة العياشية ص 210/1 - 224 وقد ساهم أبو سالم في نشرها في المغرب فانتشرت في القرن الثاني عشر الهجري واقترن إسمها بالشاذلية والملامتية انظر الحسام المشرفي ص 171 - 172.

13) و14) الرحلة العياشية ص 213/1.

15) الرحلة ص 213/1.

واستدعاء الإجازة... لقد كان أبو سالم مريدا لأقطاب الصوفية في المغرب والمشرق، حريصا على الانتماء إليهم وتوثيق الروابط بينهم ليدوم التواصل، لذلك فقد ناوله عبد الرحمان المكناسي السبحة وألبسه الخرقة ولقنه الذكر (16). وأجاز له أبو بكر الكتاني التلقين والمصافحة ولبس الخرقة والجلوس على السجادة لتربية المريدين ورفع الراية لزيارة الإخوان والاحترام بالجد والرفع به قائلا له : «سلكناك، قطبناك» تفاؤلا (17). وأخذ عليه العهد محمد بن محمد الجيلالي القادري ولقنه الذكر وألبسه الخرقة (18). وصافحه عيسى الثعالبي وناوله السبحة وشابكه وأضافه بالتمر والماء وألبسه الخرقة والقباء (19) وأخذ عليه العهد عمر العلمي ولقنه الذكر وشد المزر في وسطه وأقعده وأقامه ثم أقعده قائلا له : «اجلس مريدا وقم خادما للفقراء واجلس مربيا» (20). وألبسه أبو اللطف الوفائي الخرقة (21). وألبسه محمد باعلوي الخرقة والكوفية (22).

كما يحرص أبو سالم على المرويات المسلسلة للكيفات المخصوصات، وتشمل أحاديث المصافحة، والمشابكة، والضيافة بالماء والتمر، ومناولة السبحة، والذكر والقول : أشهد بالله وأشهد لله، ويده ﷺ على كتفي، وقوله : أحبك، وقراءة الصف، والسؤال عن الاسم وتوابعه (23) وفي ذلك عناية بما أثر عن الرسول. وقد اهتم به المتصوفة السنيون اهتماما بالغا.

ورغم ما قد يشوب تصوف أبي سالم من اثر شرقي كاتباع الطريقة والاهتمام بمظاهرها، لا يخرج في ذلك عن إطار الاتجاه الشاذلي السائد في التصوف المغربي. غير أن عناية أبي سالم بالشيوخ وبسلوكهم تبقى الظاهرة البارزة في تصوفه. وقد حاول من خلال بعض أعلام التصوف أن يذكر انتماءه. يقول : (من البسيط).

جعلت بيني وبين الله، يرشدني، شيخ المشايخ عبد القادر الجيلي
وقد تمسكت بالقطب الذي خضعت له رقاب العباد الشاذلي علي
والشيخ عبد السلام والحفيد أبي الـ ـعباس وبن عطاء الله خير ولي
ولي انتماء وعقد وانتساب إلى بني الوفاء فليس من يدي فصل
وقد غذوت بحمد الله ذي كرم من الرفاعي والبدوي من خول
وان في اليافعي والحاتمي لنا والمهر وردي وذا غير مختبل
ولأبي الحسن البكري ينسبني شيخي المحلي انتسابا أبو الخلل
وفي الجزولي شيخ الغرب معتقدي ما يعتريه بحمد الله من خلل
ولي وداد وعقد زانه أدب في النقشبندية المحمية السبل
وأن لي لأبي مدين سلسلة بها تمسكت في أمني وفي وجلي
وما تركت نصيبي من يمانية منحني ذاك نجل خيرة الرسل
وقد ملأت يدي من الإمام أبي الـ ـعباس زروق من ينجي من الوحل
منحني جل ذاك أحمد المدني الشيخ نعم الزكي القول والعمل (24)

إن أبا سالم غير صريح بانتمائه إلى شيخ معين أو طريقة بالذات رغم شاذليته. ولعل ولعه بالانتساب إلى كل الشيوخ وإلى كافة الاتجاهات ما أتاح له أن يغرف من

16) الاقتفاء ص 49.
17) ن. م. ص 44.
18) ن. م. ص 48.
19) ن. م. ص 44 الرحلة ص 138/2.
20) الرحلة ص 323/2.
21) الاقتفاء ص 48.
22) الاقتفاء ص 49 الرحلة ص 90/2.
23) الاقتفاء ص 60/54.
24) الثغر ص 213 الاحياء ص 135.

بحور مختلفة بدلا متباينة غير أن حرصه على أن أغلب الطرق الصوفية مرجعها إلى القادرية ليس إلا تشبثا بالانتماء السندي، حيث يصبح سند الشيخ أو الطريقة يغري أبا سالم في الانتساب إلى جميع شيوخ السند وطريقهم مهما اختلفت مشاربهم وتعددت أهواؤهم.

كما يهتم العياشي بكرامات الأولياء وتقديس الآثار (25). ويحلل ذلك أحيانا حتى ليجزم بإنكارها أو يكاد. غير أن طبع شخصيته الصوفية يغلب عليه فيتشبث بذلك «رجاء البركة بحسن النية وجميل الاعتقاد» (26).

الشخصية العلمية :

شخصية أبي سالم العلمية تبدو في الاهتمام بأمور الشريعة من اعتقاد ومعاملات، ومذهبه في ذلك الفقه المالكي والعقيدة الأشعرية. ولم يكن أخذه عن شيوخ من الحنفية والشافعية والحنبلية ليؤثر في مذهبه ليحيد عن المالكية أو يقتدي بفروعهم. ويرى أبو سالم أن الأخذ عن هؤلاء محقق ما داموا على رأس أهل السنة والجماعة. ويستشهد بقول تاج الدين السبكي : «وهؤلاء الحنفية والشافعية والمالكية وفضلاء الحنابلة - ولله الحمد - في العقائد يد واحدة كلهم على رأس أهل السنة والجماعة يدينون الله تعالى بطريق شيخ السنة أبي الحسن الأشعري رحمه الله لا يحيد عنها إلا رعاع من الحنفية والشافعية لحقوا بأهل الاعتزال، ورعاع من الحنابلة لحقوا بأهل التجسيم، وبرأ الله المالكية فلم ير مالكي إلا أشعري العقيدة» (27).

ويشير أبو سالم إلى الاعتزال من خلال مجالسته من حادثه بإنكار إثبات الصفات على الذات الإلهية، قائلا : «ونحن - معاشر أهل السنة والجماعة - نجعل معتمدنا في العقائد الدينية الأدلة النقلية من الكتاب والسنة الصحيحة الموافقة للأدلة العقلية، ونرد ما خالف الكتاب من مقتضيات الفهوم والآراء، ونقدم رأي صاحب الشريعة ﷺ وفهمه ورأي السلف الصالح وفهمهم على آرائنا وإفهامنا ونتهمهما في ذلك. وأنتم بالعكس تحكمون عقولكم وأوهامكم فتحملون الأدلة الشرعية كلها المقطوع بها على ما يوافق أهواءكم وآراءكم فتصيرون المتبوع تابعا والتابع متبوعا فشتان بين من يحكم الكتاب والسنة على عقله ورأيه ويرد ما خالفهما إليهما بتأول تشهد له اللغة ولا ينفيه العقل وبين من يحكم عقله ورأيه فيحمل عليهما الكتاب والسنة بتكلف وتعسف ويتخذ الاهه هواه ومعبوده موهومه» (28).

ورغم إنكار أبي سالم لأفكار المعتزلة، خاض في إحدى معضلات علم الكلام وهي قضية الكسب التي كانت وسطا بين مذهب الجبرية القائلين ليس هناك إلا قدرة الحق، فأفردوها بالثبوت دون قدرة الإنسان، وبين مذهب المعتزلة النافين لصفة الحق المتثبتين قدرة الإنسان بصفة كونها مؤثرة لا غير (29) وقد أولى هذه القضية شيخا أبي سالم أحمد القشاشي وابراهيم الكوراني أهمية كبيرة في مؤلفاتهما. ويعد الكوراني أكثر حماسا وتعصبا لرأيه الذي يقوم على أن «الكسب هو أمر بين أمرين لا جبر ولا تفويض، القول بالوسط هو أن يكون للعبد قدرة تتعلق بالمقدور بلا تأثير لها فيه» (30). ومثل هذا الرأي لا يخلو من اعتزالية مما عرضه لكثير من الجدل. وكان مصرا على فكرته محاورا مناقضيه. يقول : «إن من بين له الله طريقا وأظهر له مسلكا قريبا إلى التحقيق أو هو عين التحقيق لا يرد عليه كما يرد على المذاهب الباطلة، فلا حرج عليه في بيانه وتقريره وتأييده بالمعقول والمنقول» (31).

وقد كان لأبي سالم فضل انتشار آراء الكوراني وكتبه

---

25) راجع بعض كراماته في الصفوة ص 192.

26) الرحلة ص 131/1.

27) ينقل العياشي نص السبكي من كتابه مفيد النعم ومبيد النقم، في المثال السادس والأربعين، راجع الرحلة ص 402/1.

28) الرحلة ص 283/1.

29) الثغر ص 137.

30) انظر الالماع المحيط لتحقيق الكسب والتوسط بين طرفين إفراط وتفريط لابراهيم الكوراني. مخطوط خ.ع. 2279 د ص 9 الرحلة ص 429/1.

31) الثغر ص : 134.

في المغرب، فأذاعها لدى علماء فاس ودرعة. وكان كتاب الكوراني «مسلك السداد إلى مسألة خلق أفعال العباد» (32) مثار نقاش حاد، مثل جانبا هاما من جوانب الصراع الفكري الذي عرفه المغرب خلال القرن الحادي عشر الهجري (33). فتصدى للكتاب محمد المهدي بن أحمد الفاسي في كتابه «اللمعة الخطيرة والنبذة اليسيرة في مسألة خلق أفعال العباد الشهيرة» (34) كما رد عليه محمد بن عبد القادر الفاسي في مستدرك له على مسلك السداد (35)، وقد انتقدهم الكوراني في «نبراس الإيناس بأجوبة أهل فاس (36). كما شارك في التشنيع عليه الحسن اليوسي (37) ومحمد بن أحمد القسنطيني (38) ومحمد بن أحمد المسناوي (39) والعربي بن الطيب القادري وأخيه محمد بن الطيب القادري (40)....

أما العياشي فقد دافع عنه في رحلته (41) ورسائله (42). ويبدو أن موقفه في هذه القضية الكلامية أعمق من الكوراني ومنتقديه (43)، فلاحظ أن أفكار الكوراني لا تخلو من غموض ولم تتضح كل الوضوح. ويبرر العياشي ذلك بأن القضية من معضلات المسائل التي حارت فيها أفكار المتقدمين، ولم تحصل على طائل في تحقيق معناها آراء المتأخرين (44) ومع هذا الإدراك يقول أبو سالم : «الكسب هو صفة من صفات العبد يحس كل أحد بوجودها فيه وثبوتها في محله، فبها يفرق بين أفعاله الاختيارية والضرورية، ولكنه لا يدري حقيقتها ولا يحقق كل التحقيق نسبة أفعاله إليها مع اعتقاد انفراد الله تعالى بخلق العبد وخلق أفعاله غير مفتقر إلى معين واعتقاد أن لكسب العبد دخلا في وجود أفعاله على وجه لا يضايق فيه القدرة الإلهية ولا يزاحمها ولا يعينها، ولكن عجزنا عن إدراك ذلك على وجه. ومن أتاه الله فهما وعلما ونورا أدرك حقيقة ذلك ما يدرك العارفون بالله حقائق أشياء كثيرة من عالم الغيب والشهادة» (45) ولعل في هذا الرأي أثر من الأشعرية ومن التصوف، غير أن أبا سالم لم يكن متحمسا لفكرته، فقد غاضه التشنيع على الكوراني وهو يعتبره من أئمة الهدى ورؤساء السنة، ويرى في إنكار معاصريه كثيرا من الغلو والبعد عن الانصاف وسداد الرأي، وحرصا على سلامة السلوك الديني شافه الكوراني بضرورة الإمساك عن الخوض في هذه المسألة وكاتبه في شأنها مرارا (46) لقد أدرك أبو سالم ان البعد عن هذا الصراع الفكري الذي استمر ردحا من الزمن (47) ضرورة اجتماعية في بلده الذي سادت فيه نوازع التقليد ومقارعة كل جديد، ولم يكن يريد الدخول في حلبة هذا الصراع. لذلك، لم يخلف فيها مؤلفا باستثناء الاشارات العديدة التي ضمنها في الرحلة وبعض الرسائل. وينهي العياشي موقفه من قضية الكسب قائلا : «كان رأيي في هذه المسألة الإمساك عن الخوض فيها لصعوبتها، ولم يكلفنا الله بذلك، فرضي منا بأقل ميسور في الاعتقاد السالم عن دعوى الجبر والاستقلال مع التفويض إلى الله في إدراك الحقيقة» (48)... «فإن سئلنا عن هذا الكسب بتعريف مانع قلنا لا سبيل إلى ذلك،

---

32) مخطوط خ.ح. 169، خ.ع. 167 ضمن مجموع 445 ـ 492.
33) نشر المثاني 132/2.
34) مخطوط ضمن مجموع خ.ع. 1234 ك، ص 100/37.
35) مخطوط خ.ح. 169 خ.ع. 167 ضمن مجموع ص 20/2.
36) مخطوط ضمن مجموع خ.ع. 2279 د، ص 8/3.
37) رسائل اليوسي ص 613/2 ـ 617.
38) التقاط الدرر ص 256.
39) جهد المقل مخطوط خ.ع. 579 ج.
40) رسائل اليوسي 617/2.
41) الرحلة 360/1 ـ 370.
42) الثغر ص 139/131.
43) لا نتفق مع رأي القادري واما لثناء صاحب الرحلة العياشية عليه (الكوراني) ولثناء غيره كأصحاب الفهارس وغيرهم فلكون المقام اقتضى ذلك، إذ ليس ذلك المقام مقام الرد والبحث وتحقيق المسائل وإنما هو عد الأشياخ وذكر أسانيدهم ومؤلفاتهم. «النشر 134/2، لاهتمام العياشي بمسألة الكسب ووضوح موقفه من انتقاد الكوراني كما هو مبين في هذا المبحث.
44) الرحلة ص 360/1.
45) الرحلة ص 362/1.
46) الثغر ص 134.
47) يقول العياشي في رسالته لعبد الرحمان الفاسي : «ولقد كتبنا إلى شيخنا العارف بالله تعالى والدكم أبقاه الله وأبقاه، أسئلة في هذه المسألة، وبعثنا إليه بأول رسالة ألفها شيخنا القشاشي رضي الله عنه قبل هذا بنحو عشرين سنة...» الثغر ص 135.
48) الثغر ص 137.

والسلام. فرب ما ثبت لا تحيط به العبارة ومحسوس لا تكفيه إشارات، والصواب عندنا إنه أمر لزم عن حق فكان حقا» (49).

ولم يقف أبو سالم عند حدود قضايا الاعتقاد أو العبادات، فإن المعاملات - وهي من أسس تنظيم المجتمع الإسلامي - اهتم بأحوالها، ولعل عنايته بنظم بيوع ابن جماعة وشرحه أثر من شخصيته العلمية التي أثبتت حضورها الفعلي في المساهمة من أجل تطور مجتمعه وتحمل مسؤوليته الفكرية فيه.

وتتسم شخصية أبي سالم العلمية بالحرص على التأني لأجل التثبت، لذلك لم يكثر من النوازل - وهي تستلزم حضورا علميا مكثفا واجتهادا سديدا ثاقبا - فكان يكره أن يفتي مرتين في موضوع واحد لادراكه اختلاف الظروف وتباين الحالات. وقد قال سحنون بن سعيد : «أجراء الناس على الفتيا أقلهم علما» (50).

الشخصية الأدبية :

رغم أن الشخصية الأدبية المغربية كانت متوارية أو مختفية وراء الشخصية الصوفية والعلمية، كانت من اللوازم التي تكمل شخصية العالم، فاحتياجه إلى النظم التعليمي والرسائل الإخوانية وإشعار المدح ومجالس المسامرات... كان سبيلا لإبراز اهتمامه الأدبي وقد استجاب في ذلك لظروف واقعه وتفكيره، فكانت أشعار المديح النبوي تشيد بالرسول باعتباره البطل المخلص من استشكالات الواقع بسائي أنماطه. كما كانت الأشعار في مناقب العلماء والمتصوفة دعوة لاقتداء سلوك صوفي يؤمن السلامة من موبقات الواقع. أما الجانب الذاتي - رغم تعدد مجالاته - فقلما استجاب العالم المغربي لإحساسه أو تفرغ للتعبير عن عواطفه، لأن «الموضوعية» غلبت على تفكيره بكل واقعية وعقلية. وعندما يتوفر «الذاتي» لا يتجاوز التعبير عن لحظات فراق الأهل أو لقاء مع طيف خيال أو وصف طبيعة أو إنشاد في مجلس سمر أو شكوى من ضيق الحال.

وقد تمثل أبو سالم في أدبياته شخصية العالم المغربي واهتماماته فاقتدى بالواقع الأدبي واستجاب لمعطياته، غير أن حرص أبي سالم على إبراز شخصيته الأدبية يبرز محاولته التي تبحث عن تجاوزات للواقع الأدبي، فجعل الشعر خطابا أدبيا في مستويات مختلفة من الواقع المعيشي من استعارة كتاب أو طلب لقاء إلى استدعاء إجازة أو مديح نبوي. غير أن بعض هذا التجاوز لم يحقق أهم دعائم الشعرية (الفن الشعري) رغم توفر الشاعرية (بواعث الشعر).

أما في مجال النثر فالعياشي يهتم برسائله الإخوانية فيحليها بأسباب الخطاب الأدبي ما يجعلها ذات بلاغة وفن، كما تمثل آراؤه النقدية في مجال الأدب استيعابا للتراث النقدي ومحاولة لتحقيق واقع أدبي متلمس للإبداع الفني.

وبذلك تكون الشخصية الأدبية لدى العياشي في تطلعها إلى تجاوز «الموضوعي» إلى الذاتي وفي استجابتها للواقع الأدبي وإنماطه الابداعية، حريصة على أن تأخذ نصيبها من خلال الاهتمامات الفكرية والعلاقات الاجتماعية.

مكانة العياشي :

وقد حظيت شخصية أبي سالم بكل اهتماماتها بتقدير من معاصريه ومترجميه، وحلوه بأحسن الأوصاف وكريم الأخلاق.

ففي اهتمام أبي سالم بالتصوف قال عنه الفاسي : «حسن الظن في جميع الخلق، كثير الزيارة لمن يتوسم فيه الخير» (51).

وقال عنه الأفراني : «كان من أهل الخير والصلاح متسما بالزهد والورع مائلا في دروسه إلى علم الطريقة وجانحا إلى تعظيم الصوفية» (52).

وفي اهتمامه بالعلم قال عنه القادري : «الإمام

49) الثغر ص 138.

50) انظر مجلة تطوان العدد الخاص للمولى اسماعيل 1972 ص 24.

51) الإعلام بمن غبر... ص 72/71.

52) صفوة من انتشر ص 192.

الفاضل، الشائع الفضائل والفواضل، العلامة الكبير، المحقق التحرير، المحصل المشارك، المحقق المفهوم والدارك، الواسع الرواية، الحسن الدراية، الرحالة الجوال، الفصيح القوال...» (53).

وقال عنه الأفراني : «أحد من أحيا الله بهم طريق الرواية بعد أن كانت شمسها على أطراف النخيل، وجدد في فنون الأثر كل رسم محيل» (54).

وفي اهتمامه بالأدب قال الفاسي عن قصيدته : أجل صحابي... «تدل على فصاحته ونسكه وجوده» (55).

وقال عنه الأفراني : «له شعر حسن الغاية» (56).

وقال عنه القادري : «له ترسيلات وإنظام جيدة بليغة» (57).

كما مدحه كثير من معاصريه كالحسن بن مسعود اليوسي وعثمان ابن علي اليوسي وابراهيم الخياري ومحمد بن عبد الجبار العياشي (58).

يقول الحسن بن مسعود اليوسي : (من الطويل).

أبـــا ســـالم مـــا أنت إلا كـــــالم

لـــديـنـــا ولم يقض اللقـــاء فـــالم

53) نشر المثاني (الطبعة الحجرية) ص 16/2 ـ 46 (الطبعة المحققة) ص 254/2.
54) الصفوة ص 191.
55) الإعلام بمن غبر... ص 72.
56) الصفوة ص 193.
57) النشر (الطبعة الحجرية ص 46/2).
58) راجع الثغر ص 4 و5 و9 و12 و14 و127 الاحياء ص 94 و95.

وزود غريبـــا طـــال مـــا قـــذفت بـــه

ضروب النـوى من كـــل أفيـــح قـــاتم

مـدامـــا لشرب الكـــأس وهي منـوطـــة

بكف الثريـــــــا أو بكف النعــــــــائم

بـــــــود وأن الـــــــــود أطيب القرى

ودعـوة صـــدق عنـــد عقـــد العـزائم

وسلم على من ثم من جملـــــة المـــلا

تحيــــــة ذي ود إلى الكـــــل دائم (59)

ويقول محمد بن عبد الجبار العياشي : (من الكامل).

يـــا سيـــدا سعـــدت بـــه الأيـــام

وتفـــاخرت بلقيـــــه الأعـــــلام

تحكيـــــه شمس الأفـــق في إشراقهـــا

والبـــدر تنـزعـــــه بـــــه الأوهـــام

فبــوجهـــــه تسقي البـــلاد غبرتهـــا

وبعلمـــــــــه تتنـــــور الأحـــــلام

يـــدعى بعبـــد اللـــــه اشرب مـــاؤه

يـــدعى نعم حـــام ويـــدعى ســـام

أفـق الحجـــاز وأفـق مصر كـلاهمـــا

يشتـــاقـــه ويحبـــه والشـــــام

والغرب يرغب في المقـــام بـــأفقـــه

حتى يتم لـــــه بـــــه الانعـــــام (60)

59) ديوان اليوسي (الطبعة الحجرية) ملزمة 14 ص 8 المحاضرات ص 31 الثغر ص 128 النشر (الطبعة المحققة) ص 255.
60) الثغر ص 4.

قصة قصيرة :



للأستاذ أحمد عبد السلام البقالي

كان عبد الحميد الماوردي نائما على وجهه مستغرقا في سبات عميق. وفجأة أحس بضيق شديد في صدره، واختناق حاد بسبب انسداد كامل في قصبته الهوائية...

جلس على حافة السرير يكافح للاستنشاق فلا يدخل إلى رئتيه هواء، ولا يخرج من فمه المفتوح إلا شهيق عال يشبه العواء !

واستيقظت زوجته (راضية) مذعورة فأخذت تضرب على ظهره وصدره بقبضتيها وتصيح بمن في الدار لإخراج السيارة...

واستمرت الحالة العصيبة أزيد من ستين ثانية في طول الدهر، وعبد الحيمد يقاتل من أجل حياته ـ من أجل نسمة هواء تدخل رئتيه..

وأشار إلى زوجته لتنفخ في فمه فلم تفهم، ووضعت كفها عليه، فنزعها بقوة، وأعاد الكلام المهمهم المبهم، ففهمت، وانكبت على فمه تنفخ فيه بقوة حتى انفتحت مسارب الهواء إلى رئتيه، وتنفس الصعداء، وجلس يلهث ويستريح وكأنه مشنوق انقطع به الحبل...

☆ ☆ ☆

ولم ينم بقية الليل خشية أن تعود النوبة القاتلة... وقضى الوقت يراجع وضعه، ويتدبر في أمر الحياة بعد أن رأى مخالب الموت تنشب فيه، ويدها العظمية تنطبق على عنقه بقوة، ثم ترتخي مؤجلة القدر المحتوم إلى وقت آخر، وكأنها كانت تتدرب عليه.

وأصرت زوجته على أن يعرض نفسه على طبيب اختصاصي في الصدر والقلب ـ ولما كانت تعرف عزوفه عن الأطباء، ذهبت بنفسها إلى العيادة، وأخذت له موعدين مع كل من طبيب الصدر وطبيب القلب...

وحتى لا تضيع وقته، وتخرجه من مكتبه قبل الموعد، ذهبت لتطلب من الممرض الذي يرتب مواعيد طبيب الصدر فأعطاها رقما، أما ممرض طبيب القلب فلم يكن يوزع أرقاما...وحين سألته عن مكان زوجها من لائحة الانتظار رفض أن يخبرها...

☆ ☆ ☆

وحين تأخرت مكالمتها، ترك عبد الحميد مكتبه، وقصد العيادة، معتقدا أنها ربما لم تجد هاتفا قريبا تنادي منه.

وعلى باب العيادة التقى بها خارجة وقد امتقع وجهها كأنما رأت شبحا، وانتفضت جميع أطرافها من الانفعال الشديد، والغضب المكبوت.

وأمسك بذراعها، وانتحى بها جانبا.

ـ مالك ؟

وبعد أن استرجعت أنفاسها أجابت :

ـ ذلك الحيوان !

ـ من ؟

ـ ممرض الدكتور بيرزادة !

ـ ماذ فعل لك ؟

ـ ذهبت إليه أطلب منه مكانك من اللائحة حتى أناديك، فرفض حتى الكلام معي... أنا أحاول معه بكل أدب ولطف، وهو، كالحيوان، لا يزداد إلا انتفاخا واستكبارا، كأن باب الجنة على يديه... ولو كانت الحياة على يديه فالموت أرحم ! وقلدت إجاباته : «أقعدي وانتظري نوبتك !» قلت له : «الموعد ليس لي، بل لزوجي، وأريد أن أعرف بالضبط متى سيراه الطبيب لأناديه، فهو مشغول، وفي يده مصالح الناس !

...«ليأت وينتظر مع بقية الناس...» وذهب وتركني أتميز من الغيظ... هل هذا مستشفى ؟ هل هؤلاء ملائكة الرحمة ؟!

وغلبها البكاء فدفنت وجهها في منديلها... ولم يستطع أن يقول لها «ألم أقلها لك ؟! دعينا نموت في ستر الله، ولا تعرضينا لهذه البهدلة.

وتركها ليذهب إليه، وفي نيته أن يفرغ عليه جام غضبه !

☆ ☆ ☆

ولم يكد يتحرك حتى نزلت على كتفه يد والتفت فإذا وجه رجل ذي ملامح مألوفة، ورأس صغير أصلع ملتصق بجسد ممتلئ بدون عنق.

ـ لا تذهب... ستتعب نفسك، وتثير أعصابك مع ذلك الحيوان بدون فائدة... برد أعصابك الآن... وسوف نجد طريقة لرد الصفعة صفعتين ! كيف حالك ؟

وتذكره عبد الحميد :

ـ عبد الجليل ! ماذا تفعل هنا ؟

ـ جئت لإجراء فحص على القلب... وأنت ما جاء بك إلى هنا ؟ أراك ممشوق القوام كما كنت أيام باريس منذ خمسة وعشرين عاما ! فمماذا تشتكي ؟

ـ لا شيء ! وساويس النساء جاءت بي إلى هذه المزبلة ! لو كنت تركتني لقتلته !

ـ وما الفائدة ! لو تركتك لدخلت معه في معركة كلامية أو بالأيدي، وسيكون هو الفائز... انظر إليه.

☆ ☆ ☆

ولأول مرة رأيت «عبقاضر» الممرض الخبيث، كما كان يدعى هناك...

كان في حوالي الثلاثين من العمر، مثلث الوجه، زائغ العينين، يشبه في مظهره ملاكما من وزن الريشة، أكرد الشعر، يلبس معطفا أبيض، وتحته بنطلون بني واسع الأكمام فاتت «موضته» منذ سبع سنوات.

كان يدفع أمامه رجلا مجلببا يلبس تحت جلبابه الممزقة الغمرتين والركبتين، والمقعد، سترة قديمة لمع في عنقها الوسخ... وفي رجليه حذاء مخروق بدون جوارب... ووقف معه في ركن الممر، فوضع الرجل الفقير المريض ورقة بعشرة دراهم في جيبه، فعاد عبد القادر به يدفعه أمامه دون رحمة، وأوقفه في ركن، «انتظر هنا».

وذهب إلى سيدتين يبدو من مظهرهما أنهما محترمتين فزمجر فيهما : «ابتعدا عن باب الطبيب !».

وابتعدت السيدتان وهما ينظران إليه بعجب شديد، واستياء وخوف. وخرج له شاب طويل ممتلئ يبدو أنه زوج إحداهما : «ما هذه المعاملة ؟ هل نحن هنا في سجن أو في معسكر ؟» فصاح فيه «عبقاضر» : «وأنت ما دخلك ؟ هل هو شغلك ؟» «نعم شغلي ! من علمك الأدب ؟ هل هكذا تخاطب السيدات ؟» فرد عبد القادر «الطبيب لا يريد أن يرى أحدا واقفا هناك... هل تريد أن تسأله ؟» وذهب ففتح الباب على البروفيسور بيرزادة، وهو يفحص

مريضا، وكأنه يفتحها على قرد يرقصه في الأسواق... فقال له الشاب : «أنا لا أقصد ذلك، يا بني آدم، كان يمكنك أن تقول ذلك للسيدتين بأدب !» «وأنت مالك ؟ هل هو سوقك ؟» ولم يرد عليه الشاب الطويل، واكتفى بأن ذهب إلى حيث كانت تقف السيدتان، ووقف مقاطعا ذراعيه على صدره : «تعال إذن حركني من هنا !» وحين رأى أن الشاب عازم على الذهاب بالمسلسل إلى نهاية دامية خاف على نفسه كأي جبان، وأحنى رأسه : «افعل ماشئت... إذا كانت الأمور سيبة !» وذهب يجر أحد المرضى من يده إلى«غرفة الجراحة» التي كان يعمل فيهاالبناؤون، ووقف يأخذ منه مبلغا لتقديم موعده على اللائحة.

☆ ☆ ☆

والتفت عبد الجليل إلى عبد الحميد :

ـ أرأيت ؟ أنك لن تستطيع معاملة هؤلاء بطريقتهم... ستقاتلهم بسلاحهم، وعلى أرضهم، وبأسلوبهم الذي يتفوقون فيه عليك... سيمسح بك الأرض، وأنت في بدلتك الأنيقة هذه، ويرفع ضغط دمك، ويجعلك فرجة لجمهور الواقفين دون أن يشعر بأنه يفعل شيئا غريبا... لأن ذلك طرف من تصرفاته في حياته اليومية... أما بالنسبة إليك فيكون مأساة نفسانية خطيرة تحكيها لأحفادك.

ووضع يده على ركبته قائلا :

ـ دعنا نحاربه بسلاحنا... وكما يقول المثل الفرنسي «طبق الانتقام أشهر ما يؤكل باردا». أنا الآخر لي معه حساب... فقد فاجأني وأثار أعصابي، على حين غفلة مني، فانسقت إلى أوحاله...

وتدخلت زوجة عبد الحميد :

ـ أرأيت كيف يأخذ الرشاوي باليمين وبالشمال ؟

فقال عبد الجليل :

ـ ذلك هو السر في عدم إعطائه الأرقام للمرضى حتى لا يعرفوا مكانهم من الصف... ليستطيع التلاعب بالمواعيد، وتسبيق من يعطي على من لم يعط...

فقال عبد الحميد الذي كان يجهل ما يقع في الطبقات التحتية :

ـ لابد أن نخبر البروفيسور بيرزادة بذلك... فلا اعتقد أنه يرضى بأن يبيع فيه ويشتري هذا المخلوق الحقير ! واسكته عبد الجليل :

ـ شش !! ومن أدراك أنه شريكه في الحصيلة الجانبية ؟ وهو الذي أطلق يده في الزبائن ؟

ولم يصدق عبد الحميد ولا زوجته :

ـ لا يمكن ! أبدا ! البروفيسور بيرزادة ؟! إنه يكسب مائة درهم على رأس كل خمس دقائق يقضيها مع مريض، فلماذا يحتاج إلى دريهمات الممرض ؟!

فلمعت عينا عبد الجليل بابتسامة المجرب الخبير بطبائع الناس، وقال :

«لا يملأ جوف بني آدم إلا التراب» أنا لا أتهم البرفيسور، ولكني كرجل قانون أجد القرائن التي تثبت شكي قوية !

فسأل عبد الحميد :

ـ مثل ماذا ؟

ـ مثل سكوته عن معاملة ممرضه للمرضى، فليس من المعقول ألا يعرف ما يجري في ممر الانتظار من معارك يومية مع الناس، وليس بينهما إلا الباب.

فحرك عبد الحميد رأسه غير مقتنع، فأضاف عبد الجليل :

ـ ولماذا لم يفعل كما فعل الدكتور بنيس الذي فرض الأرقام على ممرضه ؟ أرأيت كيف يدفع الأرقام للناس وهو مريض متألم للفرص التي تفوته !؟

وتبادل عبد الحميد وزوجته نظرة استغراب وحيرة ! إلى هذا الحد وصل الطب ؟! هذه المهنة الشريفة ؟!

☆ ☆ ☆

وكانت أعصاب عبد الحميد قد هدأت نوعا، واطمأن إلى أن قضية الانتقام من «عبد القادر» أصبحت في أيد أمينة، وأن الوحش المسعور تنتظره على يد عبد الجليل

«وقعة سوداء»، فقد كان هذا خبيرا دوليا في نصب الفخاخ والإيقاع بخصومه بذكاء وبرودة دم يشيران الاعجاب...

كان يفعل ذلك بدون عاطفة أو انفعال، فقد تربى يتيما، وتقاذفته الأقدام مدة طويلة جعلت ينابيع العاطفة تجف في نفسه، ومنها الغضب والانفعال، فكان حين يسيء إليه أحد يتلقى الإساءة بهدوء، وكأنها أمر طبيعي... وحين ينتقم منه، يحيك له فخا يقع فيه على أن يعود ذلك عليه بفائدة ما... أما الانتقام من أجل إشباع شهوة الانتقام، فهذه مرحلة تخطاها...

☆ ☆ ☆

كان عبد الحميد على عكسه تماما... لا يعرف الشر، ولا يختلط بالناس ليجربه. وأتاحت له ظروف عمله البعد عن مثل الحدث الذي تعرض له اليوم...

وكان قد عرف عبد الجليل أثناء عمله بالخارج... جمعتهما ظروف العمل في شركة واحدة، وهما على طرفي نقيض.

وأول مواجهة عنيفة له مع عبد الجليل، كانت أثناء «المقلب» الذي نصبه له هذا الأخير ليستولي على مخزن للشركة به بعض المعروضات التقليدية ليبيعها لحسابه الخاص...

واستفظع عبد الحميد ذلك، وقطع عنه الكلام، وصار له عدوا صريحا بينما الآخر يجامله، ويعامله كطفل صغير لا يفهم من شؤون الحياة شيئا...

ولابد أن عبد الجليل تذكر المقلب بعد هذه السنين الطويلة، وأدرك رغبة عبد الحميد الصبيانية في الانتقام لزوجته من عبد القادر فطمأنه إلى أنه سيقوم بذلك نيابة عنه ليكفر عن مقلب المخزن (بباريس) منذ ربع قرن !

ورغم أن عبد الحميد كان يحقق ألاعيب عبد الجليل واحتياله على الناس، فإنه رأى في توجهه للمكر بعبد القادر عملا نبيلا... فمثل ذلك الوحش لا مكان له في عيادة طبيب، وخصوصا طبيب القلب الذي يجب أن يقف على بابه ملائكة رحمة من بنات نشأت في بيوتات عريقة يعاملن الناس بأدب ورقة ومدنية...

وانبسطت أسارير عبد الحميد وهو يودع عبد الجليل ليدخل عند الطبيب، وقال :

ـ لو كان مسلسل (دالاس) يعرض في ذلك العهد، لكنا سميناك «جي.آر» !

فرد عبد الجليل ضاحكا :

ـ هكذا يسمونني في الدار البيضاء. وافترقا...

☆ ☆ ☆

ومرت مدة نسي فيها عبد الحميد الماوردي مسرحية العيادة، وبطلها «عبد القاضر»، أو «عبقاضر»، وكل ما سببه له دخول تلك البيئة الموبوءة من ازعاج شديد، وتذكير بحقيقة تخلف بلاده... فحتى على مستوى العيادة الصغيرة لم يستطع طبيب اختصاصي كبير، أن يفرض شخصيته على ممرض بدوي جاهل لا تربية له، ولا خبرة بأصول التعامل المتمدين مع الناس، بحيث جعل من عيادته جحيما لمرضاه، ومملكة للإهانات والارتشاء والطغيان والانفعال المجاني مع جميع الناس !

وذات يوم التقى بعبد الجليل في حفل عرس، فحياه هذا بحرارة وعانقه، وجلس بجانبه...

وتذكرا آخر مرة التقيا فيها، فعاد الغضب إلى نفس عبد الحميد... ولكن عبد الجليل استوقفه سائلا : «هل عدت إلى عيادة الدكتور بيرزادة مرة أخرى ؟»

ـ لماذا ؟

ـ أوه ! لو ذهبت إليها الآن، لرأيت عجبا ! لقد تغير كل شيء !

ـ كيف ؟!

قالها عبد الحميد بشوق.

ـ سأحكي لك من البداية : حين وصل دوري، وكان آخر الأدوار، لأنني رفضت مثلــك أن أدفع، دخلت على الطبيب، فإذا هو ابن صديق قديم، فوقف مرحبا بي بحرارة، وعانقني، الأمر الذي جعل الممرض الخبيث يصغر ويصغر حتى كادت تسقط عنه ملابسه وضحك عبد الحميد من القلب، وقد زايله بعض الغم، قال عبد الجليل :

ـ وسألني الدكتور لماذا لم أخبره بوجودي في العيادة، فقلت له، وهل تركنا الأخ «عبقاضر» نفتح فمنا لنقول شيئا ؟ فأخذ الممرض القزم يعتذر بأنه لم يكن يعرفني... فزاد ذلك طينته بلة ! لأن الدكتور توجه إليه قائلا في حدة : «ماذا ؟ ألا تتأدب إلا مع من تعرفهم ؟!» وحدجه بنظرة باردة، فتأكدت أنني قطعت نصف الطريق في تنفيـــذ مخططي ! وحين خرجت تبعني الممرض يستعطفني، ويحاول تقبيل كتفي لأصفح عنه.

فقاطعه عبد الحميد معلقا :

ـ الطغيان من شيم الجبناء، وصغار النفوس !

واستأنف عبد الجليل :

ـ فقلت له : «لا تقلق... أنا لم أقصد أن أشتكيك، فقط أردت الاعتذار للدكتور، وكنت أنت الضحية... ولأؤكد لك حسن نيتي، سأكلفك أنت بضرب هذه الحقن لي... فما رأيك ؟» ففرح، وطلب مني الشفاعة له عند الطبيب، فوعدته بذلك..».

وعمل عبد الجليل بيده حركة فهم منها عبد الحميد أنه كذب عليه، وأنه فعل العكس... وأضاف :

ـ واتفقت مع صديق ليزورني في الوقت الذي سيحضر فيه الممرض، وحكيت له قصته... وحين جاء، وضرب لي الحقنة، دعوته إلى الجلوس معنا، وصببت له القهوة، واستدرجته للكلام في الطب وإظهار عضلاته حتى انتفخ ريشه كالطاووس، وأنا أشجعه، وأسّل لسانه، وهو يحكي عن الحالات المستعصية التي عجز أمامها الدكتور الاختصاصي، واستطاع هو علاجها بطريقة من ابتكاره... وما إلى ذلك ! وفي الختام قدمت له صديقي الذي جلس صامتا طول الوقت. بالبروفيسور المصباحي، الاختصاصي الكبير في جراحة القلب المفتوح، فكاد فنجان القهوة يسقط من يده... وتلعثم، ودهش، ووقف احتراما لا يدري ما يفعل بنفسه ! فهدأت روعه، وقلت له إن البروفيسور كان يحدثني عن رغبته في العثور على ممرض كفء له مؤهلاتك، وقد حكيت له عنك، وهو مستعد لأن يلحقك بعيادته الكبيرة، ويدفع لك ضعفي ما تقبضه حاليا في مستشفى الحكومة. وانفتحت شهية الحيوان التي لا تعرف الولاء ولا الوفاء لصاحب الفضل الأول عليه، فقبل في الحال...

وفعلا استخدمه البروفيسور في عيادته بأجر عال...

«وفي نفس الوقت اتصلت أنا بالدكتور بيرزادة، ورشحت له ممرضة جميلة من عائلة مدنية طيبة، جعلت من باب عيادته جنة فيحاء، وضاعفت عدد قاصديه بلطفها، ولباقتها، وحزمها مع الراغبين في تخطي الصفوف وخطف مواعيد الغير !

«واكتشف البروفيسور المصباحي شراسة عبد القادر، ومعاملته الوحشية للمرضى، وتلاعبه بالمواعيد، وارتشاءه المفضوح، فطرده من عيادته في أول شهر !

«ولم يقبله طبيب بعد ذلك»

فالوسط الطبي ضيق على سعته... وأخبار أهله تسرى بسرعة !

«وجاء يشتكي لي، ويطلب مني التوسط له عند الدكتور بيرزادة، فوعدته خيرا...».

ونفخ عبد الجليل شدقه علامة على أنه كذب عليه... فسأله عبد الحميد :

ـ وماذا فعل ؟

ـ إنه ما زال يتردد على مكتبي وأنا أعده خيرا.

ـ ولكن لماذا، إذا كنت لا تنوي التوسط له ؟!

ـ لأنني أريده أن يصرف آخر درهم أخذه رشوة، قبل أن أخبره بفشل الوساطة !

وضحك الرجلان في مرح صبياني !

بمولده تموز أصبح سيّداً

للشاعر محمد عبد الرحمن الدرجاوي

إذا صرمت سعدى حبالي وزينب ... ولجت سليمى بالمشيب تؤنب

وصدت صدود القاطعين أمامة ... وأعرض عني والفؤاد معذب

ففي القلب حب للمشيب أكنه ... قديم، وإني بالمشيب أرحب

وإني ساعتاض الشباب ويومه ... بديلار فيقا راحما ليس يعتب

لك الحمد ياعيد الشباب أرحتنا ... وقبلك كنا في القيود نعذب

أمنا بك المكروه من كل عابث ... يسير على الحبلين غشا ويلعب

بإشعاعك الميمون عم بلادنا ... سحاب من التسخير واليمن صيب

بك الحسن الثاني تبوأ مهده ... وذلك مهد في القلوب محبب

ألا إنه الشهم الذي ورث العلى ... تريكة قوم بالمعالي تغلبوا

أمير عليم بالسياسة منصف ... فقيه وقور حافظ متدرب

بمولده «تموز» أصبح سيدا ... يغنى له دون الشهور ويطرب

وتاسعه ذكرى وعيدا وموسما ... يلذ به ما يستطاب ويعذب

ومغربنا الأقصى به وبيمنه ... يسير إلى حيث السيادة ترغب

وأمتنا كلا تبارك نهجه ... فليس لها من دون ماسن مذهب

له همة تسعى ـ ولله درها ـ ... إلى الخير لا تألوو لا تتريب

وخلده في الصالحين قيامه ... يسن على نهج الرسول ويندب

وسيرته الحسنى ودين ومحتد ... وبيت له كل الفضائل تنسب

وفكرته الكبرى مسيرة مبدع ... رأى أنها الجيش الذي ليس يغلب

فبان بما أعطت بأن وراءها ... إمام على حفظ الرعية يدأب

ويدعو إلى السلم الرجال بحكمة | فيقبل بالترحيب ما هو يطلب
فتجمعهم جمع التشاور دعوة | ويدفعهم نحو التناصح موجب
ويأسو كلوم العاثرين بكلمة | لها زنة فوق الملايين تحسب
ويملك حدسا صائبا متبصرا | يطالع بالمخبوء من حيث يحجب
ويعرف حما للتخالف صارما | يصاحبه سر به يتقلب
يصير به داء التخالف مرهما | ونقطته من خائها تتهرب
وذا كله يجري بغير تورط | ولا عجل في القصد يضني ويتعب
وكم سائر يمشي مع الطبع سادرا | يقصر عن إدراكه المتوثب

☆ ☆ ☆

فمنا له محض الوداد هدية | يذاع بها في كل ناد ويخطب
وبيعتنا بالله خالصة له | فليس لنا فيها سوى الله مأرب
ندافع عنها الماكرين وكيدهم | وما جمعوا من خائنين وألبوا
فكم بطل من دونها ومصفح | يرضن، ومن ناب تعض وتنشب

☆ ☆ ☆

عرفنا مراد الخطم يطمع أرضنا | ولكن جهلنا ما يريد المذبذب
فكل مع الأضغاث يحلم نائما | وكل مع الأطماع والوهم أشعب
وأشعب ما كانت تحرك وهمه | بروق مدى الأيام في اللمع خلب

☆ ☆ ☆

هنيئا أمير المومنين ودولة | وبشرى بها ذكرى تزف وتجلب
«هنيئا» هتاف الهاتفين مرددا | و«يحيى» شعار في اللوائح يكتب
فكل يحيي والوفاء يحثه | وكل يناجي والمراد محبب
جزى الله عناء آل مولاي يوسف | جزاء وفاقا بحره ليس ينضب

وصلى على المختار ماذر شارق
وما غارب صوب المغارب يغرب

الدرجاوي محمد الرحمن

رحلة الوحدة والنماء

للشاعر محمد بن محمد العلمي

(من بحر الرَّجَز)

في رحلة الوحدة والنماء، ... أحلى معاني الحب والولاء،

ما بين عرش ناصع الصفاء، ... وشعبه السباق للفداء !

فالخير فيهما بلا انتهاء، ... يسر أهل الأرض والسماء !

ففي الشمال أروع الأصداء ... من الجنوب، جنة الإخاء

هناك أو هنا بلااستثناء، ... لقد رضعنا العشق في الأثداء !

والشعب في الجهر وفي الخفاء ... عبر عن غرامه التلقائي

قد عمت الفرحة في البطاء، ... والريف والأطلس والبيداء

والقلب في مشاعر الولاء، ... قد مزج البيعة بالدماء !

فليشهد التاريخ بالوفاء ... لأمة الصولة والمضاء !

فذلك الصوت العميق النائي ... نور يشق حجب الظلماء

إذ راقنا في نهج الاهتداء، ... تطوع الرجال والنساء !

شعارنا البرور في الأداء ... لقم المسيرة الخضراء :

في قرضها نحن ذوو السخاء ! ... والعز في وسامها الوضاء !

ورمزها القرآن في النداء، ... تحت ظلال الراية الحمراء !

وفي السلام العرش ذو استواء ! ... إنا له نخلص في الدعاء !

☆ = ☆

(مراكش) في نشوة عذراء، ... تنعم بالعطف الاجتباء

فهي بما تشمل من أفياء، ... منطلق الحمائم البيضاء !

تلك (أكَادير) من النعماء ... ترفل في أثوابها الحسناء،

تصدح في الوصال بالغناء، ... وترتوي من كوثر الهناء

٢٩

بشرى لها بذلك الميناء،   مستودع النهضة والثراء !

وفي (كَوليمن) من الآلاء   جواهر تطفح باللألاء

وإن (طانطان) من السراء   عروسة تنعم باللقاء :

هذا الحبيب الباهر السناء،   تلوح منه بسمة الرضاء،

فيه الربيع أخضر الرداء   مبشر باليمن والرخاء،

إذا حل في الأبصار كالضياء،   وكان روح الروح في الأحياء !

(الحسن الثاني) بلا مراء،   أولنا في الهمة القعساء،

وتاجنا في القمة الشماء،   ورمزنا في المجد والعلياء !

قاد الخطى للبعث والبناء،   والنصر في المسيرة الخضراء :

من (طنجة) الجميلة الفيحاء،   إلى الكَويرة) بلا عناء،

لقد بدا في أجمع الأنحاء،   إجماعنا نحن في الاستفتاء !

فلتعتبر فلول الاستجداء،   وطغمة الضمائر السوداء !

☆ = ☆

وللعيون آية البقاء   تكسو (العيون) حلة الجلاء

خيامها كالزهر والأنداء   في الروضة البهية الغناء

فالمسجد الأعظم ذو البهاء   بنوره شع على الأرجاء !

في جمعة مشهودة الرواء   طابت لنا حظوة الاقتداء،

فالدين والدنيا بلا مراء   بالحسن الإمام في ازدهاء !

تلك (العيون) أصبحت للرائي   تطفح بالعشق والاحتفاء

ومجلس النواب، باعتناء،   عقد فيها دورة استثناء :

وذاك معنى الحذق والذكاء   في الوحدة الوطيدة الإرساء !

فشعبنا في أجمع الأنحاء   ملتحم الوجدان والإنشاء :

روح التمازج والاكتفاء   تحيي رباط الحب والإخاء

وحالنا في طفرة النماء   قد كذبت أبواق الادعاء

ففي السدود مصدر النعماء :   إن الحياة نشأت من ماء !

نلنا المنى بخطونا المشاء،   فنحن لا نرجع للوراء !

وقد حملنا أعظم الأعباء،   ونحن من نهزأ بالأرزاء

إنا تعبأنا إلى العلياء،   والمجد في الصباح والمساء !

وعشقنا باق بلا فناء،   يرنو إلى (عيوننا) الحوراء !

فمهجة (الوادي) في الازدهاء   جوهرة (الساقية الحمراء) !

و (الحسن الأول) في انتشاء — بالسبط ذي الحكمة والذكاء،
إذ صار في بذلته الزرقاء — يزهو هنا بأحسن الأزياء
صلى صلاة الشكر والثناء — إذ الهتاف ضج في الأجواء !
أكرم برفع الراية الحمراء ! — في معقل العزة والإباء !
تلك شموس الدولة الغراء، — تهفو إلى (فاطمة الزهراء) !
والفرع بالأصل في الانتماء — يفخر بالآباء والأبناء !

☆ = ☆

(لاهاي) فيها صولة القضاء، — تبوح بالحقيقة البيضاء،
ورأيها في العمق والجلاء، — قد كان حقا سيد الآراء :
صحراؤنا تدين بالولاء، — ولم تكن بالبقعة الخلاء !
بل هي رغم الكيد والأعداء — موصولة الأرحام والأجزاء !
فدع فلول الغدر والشحناء — من أنكروا الحق بالافتراء،
فالحقد كان أقبح الأدواء — في ثلة الحسد والبغضاء !
ما أهون الغرور من كساء ! — فقد رمى أهله في العراء !
من جهلوا جواهر الأشياء، — فهم ذوو البصائر العمياء !
ليس لهم في الكون من جزاء، — إلا افتضاح النية النكراء !
فالمغرب العربي السيماء، — قد عز في إفريقيا السمراء
والاتحاد أنجع الدواء، — والحصن في السراء والضراء
والمغرب السيد ذو ارتقاء، — بعرشه، للمجد والنعماء،
يمضي إلى الحق بلا التواء — فلا يخادع، ولا يرائي !
ولا يساوم على العلياء، — بل هو فوق البيع والشراء !
فعش لنا ياحسن الثناء، — فأنت فينا معقل الرجاء،
وتاجنا بمفرق الجوزاء، — ونفحة الصفاء والنقاء !
والفضل فضل الله ذي العطاء، — في رحلة الوحدة والنماء !

الرباط **محمد بن محمد العلمي**

مطبعة فضاله . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3



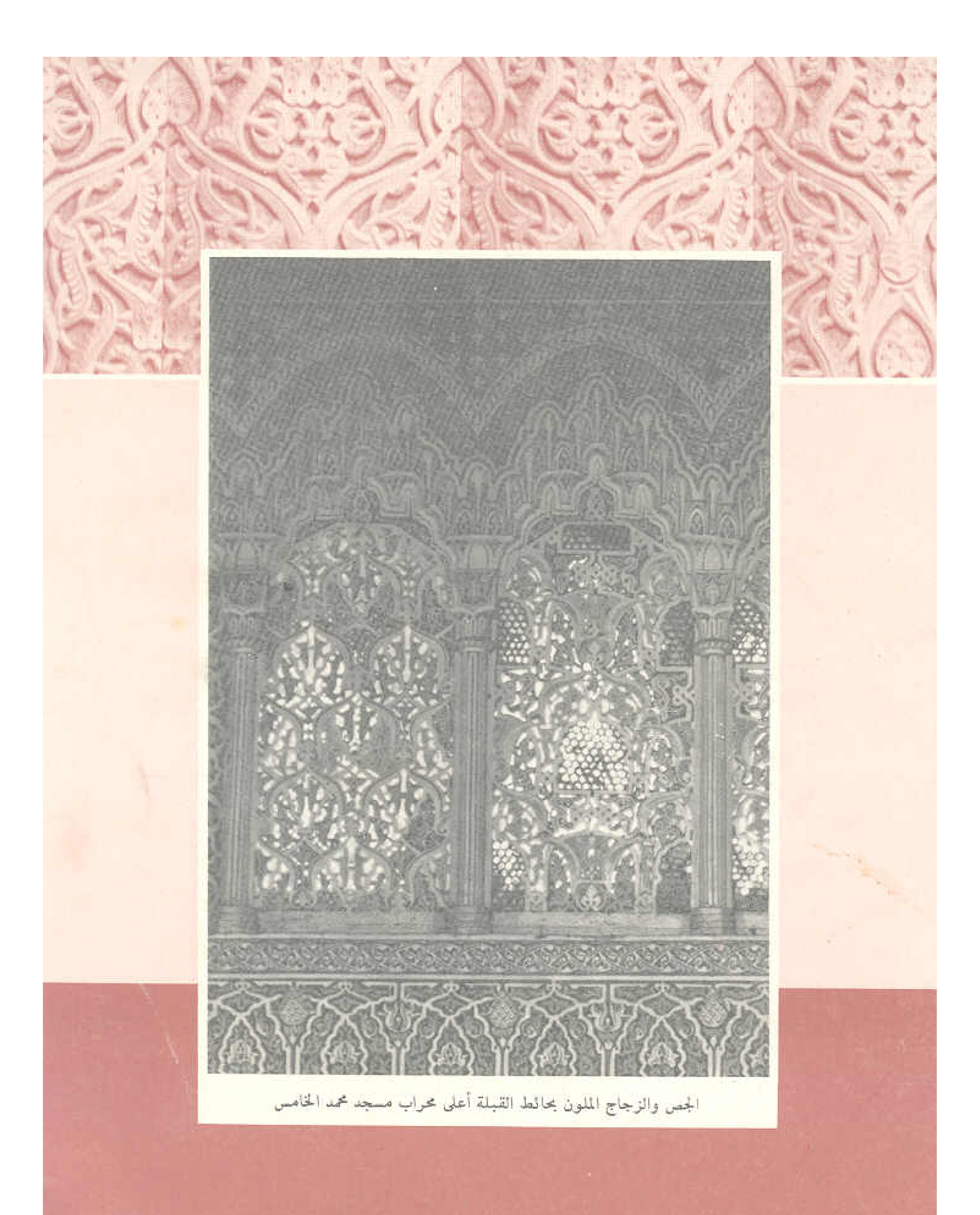


ندوة الإمام مالك
إمام دار الهجرة

دورة القاضي عياض

الجزء الأول

مراكش
13-14-15 جمادى الأولى 1401
20-21-22 مارس 1981



الجص والزجاج الملون بحائط القبلة أعلى محراب مسجد محمد الخامس